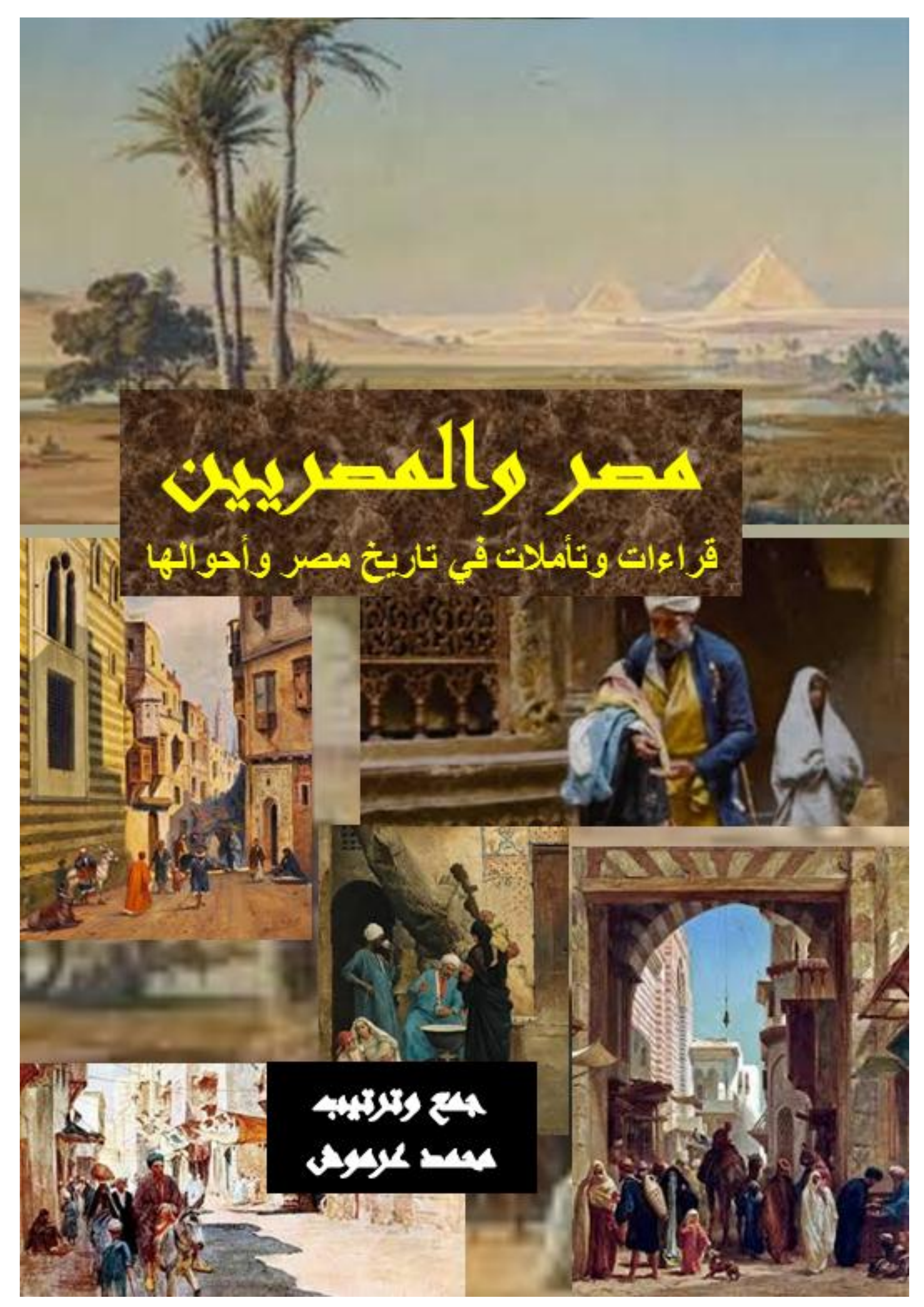

مصر والمصريين
قراءات وتأملات في تاريخ مصر وأحوالها
جمع وترتيب
محمد عرموش

مصر والمصريين

قراءات وتأملات في تاريخ مصر وأحوالها

جمع وترتيب

محمد عرموش

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب يتناول فقرات من بعض الكتب التي تضمنت موضوعات تخص مصر والمصريين علي مر التاريخ كتبها أدباء ومؤرخون ومفكرون ورحالة ومستعمرون ومستشرقون

قمت بتجميعها في كتاب واحد لتسليط الضوء علي أحوال مصر المحروسة وطبيعة شعبها الكريم ومدي تأثره بغيره من الشعوب

وهذه الفقرات تأتي علي شكل حوار بين شخصين أحدهما يقرأ للآخر وتدور بينهما مناقشة تتطلب الانتقال إلي كتاب آخر وهكذا

وفيما يلي بعض ما توفر من كتب تم الاستعانة بها في هذا الحوار

١ – كتاب مختارات (٣) من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان – الفصل الخامس – وحدة مصر الوطنية –مكتبة مدبولي

٢ – كتاب صفحات من تاريخ مصر – يحيي حقي – طبعة ٢٠٠٨ – نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

٣ – كتاب – القاهرة رحلة في المكان والزمان – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب جمال الغيطاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

٤ – كتاب تجار القاهرة في العصر العثماني – سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار – تأليف د نللي حنا – ترجمة وتقديم د رءوف عباس – الناشر الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولي ١٩٩٧م

٥ – كتاب (تاريخ مصر الحديث والمعاصرمن الحملة الفرنسية إلي ثورة ١٩٥٢)– د محمد مورو

٦ – كتاب مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي)

٧ – كتاب تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعى) ج١

٨ – كتاب الدولة العثمانية (د علي الصلابي)

٩ – كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار (عبد الرحمن الجبرتي) ج٥

١٠ – كتاب موسوعة وصف مصر – المصريون المحدثون – الجزء الأول –الطبعة الثالثة– ١٩٩٢ تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب

١١ – كتاب موسوعة وصف مصر – الجزء العاشر– تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة وتحقيق زهير الشايب ومني زهير الشايب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

١٢ – كتاب (موسوعة وصف مصر– جزء الزراعة والصناعة والتجارة) تأليف ب س جيرار من علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب – الجزء الرابع– مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

١٣ – كتاب تاريخ الحركة القومية ج٢ (عبد الرحمن الرافعي)

١٤ – كتاب محمد علي وأولاده (جمال بدوي)

١٥ – كتاب–دراسات في ثورة١٩١٩– دكتور حسين مؤنس–دار الرشاد–الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٥

١٦ – كتاب أسرة محمد علي – تأليف سهير حلمي

١٧ – كتاب ثورة ١٩١٩ –عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف–الطبعة الرابعة

١٨ – كتاب في المرآة تأليف الشيخ عبد العزيز البشري

١٩ – كتاب سعد زغلول سيرة وتحية لعباس محمود العقاد

٢٠ – كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

٢١ – كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين تأليف العلامة أبو الحسن الندوي

٢٢ – كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة ١٩١٩ – لعبد الرحمن الرافعي الجزء الثاني –دار المعارف

٢٣ – كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة ١٩١٩ – لعبد الرحمن الرافعي – الجزء الثالث –دار المعارف

٢٤ – كتاب في محراب الفكر – للأستاذ جمال بدوي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٨

٢٥ – كتاب –التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ– ماهيته وموضوعاته ومذاهبه ومدارسه عند أهل الغرب وأعلام كل مدرسة وبحث في فلسفة التاريخ ومدخل إلي فقه التاريخ–د حسين مؤنس –دار الرشاد–الطبعة الثانية ٢٠٠١

وأدعو المولي عز وجل أن يوفقني في جمع وترتيب هذه الاقتباسات بما يعود بالنفع علي القارئ ، كما أرجو من القارئ أن يلتمس لي العذر عن أي أخطاء في هذا الكتاب ويفترض حسن النية والله من وراء القصد وهو المستعان

محمد عرموش

محتويات الكتاب

Contents

لم يحكم المصريين مصر لمدة حوالي ٢٢٩٤ سنة

- يجب أن تعرف أولاً أن المصريين لم يحكموا مصر لمدة حوالي ٢٢٩٤ سنة تقريباً فقد يعرف الكثيرون أن المصريين قد استعادوا حكم مصر بعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م وبالتحديد بعد حوالي سنة كاملة من قيام الثورة حيث تم إنهاء حكم أسرة محمد علي وإعلان الجمهورية سنة ١٩٥٣ م ولكن قد لا يعرف البعض متي كانت آخر مرة حكم فيها المصريون مصر قبل هذا التاريخ ، ويمكن اعتبار أن الملك نقطانب الثاني (نختنبو الثاني) هو آخر حاكم مصري حكم مصر ، وهو آخر ملك من ملوك الأسرة الثلاثين الفرعونية التي تعتبر آخر أسرة فرعونية في التاريخ المصري ، وقد انتهي حكم هذا الفرعون الأخير علي يد الفرس حوالي سنة ٣٤١ قبل الميلاد ، وليس معني هذا أن العصر الفرعوني نفسه كان خالياً من الحكام الغير مصريين فقد حكم مصر خلال العصر الفرعوني علي فترات متباعدة الهكسوس والليبيون والنوبيون والآشوريون والفرس سواء بالاحتلال المباشر أو بالهجرات السلمية الكثيفة ولكن كان المصريون يحررون مصر ويعودون للحكم في كل مرة خلال العصر الفرعوني . ، ولكن الذي طرد الفرس عندما أعادوا احتلال مصر لم يكن المصريون هذه المرة ، بل طردهم الإسكندر المقدوني الشهير حوالي سنة ٣٣٢ ق م وتلاه في حكم مصر أسرة البطالمة ثم تبع البطالمة الاحتلال الروماني لمصر سنة ٣٠ قبل الميلاد ثم تعرضت مصر لغزو فارسي في أواخر حكم الرومان سنة ٦١٨ م ثم استعادها الرومان مرة أخري سنة ٦٢٧م ، إلي أن تم فتح مصر سنة ٦٤٠م أثناء الاحتلال الروماني لها ، وكان فتح مصر في عهد دولة الراشدين ثم تلتها الدولة الأموية فالعباسية ثم تأسست في مصر الدولة الطولونية سنة ٨٦٨م ثم الإخشيدية سنة ٩٣٥م ثم حكم مصر الفاطميون سنة ٩٦٩م وتلاهم الأيوبيون سنة ١١٧١م ، ثم دولة المماليك البحرية سنة ١٢٥٠م ثم المماليك البرجية سنة ١٣٨٢م ، ثم الحكم العثماني لمصر سنة ١٥١٧م ثم جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م لمدة ثلاث سنوات ، ثم حكم مصر محمد علي باشا وأسرته من سنة ١٨٠٥م وقد قامت بريطانيا باحتلال مصر خلال عصر أسرة محمد علي حوالي سبعين سنة من سنة ١٨٨٢م ، ثم انتهي حكم أسرة محمد علي بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وبالتالي لم يجلس علي عرش مصر حاكم مصري منذ عهد نقطانب الثاني إلا بعد قيام ثورة يوليو ، أي منذ سنة ٣٤١ قبل الميلاد إلي سنة ١٩٥٣ م وبالتالي تكون المدة بالكامل ٢٢٩٤ سنة كاملة
- لقد وعدتني قبل بدء الحوار بعدم ذكر التفاصيل فلماذا تصر علي قول تواريخ محددة ، فكان يكفي أن تقول حوالي ٢٢٠٠ سنة أو ٢٢٩٠ سنة ولن يكون هناك فرق كبير في المعني
- أنت محق تماماً فهذا الرقم تحديداً قد يعرض قائله لمشاكل جدلية لا داعي لها وخاصة أن آخر فرعون مصري قد حكم الوجه القبلي فقط وترك للفرس السيطرة علي الشمال لمدة حوالي عامين قد يحسبها

البعض فترة حكم وقد لا يعترف بها ، كما أنه كانت محاولة للاستقلال تمت بعد ذلك وإن لم تستمر كثيراً ولكن الدقة تحتم ذكرها

أخلاق الدول تختلف عن أخلاق الأفراد

- أعرف أنك قد قرأت العديد من الكتب ومن بينها كتب التاريخ فماذا تعلمت منها ؟
- من المؤكد أن أهم ما تعلمته منها أن الجميع قد هلكوا ، ولكن هناك أيضاً عبر ودروس أخري تعلمتها من التاريخ تفيدني في فهم العديد من الأمور
- حسناً . لقد وصلت إلي ما أقصده من هذا الحديث ، وهو كيف تفهم الأحداث الحالية من قراءاتك السابقة في التاريخ ؟ وما هي الدروس والعبر التي تنطبق علي ما يحدث الآن ؟
- علي أي حال سوف أخبرك بخلاصة ما تعلمته من دروس التاريخ ولك أن تُسقطه علي ما تشاء من أحداث ، وأول درس تعلمته أن أخلاق الدول تختلف عن أخلاق الأفراد
- ماذا تقصد ؟
- أقصد أن الضوابط والقيم والمبادئ التي يلتزم بها الأفراد في علاقاتهم لا تلتزم بها الدول في علاقاتها كالصدق والأمانة والإيثار والتعاون والشفافية وكل الأخلاق الحميدة ، تستبدلها الدول بمبدأ واحد فقط هو المصلحة ، فالمصالح وحدها هي التي تحكم العلاقات بين الدول ولا مكان للأخلاق ، فالأمن القومي لأي دولة له الأولوية الأولي في التعامل مع باقي الدول فقد تخادع وتمكر وتجند العملاء بل وقد تعلن الحرب أيضاً للحفاظ علي كيانها وأمنها ومصالحها

كي تعيش شعوب في رفاهية تعيش شعوب أخري في بؤس

- ومن الدروس التي تعلمتها من قراءة التاريخ أنه كي تعيش بعض الشعوب في رفاهية ورخاء لابد أن تعيش شعوب أخري في بؤس وفقر ، ولكي تنعم بالحرية لابد أن تعاني شعوب أخري من القمع والعبودية
- هذه النقطة تحتاج إلي بعض التوضيح إذ ما الذي يمنع أن تعيش بعض الشعوب في رفاهية وحرية دون قهر وإذلال شعوب أخري
- تقوم الدول الكبري باستنزاف ثروات الدول الضعيفة واستغلال إمكانياتها وقد أخذ هذا الاستغلال أشكال عديدة فكانت قديماً تقام إمبراطوريات ضخمة تسيطر علي العديد من الشعوب وتسومها سوء العذاب وتُسخّر طاقاتها لخدمة مصالحها ثم تطور هذا الاستغلال ليصبح ما يسمي بالاستعمار ثم الامتيازات الأجنبية أما حالياً فقد أصبحت الدول الضعيفة سوق لمنتجات الدول الكبري ومعمل تجارب لأسلحتها وفئران تجارب لأدويتها ومدفن لنفاياتها النووية ومكان لإقامة المصانع الملوِثة للبيئة والتي لا تسمح الدول الكبري بإقامتها علي أراضيها وقد يصل الأمر إلي استغلال الفاسدين للإتجار بالأعضاء البشرية وغير ذلك من أساليب الاستغلال القذرة

- وكيف تسمح هذه الشعوب الفقيرة بكل هذا ؟
- إن بعض هذه الشعوب مغلوبة علي أمرها وتخضع لأنظمة حاكمة تسلبها إرادتها وتشغلها بمشاكل الحياة وأمور أخري وتحرص علي عدم الاهتمام بالتعليم وعلي عدم نشر الوعي بالإضافة إلي الإعلام الموجه الذي يحذر الشعوب دائماً من المؤامرات الخارجية التي تستهدف الوطن
- بالمناسبة ، ما رأيك في موضوع المؤامرات الخارجية ونظرية المؤامرة ؟

المطرقة والسندان

- تعيش بعض شعوب العالم الثالث أو معظمها بين المطرقة والسندان ، وهما قوتان تعتمد كل واحدة منهما علي الأخري في وجودها واستمرارها ، وهما قوي المؤامرات الخارجية وقوي الاستبداد الداخلي وهما حقيقتان لا يمكن تجاهلهما أو التهوين من شأن أي منهما فمن المستحيل أن تنجح المؤامرة من الخارج في إثارة أي شعب علي النظام الحاكم إلا إذا كان هذا الشعب يعاني من الاستبداد الداخلي ، وكذلك من الصعب جداً أن يجد الاستبداد الداخلي مبرراً لوجوده واستمراره دون أن يحذر الشعب من وجود مؤامرة خارجية قد تؤدي إلي ضياع هذا الشعب ، والطريف أن كلاهما صادق بالفعل فكلاهما حقيقة لا مفر منها ، ويكون الشعب بين مطرقة الاستبداد الداخلي وسندان المؤامرة الخارجية فيستسلم لأحدهما وغالباً ما يكون تمسكه بالاستبداد الداخلي كأهون الخيارين الذي أحلاهما مر ، وخاصة عندما يري تأثير ما حدث لمن اختار الاختيار الثاني فيجد دولاً تحولت إلي أطلال وشعوباً تحولوا إلي لاجئين
- هذا يعني صحة نظرية المؤامرة وقد أضفت إليها استعانتها بوجود استبداد داخلي ، ولكن ما الذي يبدأ أولاً المطرقة أم السندان ؟
- أعتقد أن الاستبداد الداخلي يبدأ أولاً فيُضعف من كيان الدولة ويُفقر شعبها لأنه عادةً يرتبط بالفساد فالمستبد لص فاسد يريد تحقيق مصالحه هو وعصابته علي حساب الشعب ، ومن هنا تستغل الدول الأخري هذا الموقف فتساعده علي تدعيم مركزه في مقابل تحقيق مصالحها
- أي أن هذه الدول تمتص دماء الشعوب المقهورة وتتقاسمها مع أنظمة فاسدة مستبدة تحكم هذه الشعوب
- بكل تأكيد فكما قلنا أن الدول بلا أخلاق وأن المصالح فقط هي التي تحركها وأن من مصلحة الشعوب الحرة أن تعيش شعوب أخري مقهورة
- ولكن ماذا يحدث إذا قام شعب بثورة علي هذه الأنظمة الفاسدة ؟
- إن الظلم وحده لا يولد الثورة فلابد من الإحساس بهذا الظلم أولاً كي تقوم الثورة ، فقد يكون هناك شعب مظلوم ولكنه لا يشعر بحجم المأساه التي يعيشها نتيجة لأمور كثيرة يعمل النظام علي استمرارها
- مثل ماذا ؟

- كما قلت انخفاض مستوي التعليم وغياب الوعي مع الإلهاء بأمور تافهة ونشر ثقافة الاستهلاك فلا يهتم الشعب إلا بما يُفرض عليه فرضاَ ، وخذ مثلاً علي ذلك من أشهر وأوضح الأمثلة وهو مباريات كرة القدم والمشاكل التي تحدث بين الأندية والإعلام الرياضي المريض كل هذا يأخذ الشعب إلي طريق بعيد جداً عن مشاكله الحقيقية
- ولكن الاهتمام بالرياضة وكرة القدم موجود في دول كثيرة متقدمة
- كرر الكلمة الأخيرة التي قلتها من فضلك
- متقدمة
- بالفعل متقدمة أي حلت مشاكلها ونظمت حياة مواطنيها وضمنت لهم الطعام الصحي والعلاج المناسب والعمل والسكن وجميع احتياجات المجتمع ثم تحولت إلي الرفاهية ، إن الاهتمام بكرة القدم رفاهية لا نملكها ، وبالتالي تتحول إلي خطة إشغال كبري لإلهاء الشعب بانتصارات لا تحل مشاكله الحقيقية ، بل إنني أؤكد لك أن من يقوم بذلك يرتكب جرائم في حق الشعب بحجة أنه يرفع روحه المعنوية
- وماذا أيضاً ؟
- الفن يا عزيزي وما أدراك ما الفن إنه من أكبر الكوارث في المجتمعات المتخلفة لأنه يزيدها ضياعاً ويجعلها تنحرف عن الطريق الصحيح بما تقدمه من أعمال هابطة تنشر الفجور والعري والألفاظ النابية بين الشباب ناهيك عن الإيحاءات الجنسية ، كما أنها تعمل علي الإساءة لكل ثوابت المجتمع الأخلاقية فتنتج أجيالاً مشوهة قد فقدت هويتها وتمسكت بقشور الحضارة الغربية ويكفي مثلاً علي ذلك أن مسرحية واحدة أفسدت الطلبة في المدارس ومسرحية أخري أفسدت الأولاد في البيوت وهكذا
- أليس الفن يرصد ما في المجتمع من مشاكل ؟
- إن هذا رفاهية أيضاً لا نحتاجها حالياً فليس هناك مجتمع سوي أصلاً كي ترصد ما فيه من مشاكل ، فعليك أولاً أن تقيم المجتمع الذي نحن في حاجة إليه علي أساس متين ثم ارصد ما شئت بعد ذلك ، إن الفنان الذي ينشر هذا النوع من الأعمال الفنية يرتكب جرائم في حق هذا الشعب تستمر لأجيال عدة وتحتاج إلي مجهود ضخم لإزالة آثارها
- فماذ غير كرة القدم والفن ؟
- هرم الحاجات المختل والغباء الجماعي المقترن بالذكاء الفردي
- وما هو هرم الحاجات وكيف أصبح مختل ؟ وماذا تقصد بالغباء الجماعي ؟

هرم الحاجات المختل

- هرم الحاجات هو هرم مدرج تخيّلي له قاعدة كبيرة وأعلاها قاعدة أصغر منها ثم أصغر كلما ارتفع لأعلي وهكذا ، وهذه القواعد تعبر عن الأولويات والحاجات الأساسية التي تتدرج في الأهمية كلما زاد ارتفاع الهرم ، بحيث لا يمكن الصعود إلي درجة أعلي إلا بعد المرور علي الدرجات الأقل منها وهكذا

- أراك قد أسهبت في الوصف أكثر مما يستدعي وكان يكفيك أن تذكر هرم سقارة المدرج المعروف لتصل للمعني المطلوب ، المهم فما القاعدة الكبري الأساسية في هذا الهرم أو ما هي الحاجة الأساسية الأولي في هذا الهرم ؟
- الأمن والأمان بالطبع هي القاعدة الأولي والحاجة الأساسية ، فأنت إذا كنت تتضور جوعاً مثلاً وتمسك بيدك قطعة من أشهي أنواع الطعام هل يمكنك أن تتناولها وهناك حيوان مفترس يطاردك ؟
- وكيف أستطيع أن آكل طعاماً إذا كنت أنا طعام لغيري ؟
- إذن نحن متفقون جميعاً أن الأمن هو المطلب الأساس والقاعدة الأولي للهرم فلا يمكن أن تفكر في أي حاجة أخري أثناء وجود خطر علي حياتك ، أما بعد أن تبتعد عن الخطر وتتواجد في مكان آمن سوف تحتاج بالتأكيد إلي الطعام والشراب وهي القاعدة الثانية في هذا الهرم ثم تأتي الحاجة إلي المأوي وهكذا تتدرج حاجاتك طبقاً للأولويات فهناك الحاجة إلي العلاج والتعلم والحاجة للعمل والكسب والحاجة إلي الزواج والإنجاب والحاجة إلي العدالة والكرامة وقد يختلف هرم الحاجات بعد ذلك من شخص إلي آخر أو من بيئة إلي أخري ولكن يظل الأمن والطعام والمأوي هم الثلاثة حاجات الأساسية لجميع البشر
- عظيم جداً فما هو الاختلال الذي تقصده ؟
- الاختلال يحدث عندما تعتقد أنك في حاجة لأشياء لست في حاجة إليها بالفعل أو علي الأقل هناك ما هو أنت أكثر احتياجاً إليه
- وهل يحدث هذا لأحد ؟
- بالتأكيد هناك من يعتقد أنه في أمس الحاجة لأشياء معينة ويبذل مجهود غير عادي بل وقد ينفق كل ما يملك من الأموال ليحصل عليها برغم أنه في الواقع يعاني من نقص حاد في حاجات أخري قد يؤذيه غيابها ويفقد ما يملكه من مال من أجل لا شئ
- وهل هناك من يعبث بهذا الهرم متعمداً ؟
- بكل تأكيد ، لأن العبث بهرم الحاجات يجعلك تسيطر علي المجتمع وتقوده في أي اتجاه تريد لتحقق مصالح معينة قد تكون داخلية أو خارجية أو كليهما
- وهل يختلف هرم الحاجات للشعوب عن هرم الحاجات للأفراد ؟
- إن كل دولة لها حاجات استراتيجية كأمنها القومي والاكتفاء الذاتي من الطعام والدواء والسلاح وكل شعب يحتاج لتنفيذ القانون علي الجميع والقضاء علي الفاسدين والمستغلين وتوفير الكرامة الإنسانية والحرية وحقوق الإنسان ولكن في النهاية حاجات الشعوب تعتبر امتداد لحاجات الفرد ولكن بمقياس رسم أكبر وفي النهاية فإن تحقيق حاجات الدولة الحقيقية يؤدي إلي تحقيق حاجات أفرادها بلا شك
- وهل هناك من يعبث بهرم الحاجات للدولة كلها ؟

- بالتأكيد هناك دول تعبث بهرم الحاجات لدول أخري لتجعلها في حاجة دائمة لها بل إنها تضيف إلي هذا الهرم حاجات غير مهمة لتسيطر بها علي دول وشعوب أخري فتثير الفتن والمشاكل والحروب بين الدول وتبيع لها السلاح مثلاً وهي ليست في حاجة إليه في الأساس ، وبالعبث بهرم الحاجات يتم ترويج العديد من المنتجات الاستهلاكية التافهة كالموضة مثلاً
- ولكن بالنسبة للسلاح ألا تحتاجه الدول علي أي حال ؟
- تحتاجه بالطبع ولكن من المؤكد أن إنتاجه أفضل من امتلاكه بالشراء ، لأن في ظل التطور التقني (التكنولوجي) والعلمي الرهيب والغير مسبوق لا يمكنك أن تثق في أي سلاح تستورده من الخارج سواء طائرات أو مدمرات أو غواصات أو رادارات وصواريخ أو أي معدات لأنك لا تعرف كيف تمت برمجتها وهل يمكن لمُنتجها التحكم فيها بعد بيعها أم لا وهل سيكون السلاح فعال إذا قمت باستخدامه ضد مصالح الدولة المنتجة له ، فضلاً عن احتياجك الدائم لصيانته وتوفير قطع غيار له وما إلي ذلك
- هذا يعني أن عدم إنتاج السلاح يعبر عن عدم وجود سلاح من الأساس
- الأهم من السلاح هو الغذاء فما جدوي انتاج أو امتلاك سلاح وأنت تعتمد علي دول أخري في غذاءك وملابسك وسياراتك وأجهزة اتصالاتك ودواءك وكل ما تستخدمه من تكنولوجيا في بيتك وعملك ومصنعك ومستشفياتك إلخ
- معني هذا أن الدول المنتجة لكل هذا تتحكم في الدول المستهلكة
- فهل له معني آخر في رأيك ؟
- أفهم من هذا أن كل شعب لابد أن يعرف جيداً احتياجاته الحقيقية ويعتمد علي نفسه في توفيرها بالتدريج ولكن هل سيسمح له أعداءه بهذا ؟
- السبيل الوحيد لتحقيق كل هذا هو بناء الإنسان وتعليمه فهو الذي سيقوم بكل هذا ، أما تدمير الشباب وتحويلهم إلي مسخ مشوه تافه لا يعرف أي ثوابت أو مبادئ ولا يهتم إلا بأتفه الأمور ويجهل تماماً هويته وتراثه وتاريخه وتراه غزير المعلومات عميقها في كل ما يختص بكرة القدم العالمية أو المحلية والأعمال الفنية المختلفة وتراه مع كل هذا عبداً لشهواته منجذباً إلي الغرب الذي يذله ويدمر أوطانه ويشعر بدونية وهزيمة نفسية بشعة علي الدوام أمام الغرب معتقداً أن التغريب هو التحديث
- وما الفرق بين التغريب والتحديث ؟
- هناك فرق كبير ولتوضيح ذلك سأقرأ لك مقتطفات من كتاب تناول هذا الموضوع وشرح هذا الفرق بأسلوب رائع حيث قال : اليابان وحدها عرفت الجواب الصحيح : التحديث لا التغريب ، ولكي يتحقق التحديث لابد من رفض التغريب ، بل نزعم أنه بقدر الإصرار والنجاح في رفض التغريب يكون النجاح في تحقيق التحديث ، تمسكت اليابان بدينها – – وتمسكت بنظامها الملكي – – وبينما كان يجري التحديث بأعلي معدل عرفته دولة إلي النصف الثاني للقرن العشرين ، كان الياباني محتفظاً بحياته

العائلية والاجتماعية وتقاليده وتراثه ، يرتدي القفطان (الكيمونو) والقبقاب ، ويأكل علي الطبلية بالعصي ، محتقراً الجنس الأبيض ، مقتنعاً بإصرار متزايد أنه خير أمة علي ظهر الأرض ، محتفلاً بأعياده القومية ، – – ظل المسرح الياباني يقدم روايات التراث وبنفس الأسلوب منذ قرون ، وظلت المرأة في مكانها التقليدي ودورها الأساسي وظلت علي احترامها للزوج وخلع حذائه بيديها ، واليابان هي البلد الشرقي الوحيد الذي لم تظهر فيه حركة تحرير المرأة لذلك أصبحت مجتمعاً حراً وحافظت علي استقلالها ، لأنها عرفت أن المرأة لا تتحرر وحدها ، وأنه لا حرية لامرأة ولا لرجل في مجتمع ضعيف متخلف فاقد الاستقلال ، أو مهدد بفقده في أية لحظة ، وبعكس ما بُذل من جهد في بلادنا لتعليمنا استخدام الشوكة والسكين أو آداب المائدة ، لم يحدث قط أن حاول اليابانيون الأكل علي الطريقة الغربية ، فالأمة التي تُلقَّن أنها بحاجة إلي أن تتعلم آداب المائدة من عدوها هي أمة فقدت احترامها لنفسها ، ويستحيل أن تنجز أي تفوق ، التحديث : هو امتلاك كل المعرفة التي يتفوق بها الغرب ، إنتاج كل المعدات التي ينتجها الغرب ، وكل ما تحتاجه أمة من الأمم لتحقيق هذا التحديث هو إرادة قومية ، وتعبئة هذه الإرادة وتوجيهها في طريق التصنيع أو التحديث إذا كان البلد مستقلاً ، أو في طريق تحرير الإرادة القومية عبر حرب التحرير الوطنية ، التي يتم التحديث خلالها ، لكن يُشترط قبل ذلك أن تؤمن الأمة بأن تخلفها هو ظاهرة عارضة ، وأن أصالتها تمكنها من تجاوز هذه المرحلة العارضة ، أما التغريب ، فيبدأ من إقناع الأمة الشرقية أنها متخلفة في جوهرها ، متخلفة في تاريخها وصميم تكوينها ، ومن ثَم فلابد من انسلاخها تماماً عن كل ما يربطها بماضيها ويميز ذاتها ، وإعادة تشكيل المجتمع علي الطراز الغربي من ناحية العادات والمظاهر السلوكية ، مع إبقائه متخلفاً عاجزاً عن إنتاج سلع الغرب ، عاجزاً عن اكتساب معرفة الغرب ، فإذا ما اكتسب بعض أفراده هذه المعرفة ، يجدون أنفسهم غرباء عاطلين عن العمل في مجتمعهم فيضطرون إلي النزوح إلي عالم المتفوقين ، المجتمع المُغرَّب هو ذلك المجتمع الذي تزدحم طرقاته بأفخر وأحدث السيارات المستوردة ، وتضم مدنه أفخم دور عرض الأفلام المستوردة ، ويرتدي أهله أحدث المنسوجات المستوردة ، وعلي أحدث الموضات الغربية ، ويثرثر مثقفوه في قاعات مكيفة بأجهزة – مستوردة – في مشاكل المجتمع الغربي وآلامه ، ويملأون صفحات من ورق مستورد تطبع بحبر مستورد وبآلات مستوردة حول قضايا –الغرب – علي بعد خطوات من كهوف مواطنيهم حيث البلهاريسيا والكوليرا وكل تراكمات التخلف ، كان التغريب هو الطريق المضمون لخسارة معركة التحديث ، وكل الدول التي تم تغريبها أو اختارت طريق التغريب وانشغلت في قضاياه ، ظلت علي تخلفها ، بل وأخطر من ذلك أن التغريب يقضي علي روح المقاومة في الأمة الشرقية ، فيجعل استعمارها من قِبل الدول الغربية المتفوقة أسهل ، وحكمها أيسر ، ويجعل استغلالها أعمق وأكبر عائداً وأقل كلفة ومخاطر ، من هنا كان اهتمام الغرب بترويج فكرة التغريب بين صفوفنا ، فمنذ الحملة الفرنسية وهناك استثمارات فكرية تهدف إلي إقناعنا بأنه لا تحديث إلا بالتغريب

- بمناسبة هذا الكلام ، تذكرت كيف قامت بريطانيا بشن الحروب قديماً لاستعمار العديد من الدول الإسلامية وغير الإسلامية حتي أنها كانت الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ، فإذا غربت الشمس عن مكان يرفرف فيه العلم البريطاني أشرقت الشمس في مكان آخري يرفرف فيه العلم البريطاني وعليه الصليب البريطاني الشهير ، أما الآن فهذا العلم موجود بدون قتال أو سيطرة فتراه موجود علي ملابس شبابنا وسياراتنا وملصقاتنا ، فكيف تم لهم ذلك ؟
- بالفعل إن أعلام الدول الكبري منتشرة في كل مكان بل وقوانينهم أيضاً وتقاليدهم وأعرافهم التي لا تناسبنا كل هذا منتشر بدون قتال أو تكوين إمبراطوريات ، إنه الغزو الفكري للأمة يا عزيزي بكل ما تحمله الكلمة من معاني فهو يدفعك لتعيش حياة الغرب دون أن تمتلك أدوات التقدم والتحديث
- حسناً . هذا عن هرم الحاجات المختل ، فماذا عن الغباء الجماعي ؟

الغباء الجماعي

- إن الغباء الجماعي هو السبب الأساس في كل ما يعانيه المجتمع ، ففي مجتمعات الغباء الجماعي الكل يحاول أن يدفع العربة في الاتجاه الذي يوافق مصالحه فقط فمنهم من يدفعها من الخلف ومنهم من يدفعها من الأمام بل إن هناك من يدفع العربة من الأجناب متصوراً أنها ستتحرك في الاتجاه الذي يرغب فيه ، والنتيجة الحتمية أن العربة لن تتحرك أبداً في أي اتجاه ، الكل يدفع دون أن يكلف نفسه حتي مشقة النظر إلي وضع العربة وأين توجد مقدمتها فهو لا يري سوي هدفه هو فقط والعربة بشكل عام ، أما مكانه بالنسبة للآخرين ومكانهم بالنسبة له وبالنسبة للعربة كل هذا لا يكون واضحاً في مجتمع الغباء الجماعي ، في حين أن الجميع يدفع العربة في مجتمع الذكاء الجماعي في اتجاه واحد فقط فهي دائمة الحركة وتمر علي جميع الأهداف والأماكن حسب أولوياتها وترتيبها والكل ينتظر في اطمئنان لتأكده من أن العربة حتماً ستمر بالمكان الذي يرغب فيه ، هذا هو الفرق ، الإحساس بالأمان والاستقرار نتيجة للذكاء الجماعي ، والإحساس الدائم بعدم الثقة في الغد في مجتمع الغباء الجماعي فالجميع يتصور أنه علي حق وأنه الوحيد الذي يعمل عملاً محترماً مفيداً أما الآخرين فلا يهتم بما يفعلون بل إنه يحتقر أحياناً ما يفعله الآخرون ، في مجتمع الذكاء الجماعي كل عمل محترم مهما صغر فالكل يشعر بعمل الكل والكل يستفيد من أعمال الآخرين لأن الجميع يدفعون العربة في الاتجاه الصحيح ، ولا يهم نوع العمل طالماً أنه يخدم الجميع دون تفرقة أو محسوبية أو وساطة
- أفهم من كلامك أن في هذا النوع من المجتمعات لا تحتاج لمعرفة أي شخص في أي مكان لتنهي مصالحك
- بالضبط ، لأن ما تقوله يُسمي الذكاء الفردي ، فعلاقاتك ومعارفك وأموالك ونفوذك وخبراتك الشخصية كلها تحتاجها لتنفيذ ما تحتاجه لأن المجتمع لن يقف بجانبك ، فأنت مثلاً لابد أن تفهم في أمور كثيرة كالكهرباء والسباكة والميكانيكا وبعض الأمراض والأدوية بل وتساعد أولادك في مذاكرة دروسهم ، فأنت

تفعل كل شئ بنفسك لنفسك ولأسرتك مما يجعلك تفهم في أمور كثيرة فيزداد ذكاءك الفردي وكل هذا لا يحتاج إليه أي شخص يعيش في مجتمعات الذكاء الجماعي فهو يتسم بالغباء الفردي وهو سعيد به لأن المجتمع يحل له كل مشاكله وليس عليه غير أن يقوم بعمله ليخدم المجتمع علي أكمل وجه ، أما من يعيش في مجتمع الغباء الجماعي فقد لا يجد الوقت والجهد ليقوم بعمله لأنه مشغول دائما بإتمام أعمال الآخرين التي لم تتم بشكل كامل

- علي فكرة لا يجب أن نلوم أحد علي الإطلاق في مجتمع الغباء الجماعي لاستخدامه ذكاءه الفردي فهي ثقافة عامة سائدة في المجتمع بل يفخر بها الكثير من الناس فهي في نظرهم جدعنة أو شهامة فكيف أكون أعمل في مكان ما وأعز أحبابي وأصدقائي يتعثرون فيه ؟ هذا لا يمكن حدوثه ، فالذكاء الفردي يا عزيزي قد يوقف قطار مثلاً في محطة لا يجب أن يقف فيها بل من الممكن أن يقف في مكان ليس فيه محطة أساساً ، والذكاء الفردي قد يُدخل بضائع إلي البلد لا تحتاجها أو لا تصلح للاستخدام أو أدوية أو قطع غيار أو أغذية أو أي شئ ليس في صالح المجتمع ، والذكاء الفردي قد يعطي شهادات دراسية بل قد تصل إلي شهادات عليا لمن لا يستحقها ، وكل واحد في مكانه باشا كبير والجميع في حاجة إليه ، وعندما يذهب إلي مكان آخر أصبح في حاجة إلي من في المكان الآخر ، وعليه أن يقوم بما يرضي الباشا الآخر ، وهنا نجد روح الانتقام إلي حد ما تسود مجتمع الغباء الجماعي ، فكل منهم ينتظر الآخرين عند حضورهم إلي ملعبه ليشبع غروره ويريهم سلطاته وإمكانياته فيعذب المجتمع نفسه بنفسه ولكن من المسئول عن نشر هذه الثقافة في المجتمع ؟
- إن هذه الثقافة بالطبع تخدم أصحاب المصالح ولا تحتاج إلي مجهود كبير لنشرها ، فكل ما عليك فقط هو تنفيذ القانون علي البعض وعدم تنفيذه علي البعض الآخر فيصبح القانون الوحيد الذي يطبق علي الجميع هو قانون الجاذبية الأرضية فقط
- ولكن أليس تطبيق الذكاء الجماعي في المجتمع ممكن دون مبادرة من أعلي أو إشراف حكومي مثلا فيقوم الجميع بأعمالهم دون رقابة من أعلي ؟
- الاستعداد للقاء الله سبحانه وتعالي والعودة إلي منهجه هذا وحده يكفي ليتقن كل شخص عمله دون انتظار مصلحة في المقابل فيخدم الجميع بنفس الجودة والسرعة ابتغاء مرضاة الخالق عز وجل
- هذا صحيح بل أعتقد أيضاً أن الاستعداد للموت والحساب سيجعل الكثيرين يزهدون في كثير من أمور الدنيا وبالتالي سيكون هرم الحاجات الخاص بهم متوازن ولن يسيطر عليهم أحد أو يذلهم ويتحكم فيهم ولكن هل سيسمح لهم حكامهم بهذا ؟
- أعتقد أنك لن تقع تحت طائلة القانون إذا لم تشاهد مباراة كرة قدم أو لم تدخل السينما أو المسرح أو إذا لم تقم بشراء السلع الاستهلاكية التافهة أو إذا توقفت عن مشاهدة البرامج التافهة أو شراء

الصحف والمجلات الصفراء أو عدم متابعة الأعمال الفنية في شهر رمضان مثلاً وغير ذلك من العادات السيئة التي قد تساق إليها ، فكل هذا لا يجرمه القانون

- **هل يمكنك أن تقرأ لي ما قيل في وصف الشعب المصري لأنني أعتقد أنه يتسم بصفات جيدة قد لا يعرفها عن نفسه ؟**

وصف الشعب المصري

- **هذا ما قاله أحد علماء الحملة الفرنسية علي مصر في كتاب وصف مصر وهو يصف الشعب المصري**
- **إنه كتاب موسوعي ضخم ، وكم كنت أود أن أعرف بعض ما فيه**
- **إليك بعض ما ورد في كتاب وصف مصر عن طبيعة الشعب المصري : (يوجد في مصر – شأنها في ذلك شأن بقية بلدان الشرق – خليط مضطرب من العادات والتقاليد ، تعود إلي أصول متنوعة ، وتنتج عن أسباب كثيرة ، وهل كان يمكن للأمر أن يكون علي نحو آخر في بلد يمكن القول بأن كافة الأمم قد اختلطت فيه ؟**
- **وهل كان علماء الحملة الفرنسية يعرفون تاريخ مصر ؟**
- **بكل تأكيد فالمتخصصون منهم في ذلك يعرفونه جيداً فقد درسوا كل شئ عن مصر قبل حضور الحملة كما سنري إن شاء الله**
- **ماذا كتبوا أيضاً ؟**
- **يقول الكاتب : فالعادات إذن تتنوع بنفس الطريقة التي تشكلت بها فئات السكان ، بمختلف أديانهم وأصولهم ، – – – ولا يمكنك أن تكشف ما يعتمل في نفس المصريين عن طريق ملامحهم ، فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم ، فشكلهم الخارجي في كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه ، إذ يحتفظون في ملامحهم بنفس الحيدة وعدم التأثر ، سواء حين تأكلهم الهموم أو يعضهم الندم أو كانوا في سعادة عارمة ، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والأحقاد ، أو يغلون في داخلهم من الغضب ، أو يتحرقون للانتقام ، فليس ثمة مطلقاً فعل منعكس : إحمرار في الوجه أو شحوب مفاجئ ، يستطيع أن يشي بصراع تلك العواطف العديدة التي تهزهم ، ويمكننا أن نلتمس أسباباً عديدة لهذا الجمود المذهل في الملامح ، قد لا يكون الطقس بعيداً عن هذه الحالة ، – – – ومع ذلك فإن الأسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتأكيد في شكل التربية ، وفي الاعتقاد بالقضاء والقدر المنتشر بين كافة الناس ، كما تعود في النهاية إلي تعودهم أن يكونوا علي الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد ، ففي كل يوم تنشأ أخطاء وبشاعات جديدة ، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين – والشرقيين عموماً – نوعاً من الحيلة لمواجهة هذا العسف ، فعندما يُعاقب الإنسان علي حركة أو بسبب نظرة أو أحياناً لمجرد الاشتباه ، كما لو كان ارتكب جريمة ، فإنه يصبح وقد اكتسب مقدرة عميقة علي الاستيعاب والتمثل بحيث تصبح هذه الأمور الجائرة حالات عادية ، لذا**

فلا ينبغي علينا أن نبحث عن مصدر آخر لأسباب هذا النوع من التسليم المستعذب للألم الذي يميز الشرقيين علي وجه العموم ، فالشكاوي والصيحات أمور لا فائدة منها أمام إرادة الطغاة

- إلي هذا الحد وصل التحليل العميق للشخصية المصرية ؟
- ويعرف المصري كيف يمشي وقد أغضبه الألم ، وكيف يموت تحت عصا القواس دون أن يقول كلمة ، فهذه إرادة الله ، والله أكبر والله غفور ، وتلك فقط هي الكلمات التي تأتي علي لسانه عندما يبلغه نبأ نجاح لم يكن يأمله ، وهي نفسها التي تفلت منه عندما يبلغه نبأ كارثة كبري ألمت به ، ويبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمراً بالغ التناقض مع تقاليدنا ، حتي لنظنهم في البداية بلهاء أو معتوهين ، فتحركاتهم وأحاديثهم وأبسط حركاتهم بل ومسراتهم ، كل ذلك يشي بعدم اكتراث مذهل ،
- ألم يشعر علماء الحملة الفرنسية بأي مشاعر إيجابية تجاه هذا الشعب ؟
- بل اكتشفوا بالطبع بعض المزايا فهو يستمر فيقول : ويرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية علي ملامحهم يكمن خيال ملتهب ، وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية ، فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم علي العكس – وحيث يمكنهم بذلك تركيزها – أكثر حدة ، كما أنها تعطي لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم في بعض الأحيان قادرين علي الإتيان بأفعال بالغة الجرأة ، وفضلاً علي ذلك فإن الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوقدة ، إن ملكة الانتباه ، والقدرة علي التذكر تذهب إلي أبعد مدي عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين في بلادة مطلقة – – – – – إن كل شئ في هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوروبيين ، وهذا الاختلاف بلا جدال من صنع الطقس ومن صنع الأنظمة المدنية ، والمعتقدات الدينية كذلك ، كما أن غيبة القانون تكاد تشل مختلف ضروب الصناعة ، – – ومن جهة أخري يمكن القول بأن كل فروع الصناعة بلا استثناء فريسة للاستبداد ، وفي نفس الوقت فإن التجارة مزدهرة ، وليس ذلك لأنها تلقي تشجيعاً من الحكومة ، ولكن لأن موقع مصر وثراء منتجاتها يهيئان للتجارة معيناً لا ينضب ، وهذه الحرفة هي المجال الوحيد الذي يمكن أن يعد المصري بمستقبل زاهر ، فهي تقوده إلي الثروة في بعض الأحيان ، وهي – في هذا الصدد – الحسنة الوحيدة التي بقيت لهم ، حيث إن صفتهم كمواطنين قد أغلقت أمامهم طرق المجد والمراكز الكبري في وطنهم ،
- ياله من شعب مسكين بالفعل
- انظروا إذن إلي أي حد تضاءل سكان واحدة من أجمل بقاع الأرض تحت هذه السيطرة الأجنبية وغير المشروعة ؟ إن الكوارث التي تنال منهم اليوم سوف تظل تثقل عليهم ، طالما ظلت هذه العصا الغليظة لمستغليهم غير الجديرين تدور عليهم
- مستغليهم غير الجديرين يا له من تعبير

- ولسوف يظل المصري عبداً بائساً سلبياً خاملاً تدور به دوامات الشك دون أن يفكر في وضعه المحزن ، ولربما تكون بلادته تلك هبة من القدر ، إذ بفضلها لن يعذبه علي الإطلاق ذلك الإحساس بالآلام والمخاطر التي تهدده بلا انقطاع)
- فماذا عما ذكرته من صفات لا يعرفها الشعب عن نفسه ؟
- لنتأمل معاً كلمات جي دي شابرول أحد علماء الحملة الفرنسية الذين قاموا بتحليل عميق لشخصية الإنسان المصري والتي وردت بالجزء الأول من موسوعة وصف مصر ترجمة زهير الشايب حيث كتب بالنص ما يلي : (- - وهذا يبرهن علي ما سبق أن قلناه من أن إصلاح مساوئ نظام الحكم سوف يؤدي – بسهولة فائقة – إلي أن يرد لهذا الشعب كل الفضائل التي فقدها ، بل التي لا يظنها هو نفسه كامنة فيه ، كما أن ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة ، وعظمة الروح التي خنقتها إلي حين تلك الأنظمة الشيطانية التي يرزح تحت نيرها ، إذ تعمل هذه الأنظمة الخبيثة علي تدمير أخلاقيات الأفراد بشكل محزن - - -) ،
- كان هناك من يدفع الشعب المصري دفعاً لهذه السلوكيات وتدمير أخلاقه تدمير ممنهج فإذا كان هذا وصف الشعب المصري أثناء الحملة الفرنسية فكيف تراه الآن ؟

العاطفيون

- ربما أهم ما يميز المصريين كما أراهم حالياً أنهم شعب عاطفي إلي أبعد الحدود ، فلا يجب أن تسأل المصري عن رأيه في موضوع ما أو في شخص ما ولكن يمكنك أن تسأله عن مشاعره تجاه هذا الموضوع أو ذلك الشخص ، فالمصري لا يؤيد ولا يعارض ولكنه يحب ويكره فإذا أحب نسي أو تناسي أي إساءة ممن يحب ، والعاطفة قد تكون مشكلة كبيرة جداً في بعض المجتمعات فهي قد تضع شخص في غير مكانه الصحيح وقد تزيح أيضاً شخص من المكان الذي يناسبه فلا مكان هنا للقياس المنطقي بل المشاعر وحدها هي التي تتحكم وتأمر بل لا أريد أن أبالغ وأقول أن العاطفة قد تطيح أيضاً بالفطرة السوية
- في رأيك هل من الممكن أن ينعم شعب عاطفي بممارسة الديموقراطية ؟
- فإذا فكر مجتمع عاطفي في ممارسة الحياة السياسية علي الطريقة الديموقراطية فإن الأحزاب التي سيشكلها المجتمع ستتلخص في أشخاص فهذا حزب فلان وهذا حزب علان فاجتماع الناس لن يكون حول مبادئ للحزب بل حول شخص يحبونه فنحن كما يقول الدكتور جمال حمدان في كتابه الممتع شخصية مصر ألفنا أن نكون رعايا لا مواطنين ، فنحن نحب الشخص الذي نثق به ونلتف حوله وترنوا إليه أبصارنا وتتعلق به آمالنا وقلوبنا وننتظر توجيهاته لنفعل أشياء نستطيع أن نفعلها بدون توجيهات ولكننا دائماً نحتاجها ونحتاجه
- وهذا يذكرنا بالبيئة الفيضية والمبادرة من أعلي والشخصيات البارزة

- نعم وقد يحب الشعب المصري بعض ظالميه من الحكام لأنه شعب ودود وعاطفي ويتأثر بطول العشرة حتي مع من يسئ إليه
- فماذا عن حبه للوطن ؟
- أما العاطفة الوطنية أي حبنا للوطن فقد يصل بنا إلي نتائج لن أستطيع أن أصفها كما وصفها المفكر الكبير د جمال حمدان في كتابه الموسوعي الممتع شخصية مصر وتحديداً في الجزء الأول حيث يقول : (، ، – – – فنحن كشعب – لابد لنا بصراحة أن نعترف – لا نحب فقط أن نمجد أنفسنا بحق وبغير حق ، ولكننا أيضاً نحب أن نسمع عن أنفسنا ما يريضينا ويعجبنا أو يرضي إعجابنا بذاتنا الوطنية وبشخصيتنا القومية ، بل إننا لنكره أشد الكره أن نسمع عن عيوبنا وشوائبنا ، ونرفض بإباء أن نواجهها أو نُواجه بها ، ولا تكاد توجد فضيلة أو ميزة علي وجه الأرض إلا وننسبها إلي أنفسنا ونلصقها بها ، وأيما رذيلة أو عيب فينا – إن هي وجدت علي الإطلاق – فلا محل لها لدينا من الإعراب أو الاعتراف ، وإن اعترفنا بها علي مضض واستثناء فلها عندنا العذر الجاهز والمبرر والحجة المُقنعة أو المُقنّعة ، ، ومن طريف ما يلاحظ في هذا الصدد أننا ، حين نرجع مثلاُ فيما نكتب عن أنفسنا إلي كتابات الرحالة والمؤرخين العرب في العصور الوسطي أو الكتاب الأجانب المعاصرين ننتخب منها فقط تلك الإشارات الطيبة والمرضية ونحشدها حشداُ كفضائل مصر مهملين ببساطة شديدة كل الإشارات العكسية أو المعاكسة التي أوردها الكاتب نفسه والتي قد تكون أضعاف الأولي كماُ وكيفاً ، ليس هذا فحسب أو ليت هذا فحسب فما أكثر بعد ذلك ما نقلب عيوبنا عن عمد إلي مزايا ونقائصنا إلي محاسن ، بل أسوأ من ذلك قد نتباهي ونتفاخر بعيوبنا وسلبياتنا ذاتها ، – – – ويبدو عموماً أننا كلما زاد جهلنا بمصر كلما زاد تعصبنا لها ، بل الملاحظ أننا كلما ازدادت أحوالنا سوءاً وتدهوراً كلما زاد تفاخرنا بمجدنا وعظمتنا – – –
- مصر أم الدنيا
- أياً ما كان ، فنحن معجبون بأنفسنا أكثر مما ينبغي وإلي درجة تتجاوز الكبرياء الصحي إلي الكبر المرضي ، ونحن نتلذذ بممارسة عبادة الذات في نرجسية تتجاوز العزة الوطنية المتزنة السمحاء إلي النعرة الشوفينية الساذجة البلهاء أو الهوجاء ،
- وما الذي أدي لكل هذا ؟
- وبديهي أن هذا الشعور يرجع في حالتنا إلي ميراث القرون والأجيال الكاتمة الكئيبة من الاستعمار والتبعية والاستبداد والمذلة والتخلف والفقر ، ومن هنا جميعاً تبدو الهوة هائلة والتناقض فاحشاً إلي حد السخرية بين واقعنا وحقيقتنا وبين ادعاءاتنا وطنطناتنا
- وماذا أيضاً ؟

- الكلام لازال للدكتور جمال حمدان : حتي عن مستقبل مصر نحن إما متفائلون بإسراف يدعو إلي السخرية والإشفاق أو متشائمون إلي حد متطرف قابض للنفس ، ففي النظر إلي مستقبلنا نلاحظ غالباً أن هناك من جهة خطر المتفائلين إما بسذاجة أو بخبث شديد أولئك الذين يفضلون خداع النفس لراحة البال علي مواجهة الحقيقة المرة (في عينها) ، ومن جهة أخري خطر المتشائمين المنذرين الذين أفقدهم التوتر حس النسبية الصحيح هم أيضاً ، باختصار مصر إما بخير دائماً ، أو في خطر أبداً ، وكلا الحكمين لا يري أو يضع الحقائق في حجمها الطبيعي السليم ،
- ألم يكتب د جمال حمدان شيئاً عن خصائص الشخصية المصرية نفسها وما يتسم به الشعب من صفات

خصائص الشخصية المصرية في رأي د جمال حمدان

- لقد أورد بالطبع الدكتور جمال حمدان في كتابه الممتع شخصية مصر قائمة بخصائص الشخصية المصرية ، وذكر أنها (- - قائمة مربكة بقدر ما هي مقلقة فادحة ، ولكن بصفة عامة علي أية حال فلعل هناك شبه اتفاق علي بعض خصائص أساسية تعد أركان أو أقطاب تلك الشخصية ، أولها دائماً التدين ، وثانيها حتماً المحافظة ، وثالثها باستمرار الاعتدال ، ورابعها غالباً الواقعية ، وخامسها أحياناً السلبية ، وبهذا الشكل تبدو السلسلة كمتوالية تنازلية إلي حد ما ، تتدرج نسبياً من الموجب إلي السالب أو من القوة إلي الضعف ، وبذا أيضاً تتابع منطقياً فيما بينها ، بحيث تؤدي كل واحدة منها إلي تاليتها ، التي تترتب بدورها علي كل سابقاتها ، وفيما عدا هذا ، فلأن خاصية الاعتدال بالذات تمثل نقطة الوسط والارتكاز بين تلك الخصائص والنواة النووية في قلبها ، فلعل لنا من قبيل اليسر والتبسيط الأكاديمي أن نتخذ منها المظلة الجامعة والعنوان الرئيسي العريض الشامل لها جميعاً ، فأما التدين إذا أردنا تفصيل ما أجملنا ، فسمة مصرية أصيلة وقديمة قدم الأديان ، بل سابقة هي للأديان ، ولعلها هي التي منحت المصري قوة داخلية ومقاومة خارجية وصلابة غير عادية ضد الكثير من الأخطار والمحن والمآسي التي تعرض لها عبر التاريخ ، سياسية كانت أو إجتماعية ، خارجية أو داخلية ، من استعمار الغزاة أو قهر الطغاة ، غير أن هذه الخاصية –يخشي البعض– كانت أيضاً مهرباً إلي حد ما من الصدام مع تلك الأخطار والتحديات ، ومن ثم قد في النهاية تفضي بنا إلي خاصية السلبية وتؤكد تشخيصها ، ومهما يكن ، فإن التدين والنزوع الديني إذا جاز أن يرد في دوافعه إلي الزراعة طبيعة الحضارة الزراعية ، علي الأقل جزئياً ، فلعله أن يكون بدوره دافعاً جزئياً مثلها ويجانبها إلي الصبر والدأب والجلد والتحمل ، وهي الصفات التي تبدو عريقة القدم والجذور في التاريخ المصري ، ويكاد يجمع الكل بلا تردد علي إلتصاقها الشديد بالانسان المصري عامة والفلاح المصري خاصة ، أما المحافظة ، بل والمحافظة الشديدة كما يشدد العقاد ، فتعني أن المصري مقيم علي القديم والتراث والتقاليد والموروثات ، ولا يقبل الجديد بسهولة ، وهذا يعني بدوره أنه تقليدي مقلد ، غير ثوري

غير مجدد ، بل إنه –عند العقاد أيضاً– إذا ثار علي الإطلاق فإنما ليحافظ علي القديم والموروث ، أي أنه – للغرابة والدهشة ، وبصيغة نقيض النقيض – ثوري من أجل المحافظة ، ومن المحافظة وعدم الثورية ، علي أية حال خطوة قصيرة ومنطقية إلي الاستقرار ، فالاستقرار نتيجة المحافظة ولكنه بالمقابل يعود فيدعمها ، ومن هذه الحلقة المفرغة أو اللولب الصاعد يتحقق الاستمرار إلي أبعد حد وينتفي التغير إلي حد بعيد ، وهكذا تنتهي الدائرة مرة أخري لتعود بنا حيث بدأنا بالمحافظة علي القديم وعدم التجديد ، ، إلخ

- بالمناسبة هناك العديد من الأمثلة الشعبية الشهيرة تؤكد جميع المعاني التي ذكرها الدكتور جمال حمدان فمن المؤكد أن هذه الأمثلة لم تنشأ من فراغ ، مثل اللي نعرفه أحسن من اللي ما نعرفوش ، وامشي سنة ولا تخطيش قناة ، والباب اللي ييجي منه الريح سده واستريح ، واصبر علي جار السوء يرحل أو تيجي مصيبة تأخذه وهكذا
- وإذا كان ثمة من مصل مضاد نوعاً لهذه المحافظة المستمرة أو الاستمرار في المحافظة ، المستمرة أو الاستمرارية في المحافظة ، فهو الاعتدال ، وإن كان هذا نفسه غير بعيد عن المحافظة ، إن لم يكن حقاً امتداداً مباشراً لها ، فالاعتدال المغروس المركوز في طبيعة المصري ، أياً كان أصله ، فيبتعد به عن التطرف الشديد يميناً ويساراً ، يبتعد به ضمناً وديالكتيكياً ولحسن الحظ عن التطرف في المحافظة ، بذلك يوفر له هامشاً معقولاً من المرونة والتلاؤم والتغيير والحيوية ، التي تضمن له علي أقل تقدير القدرة علي التطور البطئ ، التطور خطوة خطوة بالجرعات الصغيرة ، وبالتالي تضمن له البقاء الطويل علي المدي البعيد ،
- الحمد لله فسوف يتطور المصري في النهاية ولو ببطء
- وأخيراً وبحكم الاعتدال كان المصري العادي أو المتوسط أميل في الغالب إلي الوداعة والهدوء والدماثة والبشاشة ، وإلي الشخصية الاجتماعية الودود ، السلسة السهلة المنطلقة extrovert غير المنغلقة أو المعقدة ، كما كان أجنح إلي التعاون منه إلي التنافس ، وفي الوقت نفسه أبعد شئ عن العنف والقسوة والدموية والمزاج الحمراوي الدموي
- نحمد الله علي ذلك أيضاً وعلي كل حال
- ومن الاعتدال بعد هذا نقلة لا شك قصيرة ومباشرة إلي الواقعية ، فالانسان المصري رجل عملي ، علمته البيئة والتجربة ، أي الجغرافيا والتاريخ ، احترام الواقع والالتصاق به وعدم الانفصال عنه أو التناقض معه ، فهو إلا في القليل النادر لا يهرب من الواقع سواء بالتدين المفرط (الدروشة) أو بأحلام اليقظة والتمني المجنحة (الغيبيات) أكثر كثيراً مما يتصادم معه ويتحداه ، وهو من ثم مطيع بالضرورة ، أكثر مما هو متمرد بالطبع ، فإذا ما عجز عن تغيير الواقع فإنه في العادة أو في النهاية يخضع له ويرضخ للأمر الواقع ، إلا أنه حينئذ قد يسخر منه للتعويض والتنفيس ، من هنا تأتي شهرته الداوية

في السخرية التعويضية والتعويض بالتعريض بالواقع دون التعرض له ، وهو بدوره التناقض الخفيف الذي أفضي به في نظر البعض إلي الشخصية الفهلوية smart التي تعوض عن عجزها العملي بالتذاكي المفرط smartig واصطناع اللامبالاة أو إدعاء الحلم والتخفي وراء العقل والتعقل

- اللامبالاة وصف يشبه وصف علماء الحملة الفرنسية
- والنموذج المثالي أو التقليدي في ذلك هو علاقة الفلاح المصري بالسلطة والحكومة ، فهو يكرهها ويخشاها منذ قال الجبرتي (والمصري يكره الحكام في كل صورة حتي أدناها) إلي أن حدد العقاد علاقته بالحكومة كعلاقة عداوة مريبة ، لكنه مع ذلك يقبل بها وقد يتملقها ، إلا أنه حتماً يسخر منها ويتندر بها سراً وعلناً
- كل هذا مفروغ منه
- ولقد يعود بنا هذا السلوك أو التصرف الواقعي إلي صفة الاعتدال كنوع من الإفراط في العقل ، إلا أنه أدعي وأفضي إلي السلبية كالنتج النهائي لكل الخصائص السابقة وكالحلقة الأخيرة في سلسلتها المترابطة المتداعية ، فالمحصلة النهائية لتلك المتوالية التنازلية من التدين إلي المحافظة إلي الاعتدال إلي الواقعية إنما هي منطقياً شخصية سلبية نوعاً أكثر منها إيجابية جداً ، فهو –المصري العادي أو المتوسط– في الأعم الأغلب وفي أغلب الآراء يتجنب الصدام ويتحاشاه لاسيما في المواقف العدائية وبالتالي يؤثر السلامة علي المواجهة والسلام علي الصراع – – – –
- كل هذه الخصائص في الشخصية المصرية ؟
- تلك في عجالة سريعة مقتضبة ولكنها مركزة الخصائص الرئيسية الخمس التي تميز الشخصية المصرية في أغلب الآراء ، وإن جادل أو عدل البعض في بعضها أو كلها بدرجات متفاوتة ، ثم اختلفوا أكثر في تقييمها وتأويلها سلباً أو إيجاباً وقوة أو ضعفاً ، بحيث سنجد دائماً في الحساب الختامي الرأي المضاد والحكم ونقيضه وفي النهاية الصورة الوردية والصورة القاتمة) ، هذا ما كتبه د جمال حمدان وننتقل الآن إلي ما كتبه العقاد عن طبيعة المصري
- رائع

الطبيعة المصرية في رأي العقاد

- يقول العقاد في كتاب عن الزعيم سعد زغلول اسمه (سعد زغلول سيرة وتحية) ما يلي : طبيعة المصري موضع دراسات كثيرة جنسية ونفسية واجتماعية وسياسية يقوم كثير منها علي الإشاعة والغرض وقليل منها علي التحقيق والإنصاف ، وليس ذلك لغموض أو تعقيد فيها فإن هذه الطبيعة واضحة سهلة ليس في الأمم العريقة كافة –فيما نعتقد– أمة أوضح منها وأسلس ولكنها قد احتجبت طويلاً لما أحاط بها من أقاويل الأمم المنافسة لها أو الموتورة منها ، وقد طال عهد مصر بمراس المنافسين والجيران الموتورين وطال إعراضها عما يصمونها به ويفترونه عليها ، حتي وقر في الأذهان وأصبح التعرض له

بالتفنيد والتصحيح كالتعرض للحقائق المقررة والوقائع المكررة تبدو عليه شبهة الغرض والمحاباة من حيث لا تبدو علي تلك الأقاويل المفتراة ، ونحن نرجع إلي الصفات الكثيرة التي تواترت بها أقاويل الأمم الناقمة أو الأمم الحاسدة فنستعرضها صفة صفة ونحاول أن نجد فيها ما يقنع السامع أو ينفي عنه الشك والتردد فلا نجد بينها صفة واحدة تطرق الأذهان من ناحية الإقناع ، ولا نعجب لشئ عجبنا من سرعة الأكاذيب في النفاذ إلي الآذان وسرعة الأوهام بعد ذلك في الاستقرار بالأخلاد حتي إذا جاء دور التفنيد والتصحيح كان العجب الأكبر أن تلك الأخلاد التي استقبلت الأوهام بالإذعان والاستسلام تنقلب فجأة من السلاسة والهوادة إلي التصعب والتشدد في وجه الحقيقة ، كأنما الأوهام صديق مسالم ينزل بها نزول النصير المأمون الجوانب المحمود العواقب ، أما الحقيقة فهي عدو مهاجم يدك الحصون ويبدل المعالم ولا يطرق العقول أبداً دون أن تلتفت له وتثور عليه ،

- الأكاذيب المريحة تريح الناس أكثر من الحقائق المتعبة
- ورأس الأكاذيب علي الطبيعة المصرية أنها طبيعة أمة لا تحكم نفسها بنفسها ولا تبال غارة الأجنبي عليها ، فمن من أعداء المصريين يشك في هذه الأكذوبة ؟ أو يكلف نفسه وهو يقذفهم بها أن يضاهي بينهم وبين غيرهم ليعلم مقدار الشبه في هذه الخلة بينهم وبين أبناء الأمم الأخري ؟ علي أنها كما قلنا رأس الأكاذيب وأيسرها تفنيداً عند النظر القريب فضلاً عن النظر البعيد ، فليس شأن المصريين في هذه الخلة بمخالف لشأن الأمم كافة في العصور القديمة إذ هي كلها مزيج من غالب ومغلوب وأصلاء وغرباء ، لا تدري من أحقهم بوصف الوطني ومن أحقهم بوصف الدخيل ، إذا مضي عليهم جيلان أو بضعة أجيال ، ولقد كانت هذه الأمم جميعاً لا تبالي من يحكمها من أبناء البلاد أو غير أبناء البلاد ، لأنها كانت منهوبة مظلومة علي كلتا الحالتين ، وكانت تطيق الحاكم حتي يجاوز بها حد الطاقة فتثور عليه وتمالئ أعداءه – – – وقد أبطأت الإنسانية طويلاً قبل أن تخترع الديمقراطية أو الفكرة الوطنية ، وقد أصيبت جميع الأمم بما أصيب به المصريون من جراء هذا الإبطاء الذي لا ذنب فيه علي أحد
- واضح أن طبيعة الشعب المصري قد تناولتها وجهات نظر مختلفة سواء من علماء الحملة الفرنسية أو د جمال حمدان أو من العقاد

أكذوبة الاستبداد الشرقي في رأي الأستاذ جمال بدوي

- وإليك أيضاً ما كتبه الأستاذ جمال بدوي عن أكذوبة الاستبداد الشرقي ، ولعلك تحاول المقارنة بين ما كتبه علماء الحملة الفرنسية وما كتبه جمال حمدان والعقاد وجمال بدوي مع حفظ الألقاب وتحاول أن تكوّن بنفسك فكرة عامة عن طبيعة هذا الشعب والظروف التي مر بها علي مر التاريخ
- ماذا كتب الأستاذ جمال بدوي عن أكذوبة الاستبداد الشرقي ؟
- تحت هذا العنوان كتب الأستاذ جمال بدوي في كتابه الممتع (في محراب الفكر) ما ملخصه : هل صحيح أن الطغيان داء شرقي متوطن مثل البلهارسيا والانكلستوما ، وأن شعوب الشرق علي خلاف

الشعوب الأوروبية يتقبلون الطغيان بدون شكوي أو تذمر لأنهم – في رأي أرسطو – مهيئون بطبيعتهم لأن يكونوا عبيداً ، وأن الرق بالنسبة لهم نافع بقدر ما هو عادل ، إن هذه المقولات التي أطلقها أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد جرت مجري الحقيقة المؤكدة لدي فلاسفة الفكر السياسي حتي مشارف العصر الحديث والأعجب أن تري أصداءها علي ألسنة مفكري الديموقراطية المحدثين مثل مونتسكيو الذي انتهي إلي أن الاستبداد نظام طبيعي بالنسبة للشرق لكنه غريب وخطر علي الغرب ، وأن الحكومة المعتدلة هي أصلح ما يكون للعالم المسيحي الغربي بينما الحكومة المستبدة هي أصلح ما يكون للعالم الإسلامي ، وبذلك انشطر العالم في نظر فلاسفة الغرب إلي قسمين ، قسم شرقي مهيأ بحكم طبيعته لأن يحكم حكماً استبدادياً لأنه في مرتبة الحيوانات أو العبيد ، وقسم غربي له أنظمة سياسية خاصة تجعل طبيعة الاستبداد أمراً صعباً ، فإلي أي مدي يمكن قبول هذه الأقوال التي انتقلت إلينا عبر المؤثرات الثقافية التي جعلت منها مسلمات لا تقبل النقض أو النقد واستقبلتها تربتنا العقلية عن رضا دون إدراك لمخاطرها علي وجودنا الإنساني وما تزرعه في نفوسنا من يأس وإحباط واستسلام إلي الواقع واعتبار الاستبداد قدراً مقدوراً لا فكاك منه شأن العلل الوراثية ، نحن الشرقيين لا ننكر أن مجتمعاتنا القديمة عانت في بعض مراحلها التاريخية من حكم الطغيان ولكن من قال إن الشعوب الأوروبية في عهودها القديمة والوسيطة والحديثة أيضاً لم تتعرض لحكم الطغيان ؟ ولم تعان من القهر والاستبداد مثلما عانينا ؟ إن الحقيقة العلمية والتاريخية تشهد بأن الطغيان داء إنساني يفرض نفسه عندما تتهيأ له ظروف تاريخية معينة ، مثل الأنفلونزا تصيب الإنسان إذا تعرض لتيارات الهواء بصرف النظر عن كونه مصرياً أو ألمانياً أو استرالياً وليس من الحقائق العلمية في شئ أن يكون الطغيان حكراً علي الشعوب الشرقية (المتخلفة) وأن تبرأ منه الشعوب البيضاء (المتحضرة) لأن الحضارة الغربية في قمة ازدهارها لم تمنع ظهور أشد طغاة العصر الحديث من أمثال هتلر وموسيليني وستالين وسالازار ، ولكنها النظرة العنصرية الخبيثة التي صاغت الفكر الأوروبي منذ عصر أفلاطون وأرسطو حتي عصر هيجل وماركس ، نعم نحن نعترف بأن الطغيان في الشرق أقدم منه في الغرب لسبب تاريخي لا دخل لنا فيه وهو أن الشرق أقدم وأعرق وأسبق ، ففي مصر قامت أول حكومة مركزية في التاريخ بينما كانت الجزر اليونانية في طور الطفولة فكان من الطبيعي أن تعرف مصر الأنظمة السياسية وأن تنحرف هذه الأنظمة إلي ممارسة الطغيان ، فلما بلغت المدن اليونانية مرحلة البلوغ والنضج تطورت أنظمتها السياسية وسري عليها ما سري علي دول الشرق ، وعرفت اليونان الطغيان مثلما عرفته مصر ظهر فيها ما يعرف في التاريخ باسم عصر طغاة الإغريق الذي يبدأ باعتلاء الطاغية كبسليوس عرش مدينة كورنثة عام ٦٥٠ قبل الميلاد وخلال قرن ونصف قرن من الزمان اكتوت المدن اليونانية بنار نخبة من عتاة الطغاة ، بل إن فقهاء اللغة يعودون بلفظ طاغية إلي جذور إغريقية – – ومعني ذلك أن اليونان التي تزهو علي العالم بأنها مهد الديمقراطية لم تسلم من جحيم

الطغيان شأنها في ذلك شأن مصر وغيرها من بلاد الحضارات القديمة وظهر فيها جيل من الطغاة قبل ثلاثة قرون من ظهور أرسطو الذي دفعه التعصب العنصري إلي جعل الطغيان صناعة شرقية بحتة ، وسار علي دربه المؤرخون الذين كتبوا عن الإسكندر الأكبر تلميذ أرسطو فقالوا إنه لم يكتسب صفة الطغيان إلا بعد أن جاء الشرق فرضع الطغيان من منابعه الأصلية وزعموا أن الفاتح المقدوني ظل يتمادي في طغيانه حتي جعل من نفسه إلهاً متأثراً بفكرة تأليه الحاكم في مصر ونسي هؤلاء المؤرخون أن فكرة تأليه الاسكندر نشأت معه منذ ولادته وأن أمه أوليمبياس غرست في عقله أنه ليس ابن فيليب المقدوني ولكنه ابن الإله زيوس كبير آلهة اليونان ، فلما جاء الإسكندر إلي مصر فاتحاً وقع في حبائل كهنة آمون الذين خدعوه وأفهموه أنه ابن الإله أمون – – –

- حتي الإسكندر وقع في هذه الخدعة ؟
- الدكتور جمال حمدان في كتابه الجليل شخصية مصر في البداية لم ينكر أن الطغيان أو الاستبداد هو النغمة الحزينة في تاريخ مصر وأسوأ خط في دراما الشعب المصري ولكنه لا يلبث أن يتساءل هل هذا يعبر عن حقيقة شخصية مصر الاجتماعية الكامنة ؟ أهو يعني صفة موروثة أم مكتسبة خالدة أم عارضة ؟ ثم هل تنفرد به مصر أم يشاركها فيه غيرها ؟ ويجيب الدكتور جمال حمدان بأن ظاهرة الطغيان التعسة لم تقتصر علي مصر لا انفردت مصر بها سواء في الماضي البعيد أو القريب فإن الإمبراطوريات الاستبدادية في التاريخ القديم تفوق الحصر : بابل وآشور وفارس وفينيقيا ، الهند والصين وكل حضارات العالم الجديد ، إلخ ، أما اليونان وروما التي جعل البعض منها أسطورة الديمقراطية ومنبع الحرية فقد كانت علي العكس تماماً مثالاً بشعاً للاستبداد والظلم والتعذيب بل كانت مجتمعات العبودية الكلاسيكية وفي الإمبراطورية الرومانية بالذات كان الإمبراطور الطاغية – قيصر– يؤله كفرعون في مصر ولم يكن أقل منه طغياناً وبطشاً أما أوروبا في العصور الوسطي فقد كان المجتمع الإقطاعي نظاماً استبدادياً سافراً وكان الفلاح الأوروبي قناً يعني عبدا ، – – أي أن الرجل الأوروبي كان أسوأ حالاً وحظاً من الإنسان المصري سواء في العصور القديمة أو الوسطي وحتي بالنسبة للرقيق الذي لم ينتشر في مصر نسبياً مثلما انتشر بأوروبا فقد كان يعامل برفق نوعاً إذا ما قيس بنظيره الأوروبي ، ويري د جمال حمدان أن الاستبداد أو الطغيان حقيقة عرفتها معظم البلاد في معظم العصور علي اختلاف بيئاتها والفروق بين البشر أقل بكثير من التشابه الأساسي بل لقد كان تاريخ العالم حتي وقت قريب هو في الواقع الحكم المطلق والاستبداد بصورة أو بأخري وأن ما عرفته مصر في أغلب تاريخها من الطغيان إنما كان للأسف روح العصر وليس لحسن الحظ روح المكان وهو إذا كان قد طال في مصر بعد أن كان صفي في أوروبا مثلاً لعدة قرون فذلك بفعل الاستعمار الدخيل الآتي من أوروبا نفسها .
- كل هذه القراءات عن طبيعة الشعب المصري وعلاقته بالاستبداد قد زادتني حيرة علي حيرتي

مصر جسم بشري واحد ووحيد

- ولكن هل قد حدث انقسام بين عامة الشعب نفسه في مرحلة من مراحل التاريخ المصري ؟
- بالتأكيد هناك عدة انقسامات شهيرة قد حدثت بين صفوف الشعب المصري مثل الانقسام الذي حدث خلال أحداث الثورة العرابية وقد ذكره الرافعي ، وكذلك الانقسام الذي حدث بين سعد زغلول وعدلي يكن ومؤيدي كل منهما وغير ذلك من الاختلافات في الرأي والتوجهات السياسية وربما استمرت هذه الانقسامات حتي الآن
- وهل الانقسامات بين صفوف الشعب المصري تكون فيها المعادلة صفرية ؟
- هذا يتوقف علي زعماء هذه الانقسامات والشحن الإعلامي وإثارة المتطرفين من الجانبين ، ولكن الشعب المصري بشكل عام شعب غير دموي كما قال الدكتور جمال حمدان أن مصر جسم بشري واحد ووحيد ، ووسط جغرافي أحادي بالتأكيد ، ونهر سائد وفريد
- وماذا كتب د جمال حمدان عن هذا الموضوع ؟
- عن هذا الموضوع كتب د جمال حمدان ما يلي : - ، ، ومن هذا جميعاً نري أن الوحدة التاريخية التي لم تنقطع والتي كانت جزئياً ثمرة للتجانس البشري قد ضاعفت بدورها من هذا التجانس ، حتي قل أن نجد شعباً متماثلاً في ملامحه الجسمية والنفسية ، في مزاجه وتقاليده ، باختصار في (طابعه القومي) كالشعب المصري ، ولربما زدنا هذه الحقيقة وضوحاً إذا ما وضعناها موضع المقارنة مع بلاد أو شعوب أخري مجاورة في الشرق العربي مثلاً عبر العصور الطوال كما في يومنا هذا ، نجد أن سوريا تمتاز في كل نواحي حياتها وكيانها بمعادلة إقليمية أساسية تعد مفتاحاً لكل أعماق شخصيتها : إنها تتألف من عدد كبير من الوحدات الضئيلة : في الأرض والطبوغرافيا ، في العروق والسلالات ، في اللهجات والاتجاهات ، في الطوائف والملل ، حتي في المدن والواحات ، إنها في ذلك كله كومة مفككة من الأحجار الصغيرة وأكاد أقول من حصي وتراب ، والعراق أكثر تجانساً وتماسكاً ، فهو بنهريه وبيئتيه الطبيعيتين السهل والجبل - - إلخ ، أقرب إلي الثنائية التركيبية – إلي حجرين كبيرين نوعاً
- أما مصر في هذه المتتالية التصاعدية فتأتي علي القمة ، فهي حجر واحد monolith ، وحجر ضخم عند ذلكmegalith ، فهنا جسم بشري واحد ووحيد ، ووسط جغرافي أحادي بالتأكيد ، ونهر سائد وفريد ، وهي لذلك كله أبعد ما تكون عن التنافر الداخلي ، أو التخلخل التركيبي ، ومنه تستمد ثقلاً ووقعاً ، وقوة اندفاع فرضت نفسها علي تاريخ المنطقة[1]
- إن هذا كلام مطمئن جداً

الشعب المصري ونهر النيل

[1] نقلاً عن كتاب مختارات (٣) من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان – الفصل الخامس – وحدة مصر الوطنية –مكتبة مدبولي

- **كيف كان يحتفل المصريون بوفاء النيل ؟**
- **في كتابه الممتع صفحات من تاريخ مصر كتب الأديب الكبير يحيي حقي ترجمة مقال للمستشرق الفرنسي جاستون ڤييت Gaston Wiet تحت عنوان الأعياد والألعاب في القاهرة ، فيما يلي مقتطفات مختصرة من المقال : إن أوفي وصف لأعياد وفاء النيل في القاهرة نجده عند الجغرافي ليون الأفريقي المولود سنة ١٤٨٣م بعد أن زار مصر سنة ١٥١٧م قال : في بدء الأيام التي يغمر فيها النيل أرض مصر يقام في القاهرة عيد كبير وتعلو فيه الضجة وأنغام الموسيقي – تستقل كل أسرة قارباً تزينه بأغلي الأقمشة وأجمل السجاجيد وتحمل معها أطايب الطعام والحلوي وشموعاً غاية في اللطف والبهاء الناس كلهم في القوارب يلتمس كل منهم لهوه حسب طاقته ، ويشارك السلطان نفسه في الاحتفال بهذا العيد يصحبه أعوانه فيأخذ طريقه إلي خليج في النيل يسمي بالخليج الكبير حيث موقع السد ، ويتناول السلطان فأساً ويشرع بضرب جدار السد ثم يحذو حذوه كبار رجال حاشيته حتي ينهدم جانب الجدار الذي يحبس الماء عن الجريان ، فلا يكاد الجدار ينهدم حتي يتدفق النيل في الخليج وهو يهدر بعنف ، ثم ينصب من هناك إلي الخلجان الأخري في المدينة المحمية بسورها ، فيتاح التنقل بالقوارب بين مساكن مصر ونواحيها كلها ، وهكذا فإن ثمرة ما ربحه التاجر أو الصانع خلال العام كله ينفقه في هذا الأسبوع علي الطعام والحلوي والشموع والعطور واستخدام محترفي الغناء والموسيقي ، وهذا العيد بعث لأعياد كانت عند قدماء المصريين ، وهكذا ما إن يعلن عن وفاء النيل حتي يحتشد له أغلب سكان القاهرة وينصبوا خياماً لهم علي الشاطئين وفي جزر النهر ولا يتخلف عن الجمع أحد من المطربين وعازفي الموسيقي ، ومحترفي الألعاب ، وأصحاب أماكن اللهو تحف بهم جموع من شباب صاخب ، كلهم بلا استثناء يشاركون في بهجة العيد وينفقون أموالاً لا حصر لها ، ويورد الرحالة كارلييه دي مبتون ١٥٧٩م مزيداً من التفاصيل فيقول : إن الناس تخرج في هذا العيد إلي الشوارع يلتمسون ما يتاح لهم من اللهو ، والجانب الشيق عندنا في هذا الاحتفال الذي يقام في الخلاء هو امتداده أيضاً إلي الليل ، فتقام زينة من الأنوار بهية لم يفت المؤلفات العربية وصفها ، وبقي الاحتفال بهذا العيد من التقاليد المرعية وبلغ التأنق في زينته أقصي غايته فكانت الفوانيس ترتب بحيث يخيل لرائيها إنه إزاء قلاع أو قصور ، ويمدنا الرحالة كوبان ١٦٣٨م بتفاصيل شيقة عن هذا العيد فيقول : إن الكثير من الناس تتجمع في سطح الماء أو علي الشواطئ أو حتي داخل المساكن يعلق علي واجهاتها فوانيس عديدة حتي تصبح كأنها بساط من النور ، يربط هذه الفوانيس حبال رقيقة علي الجدران طولاً وعرضاً وفق نسق جميل ، لكل واجهة زينتها الخاصة ، وتبقي الفوانيس مضاءة طول الليل ولا تنطفئ وعلي الجانب الآخر من النيل يتراءي للناس مركبان من أكبر المراكب التي تشق النيل ويعلو فوق هذين المركبين هرم خشبي ثبتت عليه الفوانيس متقاربه تبدل أماكنها صعوداً وهبوطاً أو في حركة دائرية ويتم ذلك في سرعة مذهلة منظر يبهج العيون ، ولا يتأتي لأحد أن يلحظ كيف يتم هذا التبدل**

والدوران ، ولا شك أن هذه الفوانيس موصولة بعجلات يحركها رجال من خلف الهرم الخشبي ، فتبعث السرور في القلوب[٢]

- من الواضح أن هذا الاحتفال قد لفت الرحالة الأجانب عندما حضروا إلي القاهرة
- بالتأكيد فهو أهم احتفال في حياة المصريين لأنه يرتبط بالفعل بحياتهم
- أعرف أن بركة الأزبكية كانت مرتبطة بزيادة النيل عند الفيضان فهل لديك معلومات عنها ؟

بركة الأزبكية

- لقد أبدع المؤرخون والرحالة والشعراء في وصف بركة الأزبكية ، فقال عنها الأديب والرحالة الفرنسي سافاري C.E.Savary وقد شهد بها احتفالات كسر الخليج إبان زيارته لمصر عام ١٧٧٦ واستقر بها ثلاث سنوات ، : (كان أكثر الازدحام بطبيعة الحال عند الأزبكية وهي أوسع مناطق المدينة ويبلغ محيطها أكثر من نصف فرسخ وتكون بحيرة رحبة محاطة بقصور البكوات وهي أجمل بيوت المدينة ، وتضاء بأنوار مختلفة الألوان وتسبح فوقها آلاف من المراكب ذات سوار تتدلي منها المصابيح المضيئة ، مكونة هالة من أضواء متحركة تتغير مشاهدها كل لحظة ، وتنسب الأزبكية إلي الأمير سيف الدين أزبك بن ططغ الأشرفي الظاهري الذي كان يقطن بالقرب من هذه المنطقة ، فأراد أن ينشئ مناخاً لخيوله وجماله ، فمهد ما كان بها من كيمان ، وحفر بها البركة المنسوبة إليه وأجري إليها الماء من الخليج الناصري ، وجدد عمارة قنطرة خليج الذكر وبلغ ما أنفقه مائتي ألف دينار وشيد بها جامعاً (بالقرب من مدخل شارع الأزهر حالياً) بالإضافة إلي عدد من القصور والربوع والقياسر والحمامات والحوانيت حتي صارت مدينة علي انفرادها كما قال المؤرخ العلامة ابن اياس ، وذكر علي باشا مبارك أن مساحة البركة كانت ستين فداناً ، كما أشار الكاتب والرحالة دي تيفينو الذي زار القاهرة عام ١٦٥٦ وتحدث عن مشاهداته القاهرية في كتابه (رحلات في أوروبا وآسيا وأفريقيا) فبالقرب من الطريق المؤدية إلي بولاق استرعي انتباهه حي أسماه لزبيكة يقصد الأزبكية وقال إن الماء يبقي فيه نحو أربعة أو خمسة أشهر كل عام ، وشيدت حول البركة قصور رائعة الجمال للبكوات وأمراء البلاد ليمكثوا بها بضعة أيام من حين إلي آخر ، طلباً للراحة والاستجمام وقد أشار المؤرخ العظيم الجبرتي إلي شهرة الأزبكية كمركز للتنزه والملذات والمتع الليلية في وقت الفيضان ، كما أنها كانت منطقة جذب للطبقة البرجوازية من الأمراء والبكوات وكبار التجار والأعيان ، ومن أشهر القصور والدور التي كانت تشرف علي بركة الأزبكية دار السيد إبراهيم بن سعودي وكانت دار عظيمة عني بتشييدها ثم آلت إلي الأمير محمد بك الألفي سنة ١٧٩٦ فهدمها وتغالي في إعادة بنائها ولم يسكن بها سوي أيام حتي اغتصبها الفرنسيون وأقام بها نابليون واتخذها مقراً لقيادة الحملة ، أيضاً من الدور الشهيرة التي

---

٢ نقلاً عن كتاب صفحات من تاريخ مصر – يحيي حقي – طبعة ٢٠٠٨ – نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- مقتطفات مختصرة من صفحة ٨٧ وما بعدها

أوردها الجبرتي دار الشيخ عبد الله الشبراوي والسيد الدمرداش – – – كذلك شيد علي بك الكبير سنة ١٧٧٠ قصراً لزوجه الست نفيسة ، وقصر رضوان بك ، والدار العظيمة للست خاتون زوجة مراد بك وكانت ذات ثراء وعز وسيادة وكلمة نافذة وعلي الحافة كانت دور الشربيني قال عنها الجبرتي : إحدي دور المجد ، ألحقت بها مكتبة قيمة حافلة وكان مسموحاً فيها بالإطلاع والاستعارة خارجها ، ثم انتقلت ملكيتها للأمير رضوان كتخدا الجلفي فأدخل عليها كثيراً من التعديلات ووسع حدائقها وأباحها للنزهة ، – – – وعند الشروع في عملية تنظيم ميدان العتبة وفتح شارع محمد علي (القلعة) هدم جامع أزبك وكثير من البيوت والزوايا والحمامات والربوع والحوانيت وردمت البركة عام ١٨٦٤ بعد أكثر من أربعة قرون من حفرها ، وشيدت حديقة الأزبكية وأقيمت بها الجبلاية الصناعية وزرعت بها الأشجار النادرة ، أشرف علي تصميم الحديقة وتنفيذها المهندس باريل بك وهو الذي نظم حدائق الأورمان ، وصمم سراي الجيزة ، وأنشئ بالحديقة مسرح كوميدي في سنة ١٨٦٩ أنشئت دار الأوبرا الخديوية وكانت مساحة الحديقة نحو ٢١ فدان ، وفي ٢٧ إبريل سنة ١٩٥٤ امتد شارع ٢٦يوليو ليخترق الحديقة ويقسمها إلي شطرين وفتحت أبوابها لجماهير الشعب ، وأقيم بها مسرح للعرائس ومسرح ٢٦ يوليو ، أما مسرح الأزبكية (المسرح القومي) فقد كان موجوداً من قبل ، وكانت تديره شركة مصر للتمثيل والسينما إحدي شركات بنك مصر ، وكان بجوار المسرح داخل الحديقة مكان يستخدم سينما في الهواء الطلق صيفاً وللباتيناج شتاءاً[٣]

- كنت أتمني أن أسمع أي معلومات عن ما يسمي شهبندر التجار وهو اللقب الذي له سحر خاص فهل كانت هذه الوظيفة موجودة في مصر في أحد العصور التاريخية ؟

اسماعيل أبو طاقية شاهبندر التجار

- هناك شخص يدعي اسماعيل أبو طاقية كان يشغل هذا المنصب في العصر العثماني ، وقد اتخذت الحياة العملية لإسماعيل أبو طاقية في مجال التجارة الدولية أبعاداً كثيرة منذ مطلع التسعينيات من القرن السادس عشر ، فعلي الصعيد الجغرافي ظل البحر الأحمر يمثل القطاع الأكبر لنشاطه التجاري ، ولكنه ما لبث أن امتد شرقاً إلي مخا باليمن ، ثم إلي الهند ، وكانت الشبكة التجارية التي أقامها تضم شركاء ووكلاء يسافرون بين القاهرة والهند ، أو إلي مكة وجدة ، حيث ينتدبون شريكاً من الشركاء هناك للسفر إلي الهند نيابة عنهم ، وهو ما كان يفعله غيره من تجار ذلك الزمان ، وكانت الهند عندئذ أقصي مركز تجاري في الشرق يتعامل معه تجار القاهرة ، وإضافة إلي ذلك ، أقام إسماعيل أبو طاقية شبكة تجارية أخري ضمت بعض مدن البحر المتوسط وامتدت إلي استانبول وسالونيك والبندقية ، فكان يصدر نسبة كبيرة من البضائع التي يجلبها من الهند إلي بعض موانئ الدولة العثمانية وأوروبا عن

٣ نقلاً باختصار عن كتاب – القاهرة رحلة في المكان والزمان – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب جمال الغيطاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

طريق الإسكندرية ورشيد ودمياط ، وكان له وكيل تجاري في أفريقيا ، مصدر تجارة الذهب وريش النعام والعاج ، وبلغ نشاطه مدينة كانو في نيجيريا

- سبحان الله ، كل هذه البلاد يتعامل معها هذا الرجل بدون انترنت أو تليفونات او اتصالات من اي نوع؟
- وفوق كل ذلك ، اهتم اسماعيل أبو طاقية بالتجارة المحلية ، وخاصة تجارة منطقة الدلتا ، وتنوعت البضائع التي أتجر بها تنوعاً كبيراً كالأحجار الكريمة وخاصة ياقوت سرنديب والذهب الذي جلبه من كانو ، وعند نهاية القرن السادس عشر كانت التوابل السلعة الغالبة في التجارة وليس الأحجار الكريمة واحتل البن منزلة تقع بين النوعين وينسحب نفس الشئ علي السكر الذي كان اسماعيل أبو طاقية يصدره بكميات متزايدة في مطلع القرن السابع عشر ، كما أتجر بالمنسوجات علي نطاق واسع
- ومتي أصبح شهبندر التجار ؟
- توجت حياة إسماعيل أبو طاقية العملية عندما أصبح شاهبندر التجار عام ١٠٢٢هـ /١٦١٣م واحتفظ اسماعيل بالمنصب حتي وفاته عام ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م ، وقد مارس اسماعيل أبو طاقية مهام الشاهبندر باهتمام كبير ، فكان يتدخل في المسائل التي تهم التجار ويتوسط في المنازعات التي تنشب بينهم ويشهد علي معاملاتهم ، فكان حاضراً دائماً عند الحاجة إليه وكانوا يتوقعون مساعدته دائماً عند الأزمات
- فكيف كانت مظاهر سلوكه كشهبندر التجار ؟
- من الطريف أن نري كيف كان الشاهبندر يُستقبل عند قدومه إلي السوق كل صباح لممارسة عمله ، فقد جرت العادة أن يصحبه التجار إلي مقر الشاهبندر ويقرأون الفاتحة أمامه ويتمنون عليه يوماً طيباً ثم ينصرف كل منهم إلي متجره ، وتدل الحكاية علي أن الشاهبندر كان يتمتع بقدر كبير من التبجيل
- وهل كان كثير السفر والتنقلات خارج مصر ؟
- لا فقد أدار أبو طاقية تلك الشبكة التجارية من مقره بالقاهرة دون أن يضطر إلي مغادرتها ، سواء للسفر خارج البلاد أو إلي الأقاليم الداخلية التي تعامل معها
- إن ذلك والله عجيب
- بل الأعجب من ذلك أنه لم يزد المجال المكاني الذي تحرك فيه إسماعيل أبو طاقية خلال ممارسته العمل الروتيني اليومي عن مسافة بلغت حوالي كيلومتر واحد ،
- كيلومتر واحد ؟؟
- فكان يخرج من بيته الكائن بالقرب من سوق أمير الجيوش ، شمالي المدينة ، متخذا طريقه فيما وراء جامع الأقمر الفاطمي ، والمجموعة المعمارية للسلطان قلاوون في قلب المدينة ، حتي يصل إلي أحد حوانيته بسوق الوراقين ، أو بعض حواصله بوكالة الحمزاوي ، وقد يذهب من حين لآخر إلي الوكالة الكبري والوكالة الصغري وراء مجموعة قلاوون المعمارية ، ومن تلك المواقع زاول إسماعيل أبو طاقية

نشاطه ، وارتبط بهذا الروتين اليومي ارتباطاً وثيقاً زياراته المتفرقة للمحاكم ، حيث كان يسجل الصفقات التي أبرمها في السوق أو الوكالة علي أوراق رسمية في سجلات المحكمة ، وهكذا كان أبو طاقية يدير شبكة تجارية امتدت عبر ثلاث قارات ، لقد حدثت تطورات عمرانية ملحوظة في زمن أبو طاقية ، ونظراً لأن معظم تلك التطورات حدثت علي يد التجار ، وتؤكد الانطباعات التي نخرج بها من كتابات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر ، ويذكر مايكل هيببرر فون بريتن في ١٥٨٥م أن المدينة كانت كبيرة ومزدحمة بالناس ، ولا شك أن انطباعاته جاءت علي وسط المدينة الذي كان أكثر أنحاء القاهرة ازدحاماً ، وبعد ذلك ببضع سنوات ، يذكر الرحالة الألماني يوهان فيلد الذي اقام بالمدينة فيما بين ١٦٠٦–١٦١٠م أن التجارة كانت بالغة الازدهار ، وأنه انبهر بالحوانيت المليئة بالتوابل والأحجار الكريمة والأخشاب الثمينة ذات الروائح الذكية والقلانس الجميلة والمنسوجات القطنية الرفيعة التي جاءت من الشرق كما شاهد المرجان والمنسوجات الصوفية التي جلبها البنادقة[٤]

وجهة نظر قابلة للتصحيح

- هل كان المصريون علي مر التاريخ يدركون ما يحدث حولهم في العالم أم كانوا يجهلون الموقف الدولي ؟
- هذا السؤال له عدة إجابات كتبها بعض المؤرخين بل ذكرها الأديب يحيي حقي وهو يكتب عن جهل المصريين بالموقف الدولي حيث كتب تحت عنوان (وجهة نظر قابلة للتصحيح) ما ملخصه [٥] : السؤال الذي يتردد في خاطري وأنا أقرأ تاريخ مصر الحديث هو عن مدي إلمام قادتها بالموقف الدولي ، فإن الجهل به كان – فيما أعتقد – سبب وقوعهم في أخطاء كثيرة وإصابتهم بخيبة أمل من جنس واحد ، مرة بعد مرة دون أن يتعظوا ، لم يتمثل الجهل المطبق بالموقف الدولي كما تمثل في إبراهيم بك ومراد بك حينما ظهر أسطول نلسون أمام الشواطئ المصرية وأرسل إليهما يقول إنه يطارد أسطول نابليون الذي أبحر لغزو مصر ، لم يسأل أحد من هو نابليون ؟ ولماذا يريد غزو مصر ؟ ولماذا تطارده حضرتك ؟ ، قالا له إن مصر كنانة الله في أرضه وهي منيعة لأنها من بلاد الدولة العلية ، حسباها زعقة أو كرشة بين اثنين من العصبجية لا شأن لمصر بهما ، ومع أن مصلحة المماليك توحدت ومصلحة إنجلترا في صد عدوان فرنسا علي مصر ، فإن مراد بك وزميله لم يحاولا أن يلعبا ورقة نلسون ضد نابليون ، كانا يجهلان كل الجهل الصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا ، وعاد نلسون من حيث أتي دون أن يظفر بإنسان يفهم عنه ،
- فهل فهم المصريون بعد ذلك هذا الصراع ؟

- [٤] مقتطفات مختصرة نقلاً كتاب تجار القاهرة في العصر العثماني – سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار – تأليف د نللي حنا – ترجمة وتقديم د رءوف عباس – الناشر الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولي ١٩٩٧م

[٥] من كتاب (صفحات من تاريخ مصر) للكاتب الكبير يحيي حقي

- يضيف يحيي حقي : – ليس في الجبرتي أي دليل علي أن مصر أدركت أن سبب غزو نابليون لأرضها هو –قبل كل شئ– لكسر شكيمة إنجلترا في أوروبا والمحيطات كذلك لم ينطق نابليون للمصريين بكلمة واحدة تعينهم علي فهم الموقف الدولي ودور مصر فيه ، لعله وجدهم دون مستوي الفهم ، هناك كتب في التاريخ عنوانها (لو أن ......) ، فمن الجائز أن يكون من بين فصولها محاولة الإجابة علي السؤال الآتي : (ماذا كان سيحدث لو أن مراد بك وزميله سمحا لنلسون بانتظار نابليون أمام شواطئ مصر بحيث يتم تحطيم أسطول نابليون في موقعة أبو قير قبل الغزو لا بعده؟) ، لك أن تتخيل ما تشاء فإني لا أحب هذه التخمينات لأنها سفسطة فارغة – – – – – – – –
- إنه نفس السؤال الذي يحيرني
- ويضيف أيضاً فيقول : من الخطأ إطلاق وصف (القادة) علي إبراهيم بك ومراد بك ، لم يكن كل منهما في حقيقة الأمر إلا شيخ منصر همه السلب والنهب وامتلاء جوفه وخزائنه ، فليس بعجيب عليهما هذا الجهل المطبق بالموقف الدولي ودور مصر فيه
- فما الإجابات الأخري التي ذكرت أنها ترد علي هذا السؤال ؟
- توجد إجابة أخري في كتاب آخر اسمه (تاريخ مصر الحديث والمعاصرمن الحملة الفرنسية إلي ثورة ١٩٥٢) يؤكد فيه الكاتب علي أن رفض محمد كريم السماح للإنجليز بالبقاء في الإسكندرية للدفاع عن مصر قد تسبب في جلاء الحملة عن مصر بعد ثلاث سنوات فقط
- وكيف ذلك ؟ وماذا كتب ؟
- لقد كتب ما ملخصه[٦] : الملاحظة الأولي التي تفرض نفسها علي أي قارئ لجهاد الشعب المسلم في مصر ضد الحملة الفرنسية هو أن جهاد الشعب المسلم كان من القوة والاستمرار والدأب والشمول بطريقة فذة ومذهلة ، وإذا قلنا إن جهاد الشعب المسلم في مصر ضد الحملة الفرنسية كان فريداً – – لما كان ذلك افتناناً وإعجاباً زاد علي الحدود التي تقتضيها دواعي البحث العلمي ، فصحيح أن حيوية الشعب المسلم في مصر كانت دائماً متقدة للكفاح ضد كل تدخل أجنبي قبل الحملة الفرنسية وبعد الحملة الفرنسية ، وذلك بحكم توقد روح الجهاد الإسلامي داخل النفوس وبحكم العقلية الإسلامية التي كانت لا تزال سائدة ، وبرغم فترات الحكم الفاسد الطويلة ، إن الكفاح الشعبي في مصر ضد الحملة الفرنسية كان رائعاً ، بل إنه نجح في طرد تلك الحملة نهائياً في غضون ثلاث سنوات لم ينقطع فيها الكفاح يوماً ، ذلك الكفاح الذي شارك فيه الفلاحون واتجار وعلماء الأزهر والحرفيون وأولاد البلد والمجاذيب ، بل والمسلمون من غير المصريين الذين وجدوا في مصر وقتها ، أو وفدوا إليها خصيصاً لممارسة الجهاد في سبيل الله

[٦] نقلاً عن كتاب (تاريخ مصر الحديث والمعاصرمن الحملة الفرنسية إلي ثورة ١٩٥٢)– د محمد مورو

- أنا لا أريد أن أقطع الحديث ولكن لم أجد حتي الآن الإجابة الشافية علي سؤالي ، استمر في القراءة علي أي حال فهي وجهة نظر تستحق التأمل

أسباب اندحار الحملة في ثلاث سنوات بينما استمر الإنجليز سبعين سنة

- اندحرت الحملة الفرنسية عن مصر في ثلاث سنوات واستمر الاحتلال الإنجليزي لمصر سبعين عاماً وتزيد ، - - إن القراءة العلمية والموضوعية لأوراق الكفاح الشعبي المصري ضد الحملة الفرنسية تعطينا الأسباب لذلك النجاح والتنوع والإبداع في عملية الكفاح الشعبي ، فمن ناحية ، وهذا أول الأسباب كان العلماء وعموم الأمة في حالة من التوحد مذهلة وخطيرة كانت عموم الأمة تعرف قيادتها الشرعية وهي العلماء ، فكان الأزهر رمزاً لقيادة الأمة ، وكانت تركيبة السلطة في مصر والتوازنات وقتها تجعل العلماء والعامة في خندق واحد بالتوازي أو في مواجهة الحكومة (الوالي –المماليك–حسب الأحوال) ، ولقد حاول المستعمر دائماً ، عن طريق مباشر ، أو عن طريق حكام محليين مغفلين أو عملاء أن يقصم هذه الرابطة بين العلماء والأمة لأنه أدرك أنه بدون فصم هذه العلاقة لا أمل له في احتلال البلاد ، ومن ناحية ثانية ، وهو سبب أيضاً هام جداً ، كانت الصيغة المصرية للحكم تجعل من الوالي والمماليك طبقة منفصلة تماماً ومنعزلة عن الجماهير ، ولا يمكن لها بحكم تراثها ونواميسها أن تتدخل في حياة العامة ، وأن عموم الأمة والعلماء كانوا في حالة شبه مستقلة فيما عدا ما يؤدي من ضرائب ، بمعني أن السلطة الحاكمة لم يكن لها برنامج ثقافي تقدمه أو قدرة علي فذلكة برامج سياسية
- بالفعل أعتقد أن أمراء المماليك في ذلك الوقت لم يكونوا علماء أو فلاسفة أو مفكرين أو دعاة لأي فكرة ، بل يحكمون ويجمعون الضرائب فقط والله أعلم ، إنها رؤية جديدة تماماً لذلك العصر أهم من الإجابة علي سؤالي ، استمر في القراءة جزاك الله خيراً
- بل العكس كانت تخضع للتوجيه الثقافي للعلماء وبالتالي فقد كان العقد الشعبي سليماً لم يعان من القمع الثقافي السلطوي
- لم تكن هناك قنوات إذاعية أو تليفزيونية أو إعلام موجه من أي نوع
- وهو ما جعل استجابة –الشعب– سريعة ضد الغزو الأجنبي ، أضف إلي ذلك أن تركيب السلطة جعلها غير قادرة علي منع الناس من المقاومة لأنها لم تكن سلطة تتدخل في الصغيرة والكبيرة أو تحاول كما فعلت الحكومات العلمانية بعدها أن تصوغ عقل الأمة وحركتها ، وهناك العامل الأهم وهو أن تلك الفترة كانت المماليك فيها في حالة ضعف ، لأن قيادتهم تمثلت في مملوكين شقيين متفككين هما مراد بك وإبراهيم بك ، وضعف السلطة المركزية هنا جاء لصالح حركات المقاومة ، لأنه دائماً كانت السلطة القوية تمنع الناس من المقاومة بدعوي أنها ستقوم بها ، ومن ناحية ثالثة فإن العقلية الإسلامية التي كانت تحكم الأمة ، برغم فساد السلطة ، لم تكن قد تعرضت لتلك الحملة البشعة التي قام بها الاستعمار

ومدارس التغريب العميلة التي تم زرعها فينا لتؤدي مهمتها في تغريب الأمة وإفقادها هويتها ، كانت الأمة ما زالت تملك هويتها وكان علماؤها ومثقفوها لم يتم تغريبهم بعد

- لذلك استمر الإنجليز في مصر أكثر من سبعين عاماً بعد أن عبثوا بعقول المصريين وأنشأوا نخبة مثقفة طبقاً لأغراضهم وأفقدوا الناس هويتهم ، فسبحان الله ، كان المصريون أثناء الحملة الفرنسية علي فطرتهم السوية رغم تخلفهم ومحتفظون بهويتهم رغم ضعفهم فتعاملوا مع الفرنسيين كما ينبغي ، يا له من تحليل ، عفواً استمر
- كانت روح الجهاد ما زالت متقدة ، وروح الإسلام البسيطة تعمل ، كان الفلاح البسيط يعرف أن هذا الفرنسي –معتدي– إذن لابد من قتاله ، وكانت كلمات ، الفرنجة الأجانب ، كلمات ذات مضامين ومدلولات ولعل هذا يوضح الفرق بين حركة الكفاح اليومي إبان الحملة الفرنسية وحركة السكون المؤقتة التي شهدتها فترات أخري في تاريخنا المعاصر – – – قبيل وصول الحملة الفرنسية إلي الإسكندرية جاء نلسون قائد الأسطول الإنجليزي إلي المدينة وحذر حاكمها السيد محمد كريم من أن هناك حملة فرنسية كبيرة في الطريق وعرض حمايته علي المدينة ولكن السيد محمد كريم ، أحد نماذج أمتنا الأفذاذ ، رفض العرض الإنجليزي ، وبديهي أن هذا الموقف للسيد محمد كريم كان موقفاً صحيحاً ، وكان موقفاً يعبر عن الوعي والوطنية ، لقد فهم السيد محمد كريم قبل افتتاح جامعات تدريس الاستراتيجيات والتكتيك ، أن الصراع بين مستعمرين لن يكون أبداً لصالحه ، وأنه لو سمح للإنجليز بدخول الإسكندرية لما خرجوا منها ، ووفر السيد محمد كريم بوعي فذ استعماراً مبكراً ، لقد وعي السيد محمد كريم أن الإنجليز والفرنسيين ما هم إلا شكلان من أشكال السيطرة الاستعمارية وأن التناقض بينهما لن يكون لصالحنا يوماً ، وأن وعود أمثال هؤلاء لا يمكن الاعتماد عليها وهو درس لم يستوعبه معظم حكامنا حتي الآن
- نحن لا نستوعب أي دروس من أي نوع علي أي حال إلا من رحم ربي
- وقد يقول قائل : وهل أفاد هذا الموقف في منع الإسكندرية من السقوط في يد الفرنسيين ؟ وهل كان محمد كريم أصلاً يملك القوة ما يسمح له بالاعتماد علي قواه الذاتية في صد الفرنسيين ؟ ، ولكن العقلية الإسلامية وروح الشرف والمبادئ والنظرة الاستراتيجية ، لا تتعجب ، فهي كذلك بالفعل ، جعلت السيد محمد كريم يدرك أن روح المقاومة هي الأهم وأن المحافظة علي روح المقاومة هي الكفيلة بإخراج الفرنسيين في النهاية حتي ولو احتلوا في البداية مدينة الاسكندرية ، ولكن الاعتماد علي قوة خارجية سيضعف كثيراً من روح المقاومة التي هي الأهم ، وسيجعلنا نكسب مكسباً سريعاً ثم نقع أسري احتلال انجليزي في النهاية ، ولعل هذا يكون درساً للذين يراهنون علي أمريكا وروسيا في أيامنا هذه لإخراج إسرائيل من فلسطين المحتلة ، وصل الفرنسيون إلي الإسكندرية وكان هناك عدم تكافؤ واضح في القوي بين الطرفين ، فعدد المقاتلين الفرنسيين كان ٥٠ ألفاً ، وعدد المدينة كلها لم يتعد ١٠ آلاف

نسمة ، أما الإمكانات العسكرية علي مستوي التسليح فقد كانت الهوة شاسعة - - ومع هذا قرر محمد كريم أن يقاوم وقررت جماهير الإسكندرية أن تقاوم ، ويمكننا أن نفهم مدي عمق المقاومة إذا ما قرأنا هيرولد : (أنه من النادر أن يصاب قائدان هذه الإصابات في الدقائق الخمس الأولي لأية حملة حربية ، المقصود كليبر ومينو وهما من كبار قواد الحملة وقد قادا الحملة فيما بعد عقب رحيل نابليون) وقد تعرض نابليون ذاته للقتل كما أن نابليون نفسه يصف المقاومة بقوله : (إن كل بيت كان قلعة) ، كتب الجنرال مينو : (إن الأعداء قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم) - - وخرج الرصاص من المساجد خرج الرصاص وخرجت الأحجار وخرجت روح المقاومة من كل شبر في المدينة ، ومع هذا سقطت المدينة ولكن روح المقاومة لم تسقط

- إن كل من مات شهيداً في الإسكندرية لم يعرف ماذا حدث بعد ذلك ولكنه قد سجل موقفه قبل أن يموت دون أن يهتم بأن يعرف نتيجة القتال
- قام الفرنسيون عقب سقوط المدينة بعمليات الذبح والقتل كعادة الحضارة الغربية ، يقول أدجوتاتن جنرال بوابية أحد هيئة أركان الحرب العامة - - - ذبحنا الرجال والنساء والكبار والصغار وحتي الأطفال عن بكرة أبيهم وبعد نحو أربع ساعات هدأت ثورة جنودنا في النهاية ، - - قاومت المدينة وانهزمت فاستمرت مصر تقاوم إلي أن انتصرت ، ولو لم تقاوم المدينة لسقطت إرادة القتال ، واستمرت بعد ذلك المقاومة السرية ، - - - وتم اتهام محمد كريم بقيادة هذه المقاومة وتم إرساله إلي نابليون لمحاكمته ، وأصدر نابليون أمراً بإعدامه وسمح له بأن يفتدي نفسه بدفع غرامة مالية فلم يقبل السيد محمد كريم وقد نصحه المستشرق فانتور كبير تراجمة الحملة الفرنسية بأن يدفع الغرامة وقال له : (إنك رجل غني فماذا يضيرك أن تفتدي نفسك بهذا المبلغ ؟) ، فأجابه السيد محمد كريم : (إذا كان مقدرا علي أن أموت فلا يعصمني من الموت أن أدفع هذا المبلغ وإذا كان مقدرا لي الحياة فعلام أدفعه) ، وظل علي إصراره إلي أن نُفِّذ فيه الحكم رمياً بالرصاص وهكذا يكون الشموخ وهكذا تكون صلابة المجاهدين ، الموت مرفوع الرأس والتسليم بقضاء الله تعالي - - ولم يقتصر بالطبع جهاد الشعب المسلم ضد الحملة الفرنسية علي الإسكندرية ولكن أينما صارت الحملة ظهرت المقاومة
- هذا عن الشعب فماذا عن إبراهيم بك ومراد بك وسط كل هذا ؟

إبراهيم بك ومراد بك من وجهة نظر الأستاذ جمال بدوي

- ننتقل إلي ما كتبه الأستاذ جمال بدوي عنهما ، فقد كتب تحت عنوان كذاب الزفة يصف إبراهيم بك ومراد بك آخر من سيطر من بكوات المماليك علي حكم مصر في العصر العثماني ما ملخصه : (كان هذان المملوكان الغاصبان – إبراهيم بك ومراد بك – يتمتعان بكمية هائلة من السفالة وقلة الحياء فهما أسدان جسوران علي الشعب المصري المسالم المستكين ولا يتورعان عن حرق القرى وتدمير المزروعات وهتك الأعراض وسبي النساء وسفك الدماء وتشريد الناس في الفلوات من أجل حفنة

ريالات ولكنهما كانا أرنبين هزيلين في ساحة الوغى فما إن يبدأ وطيس القتال حتي يطلقا سيقانهما للريح تاركين المصريين العزل كالأيتام علي مائدة اللئام ، فإذا زال الخطر وانقشع العدو عاد المماليك ليستأنفوا مظالمهم وجبروتهم بعد أن يقسموا بأغلظ الأيمان أنهم تابوا وأنابوا ولن يعودوا سيرتهم الأولي والمؤسف أن المصريين كانوا يصدقونهم ، فيسلمون إليهم رقابهم مرة أخري ، كان إبراهيم بك أكثرهما دهاء ومكراً ولذلك لم يورط نفسه في معركة غير محسوبة ، أما مراد بك فكان كما وصفه الجبرتي " يغلب عليه طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة ، ولم يعهد عنه أنه انتصر في حرب باشرها أبداً علي ما فيه من الإدعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور " ولقد دلت جميع الأحداث علي أن هذا الأمير المتسلط كان مغروراً إلي حد البلاهة " همباكاً " إلي درجة العبط " جعجاعاً " في تقدير بطولته وقدرته علي سحق الألوف بضربة واحدة من سيفه – – – ولذلك تشاءم المصريون عندما علموا أنه سوف يتصدي لملاقاة جيش نابليون أثناء زحفه علي القاهرة قادماً من الإسكندرية لأنهم كانوا يعرفون أن قائدهم " كذاب زفة " ولن يصمد طويلاً في المعركة

- وكان مراد بك قد صرح قبل خروجه إلي المعمعة بأن الفرنسيين مثل حبات الفستق لا يصلحون إلا للكسر والأكل)[٧]
- هل يمكن قبل أن نستمر في سرد أحداث الحملة المثيرة ونترك مراد بك ليستمتع بأكل الفستق أن نتوقف قليلاً لنستعرض ما كتبه المؤرخون عن الأسباب الحقيقية للحملة الفرنسية علي مصر ؟

ولكن ما هي الأسباب الحقيقية لهذه الحملة ؟

- لا مانع علي الإطلاق ، لنقرأ كتب التاريخ ونتأمل معاً أهم الأسباب التي أدت إلي شن هذه الحملة علي مصر وهذه الأسباب قد تبدو مختلفة وكثيرة ومن وجهات نظر عديدة
- أعشق تعدد وجهات النظر حول موضوع واحد
- عموماً سوف أذكر لك وجهات النظر وأنا أقف علي الحياد تماماً وأترك لك تأملها بنفسك فمثلاً ذكر الرافعى عن هذه الأسباب ما يلي (الحملة الفرنسية هي دور من أدوار التنازع الذي قام بين فرنسا وإنجلترا علي الفتح والاستعمار ذلك التنازع الذي يرجع عهده إلي القرن السابع عشر واستمر خلال القرن الثامن عشر ثم اتخذ طوراً جديداً بعد الانقلاب العظيم المعروف بالثورة الفرنسية ، إن الثورة الفرنسية قد دكت معالم النظام القديم في فرنسا وكان من نتائجها سقوط الملكية وإعلان الجمهورية سنة ١٧٩٢ م)[٨] وأكد الرافعى أن أوروبا تحالفت ضد فرنسا حتي تمنع هذا الزحف الثوري من الحدوث في باقي الدول الأوروبية
- تمنع هذا الزحف الثوري من الحدوث في باقي الدول إن هذا المعني يذكرني بالكثير

---

[٧] كتاب مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٢٣ ، ٢٤

[٨] كتاب تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعى) ج١ صفحة ٧١

- ولكنها لم تتمكن من الوقوف أمام قائد عسكري بارع من الطراز الأول وهو نابليون بونابرت الذي استطاع هزيمة الدول الأوروبية (لكن انجلترا التي كانت أقوي الحلفاء شكيمة وأشدهم مراساً بقيت بحكم موقعها الجغرافي وسيادتها في البحار بمأمن من ضربات نابليون وانتصاراته ففكر في ميدان حرب يقهر فيه انجلترا فوجد أن مصر هي ذلك الميدان – – – فخُيِّل إليه أن يُشَيِّد علي ضفاف النيل دولة شرقية عظيمة تحقق ما كان يجيش في صدره من الآمال الكبار ويصل منها إلي ضرب إنجلترا عدوة فرنسا اللدود في ذلك الحين)[9]
- إنه رأي منطقي فماذا عن الآراء الأخري ؟
- أما الدكتور علي الصلابي فله رأي آخر فهو يضيف إلي هذه الأسباب سبب آخر مهم وهو أن هذه الحملة هي أحد الضربات الموجهة إلي الأمة الإسلامية بشكل عام حيث كتب ما يلي (انتهز أعداء الإسلام تدهور الدولة العثمانية فاستغلت فرنسا ذلك الضعف وأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت ، كانت تلك الحملة صدي للثورة الفرنسية ومتأثرة بأفكارها الثورية وقد اصطحب نابليون معه مجموعة كبيرة من العلماء الفرنسيين في حملته هذه بلغ عددهم ١٢٢ عالماً)[10]
- يبدو أن الدولة العثمانية قد تركت فراغاً وسيسعي الأقوياء إليه
- بالتأكيد إن هذا هو ناموس الحياة منذ نشأة الحياة .. فطالما أن هناك فراغاً في جهة ما .. فلا تلوم من يملأه
- حتي إذا كان هذا الفراغ هو مكان انتظار سيارتك أمام منزلك ، أعتذر عما قلت ، استمر
- ويؤكد الدكتور الصلابي أن هؤلاء العلماء قد تأثروا بأفكار روسو وفولتير ومنتسكيو أبرز مفكري الثورة الفرنسية والمعروفون بانتمائهم للمحافل الماسونية اليهودية من خلال ما رفعوه من شعارات وأفكار تعادي في مجموعها الدين فهم ضد أي دولة تقوم علي مبادئ دينية (وبالتالي فإنه من السذاجة أن نقبل ما يروجه كتاب التاريخ من أن الهدف الرئيسي لهذه الحملة كان قاصراً علي ضرب المصالح البريطانية في الشرق)[11] ويؤكد أيضاً أن الهدف ليس عسكرياً فقط وأن هناك أسباباً أخري فيقول (ومن هنا كانت أهداف الحملة خليطاً من أهداف اقتصادية وتوسعية وسياسية ودينية أو بالأحرى غزو عسكري وفكري ولهذا اصطحب نابليون معه في حملته هذا الحشد الهائل من العلماء)
- فهل هناك آراء أخري ؟

---

[9] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٧٣

[10] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٨٨

[11] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٨٨

- أما رأي الكاتب الكبير جمال بدوي فكتب ما يلي عن هذا الموضوع : (لم تكن الحملة الفرنسية علي مصر بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ م تحمل الصبغة الصليبية التي كانت للحملات السابقة التي اجتاحت الشرق الإسلامي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بل يمكن وصف حملة نابليون بأنها كانت " لا دينية " إذا قورنت بحملة سلفه لويس التاسع - - لقد جاء نابليون إلي مصر باسم الثورة الفرنسية الكبرى المناهضة للدين والتي ثارت في وجه الكنيسة ورجالها بنفس العنف الذي واجهت به طبقة النبلاء والإقطاع)١٢
- ومن هنا نفهم أن نابليون هاجم الكنيسة فهل من المعقول أن يحترم الإسلام ؟
- ، وهكذا وعلي أي حال بدأت الحملة الفرنسية علي مصر بقيادة نابليون وقد تخللها العديد من الأحداث المثيرة التي أرجو أن نتأملها معاً برؤية عصرية لنتابع الصدام الحضاري بين شعب متخلف بائس وجيش متقدم قوي ونذكر ما حدث بين المماليك والجيش الفرنسي
- بمناسبة الحديث عن الملك لويس التاسع وحملته ، تذكرت ما قاله الشاعر الذي هدد الفرنسيين بعد فشلهم وعودتهم لبلادهم مهزومين وحذرهم من وجود دار بن لقمان علي حالها والقيد باق والطواشي صبيح ، فهل تذكر هذه الأبيات
- بالتأكيد ولكن يبدو أن الذي بقي علي حاله هو جيش المماليك نفسه فهو لم يتطور وظل منتظر عودة الفرنسيين ومعهم أرقي ما وصل إلي العلم من سلاح وعتاد في ذلك الوقت
- نعود لما توقفنا عنده ، وهو سقوط الإسكندرية

التعليق علي سقوط الاسكندرية في يد نابليون

- نعم تم احتلالها ولكنها لم تسقط بسهولة كما ذكرنا فقد كانت الإسكندرية في أسوأ حالاتها من ناحية الدفاعات العسكرية بل من جميع النواحي نتيجة لإهمال القلاع والحصون والمدافع التي بها حتي أن قنصل فرنسا في مصر أرسل قبل ذلك تقريراً عن حالة الإسكندرية العسكرية وذكر فيه (إن مرافئ الإسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر - - أما قلعة المنارة " قلعة قايتباي " في ظاهرها فخمة ولكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية، والمدفعية الباقية لا تصلح للضرب ولا تستعمل إلا في أيام الأعياد)١٣ ومن هذا التقرير يتضح مدي ضعف الإسكندرية قبل وصول نابليون ، (وهكذا شاءت الأقدار أن ينجو نابليون وجنوده من أسطول الأميرال نلسن فاقتربت العمارة " البحرية " من مياه الإسكندرية يوم ٣٠ يونيو ١٧٩٨)١٤
- وبالطبع علم نابليون بأن الإنجليز كانوا في الإسكندرية قبل وصوله

[12] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٢٧

[13] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٦٢

[14] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٦٧

- نعم ، (فخشي عودة الأميرال نلسن ومباغتته بأسطوله في عرض البحر فأمر بالمبادرة إلي إنزال الجنود للبر واختار لمرسي عمارته ونزول جنوده جهة العجمي التي تبعد عن الإسكندرية غرباً نحو اثني عشر كيلومتراً)[١٥] واستمر إنزال القوات طول الليل ثم في الصباح قاموا بمحاصرة المدينة والهجوم عليها بقسوة ولم تستسلم المدينة بسهولة بل كان القتال شرس وعنيف والمقاومة علي أشدها حتي أن نابليون نفسه كاد أن يلقي مصرعه كما ذكرنا ، وقد (كتب الجنرال برتييه في رسالته إلي وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٧٩٨ م يصف احتلال الفرنسيين للإسكندرية فقال : إن الأهالي دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت وقد أصيب في هذه الموقعة الجنرال كليبر بعيار ناري في جبهته فجرح جرحاً بليغاً وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلي السور فنالته رضوض شديدة – – وقتل اللواء ماس وخمسة ضباط آخرون، وقدر نابليون خسائر الجيش الفرنسي في مهاجمة الإسكندرية في رسالته إلي حكومة الديركتوار " الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت " بثلاثين إلي أربعين قتيلاً وثمانين إلي مائة جريح وقدرها بعد ذلك في مذكراته بثلاثمائة بين قتيل وجريح)[١٦]
- أتعجب من كثرة المعلومات التي وردت عن الحملة علي لسان الفرنسيين أنفسهم
- هذا صحيح فقد كان الكثير منهم يكتب مذكرات ويوميات لكل ما يحدث كما لم تنقطع الرسائل بينهم وبين فرنسا كلما أتيحت الفرصة لذلك ، والأعجب أن كليبر نفسه قبل مقتله كان يكتب يومياته وقد تم استخدامها أيضاً في التأريخ للحملة
- ولكن لماذا كانوا يحرصون علي عملية التدوين ؟
- لا أعرف ولكني أعتقد أن حملة كهذه إلي بلاد الشرق الساحر الذي طالما قرأوا عنه الأساطير كانت تمثل لهم مغامرة كبري مثيرة تستحق التسجيل والتدوين والله أعلم
- أتخيل لو كان في تلك الايام أجهزة تليفون محمول مزودة بكاميرات تصوير لكانوا قد عادوا بالعديد من الصور ومقاطع الفيديو ولأمتلا الانترنت بجميع تفاصيل الحملة
- لا أعتقد أنهم كانوا سيصورون ما يرتكبونه من فظائع وجرائم بشعة توضح مدي همجيتهم ووحشيتهم وحضارتهم المادية الزائفة التي تخلو من القيم والمبادئ وتاريخهم الدموي معروف في الجزائر المعروف ببلاد المليون شهيد
- فماذا كتب الجبرتي عن احتلال الإسكندرية فمن المؤكد أن أسلوبه كان ممتعاً في الوصف ؟

رواية الجبرتي عن احتلال الإسكندرية

- وصف الجبرتي وصول الفرنسيين ومراكبهم فقال (فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلي جهة العجمي وطلعوا إلي البر ومعهم آلات الحرب والعساكر فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم

[١٥] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٦٩

[١٦] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٧١

كالجراد المنتشر حول البلد فعندها خرج أهل الثغر - - فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم - - ورجع أهل الثغر إلي التترس في البيوت والحيطان ودخلت الفرنج البلد وانبث فيها الكثير من ذلك العدد كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون فلما أعياهم الحال وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته طلب أهل الثغر الأمان)١٧

- يا له من وصف يدعو إلي التأمل
- وهكذا تم احتلال الإسكندرية وترك نابليون بها الجنرال كليبر الجريح ومعه قوة من الجيش لتأمينها وإخضاع ما حولها من قرى وبلدان ، وزحف نابليون بجيشه في اتجاه القاهرة ليواجه جيش المماليك ويحتل باقي مصر
- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- لقد نشر نابليون أول منشور إلي الشعب المصري
- فماذا كتب فيه ؟

المنشور الفرنسي للشعب المصري

- درس نابليون مصر وأحوالها جيداً قبل حضوره وأحضر معه مطبعة عربية ومترجمين علي أعلي مستوي واستخدم المطبعة وهو لازال في البحر في طريقه إلي مصر وطبع نسخ عديدة من أول منشور لتوزيعه بمجرد الوصول إلي مصر حتي لا يضيع الوقت في الطباعة وحتي لا تحول أعمال القتال دون تنفيذها، وكان هذا المنشور يؤكد أن نابليون قد أتي إلي مصر لقتال المماليك فقط لأنهم يسيئون معاملة التجار الفرنسيين وأعلن أنه لم يأتي لقتال الشعب المصري نفسه وحاول في هذا المنشور أن يستثير القومية المصرية لفصل الشعب المصري عن الأمة الإسلامية كما أثار فيهم الحقد علي المماليك لما يتمتعون به من رفاهية الدنيا ونعيمها وشمل المنشور أيضاً تهديد واضح بحرق أي قرية تقف في طريقه كما تودد في هذا المنشور للسلطان العثماني ويعتبر هذا المنشور أكبر دليل علي أن نابليون كان معتقد بل متأكد من مدي سذاجة وتخلف الشعب المصري
- لقد اشتقت لأعرف ما جاء في هذا المنشور العجيب
- إليك مقتطفات من هذا المنشور لتتأمل ما جاء فيه ولكن أرجو عدم المقاطعة حتي نناقشه معاً:(بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني علي أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته يعرف أهالي مصر جميعاً أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية، يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم - - هذه الزمرة

---

[١٧] كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار (عبد الرحمن الجبرتي) ج٥ صفحة ٢

المماليك يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر علي كل شئ فإنه قد حكم علي انقضاء دولتهم، يا أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالي وأحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا أيضاً لهم : إن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشئ الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ماذا يميزهم عن غيرهم حتي يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالي من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك ، أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبري وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصاري علي محاربة الإسلام – – ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه – – طوبي ثم طوبي لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلي مراتبهم طوبي أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ولكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون علي المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلي الخلاص ولا يبقي منهم أثر – المادة الأولي : جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر، المادة الثانية : كل قرية تقوم علي العسكر الفرنسي تحرق بالنار)[١٨] هذا المنشور به مواد أخري وفي نهايته يطلب نابليون من الشعب المصري أن يشكروا الله لانقضاء دولة المماليك

- لقد لعب نابليون علي الوتر الحساس وذكر عدة حقائق في هذا المنشور ولكنها كلمة حق يراد بها باطل ، ولاحظ أيضاً أن الدولة العثمانية رغم كل شئ كانت لازالت مرهوبة الجانب وكان للسلطان خليفة المسلمين مكانته أيضاً
- وقد علق الأستاذ جمال بدوي علي هذا المنشور فقال : (– – ولم يكن المصريون وحدهم هم الذين فضحوا زيف نابليون ، فالعلماء والقادة وكبار الضباط الذين صحبوه في حملته كانوا يعلمون مدي كذبه

[١٨] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٤ ، ٥ ، ٦

، وكانوا يسخرون منه وهو عاكف علي ظهر الأسطول يدبج صيغة المنشور قبل أن يدفع به إلي المطبعة العسكرية لتطبعه بالعربية والتركية والفرنسية ، وتحفظ السجلات الفرنسية رسالة القائد البحري " جوبير " إلي وزير بحرية فرنسا والتي يقول فيها : " لعلكم أيها الباريسيون تضحكون حين تقرءون هذا المنشور الإسلامي الذي وضعه قائدنا الأعلي ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور " ، بل إن نابليون نفسه ، اعترف في أخريات أيامه ، بأن هذا المنشور كان قطعة من الدجل " ولكنه دجل من أعلي طراز " وعندما كان يجتر ذكرياته وهو سجين في سانت هيلانة ، اعترف لأحد أخصائه بما فعل ، ويبرر سلوكه بأن " علي الإنسان أن يصطنع الدجل في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد إلي النجاح " وتلك طبيعة الطغاة الذين يستخفون بالشعوب ، ولا يدركون الحقيقة إلا بعد أن يزول عنهم السلطان فيموتوا كمدا)[١٩]

- إذا تأملنا هذا المنشور مرة أخري سندرك حقيقة ذكرها نابليون ربما بقصد أو بدون قصد عندما قال عن مصر أنها الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها مثله كما أشار أيضاً في منشوره إلي عظمة التاريخ المصري عندما قال : وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع
- أعتقد أنه محق تماماً في هذا ولكن النوايا تختلف بالطبع
- فماذا فعل بونابرت بعد أن أحتل مصر واستقرت له الأمور ؟

نابليون والاحتفالات الدينية في مصر

- من الثابت تاريخياً أن نابليون اهتم بإحياء الموالد والاحتفالات الدينية ولكن السبب في ذلك يختلف من وجهة نظر كل مؤرخ وطبقاً لرؤيته فمثلاً يقول الرافعي : (كان نابليون يسعى بكل الوسائل إلي كسب قلوب المصريين واستلال الضغينة منها وتخفيف حدة النفرة والكراهية التي كانت تبدو عليهم منذ احتلال الفرنسيين للبلاد ومن الوسائل التي ابتكرها إقامته الحفلات والأفراح لإدخال السرور إلي قلوبهم ولعله كان يدرك ميل المصريين الفطري إلي الابتهاج والانشراح -- – فأراد أن يصل إلي قلوبهم عن طريق التفريج وكان له غرض آخر من إقامة المهرجانات والحفلات ذلك حين أراد أن يحجب عن الشعب أثر النكبة التي حلت بأسطوله في واقعة أبو قير البحرية ويتظاهر بأنه لا يكترث لها ويتودد إلي زعماء الشعب ليكسب ثقتهم في تلك الأوقات العصيبة بعد أن أصبح محصوراً في القارة الأفريقية)[٢٠]
- كان هذا رأي الرافعي فماذا كان رأي الجبرتي شاهد العيان ؟

---

[١٩] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٣٠

[٢٠] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٥٣

- لقد كان له رأي آخر فعندما تكلم عن أحد الموالد قال : (فلما فتح أمر الموالد والجمعيات ورخص الفرنساوية ذلك للناس لما رأوا منه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء وإتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات أعيد هذا المولد مع جملة ما أعيد)[٢١]
- فقد عادت إذن هذه الموالد بقرار فرنسي
- نعم وكان هناك إصرار عجيب من نابليون علي إحياء هذه الموالد ويدعمها بالمال
- كيف ؟
- فمثلاً يقول الجبرتي : (سأل صاري عسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم ؟ فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال فلم يقبل وقال " لابد من ذلك " وأعطي له ثلثمائة ريال فرانسة معاونة وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم - - وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة وعملوا في الليل حراقة نفوط وسواريخ تصعد في الهواء)[٢٢] كما وصف الجبرتي أيضاً ما كان يحدث في مولد الحسين رضي الله عنه فقال : (ويوم الأحد سادسه نادي القبطان الفرنساوي الساكن بالمشهد الحسيني علي أهل تلك الخطة وما جاورها بفتح الحوانيت والأسواق لأجل مولد الحسين وشدد في ذلك وأوعد من أغلق حانوته بتسميره وتغريمه عشرة ريال فرانسة)[٢٣] ويضيف الجبرتي متأسفا (فيصفون أكتافهم في أكتاف بعض - - ويلتوون وينتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة - - فيقع في المسجد دوي عظيم ، هذا مع ما ينضم إلي ذلك من جمع العوام وتحلقهم بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والأضاحيك والتلفت إلي حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج والسعي خلفهم والافتنان بهم ورمي قشور اللعب والمكسرات والمأكولات في المسجد - - فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتحقاً بالأسواق الممتهنة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم)[٢٤]
- وهل نجح نابليون في استمالة المصريين بعد كل هذا ؟
- قال الرافعي : (أراد نابليون إذن أن يجتذب إليه قلوب المصريين ويتودد إليهم ويكسب ثقتهم لأنه كان علي يقين أنه ما لم يفز بثقتهم وميلهم فلا يستطيع أن ينشئ علي ضفاف النيل دولة عربية تخضع لحكمه مهما أوتي من قوة الجند والسلاح لكن نابليون قد خاب في تحقيق هذا الأمل وكان إخفاقه راجعاً إلي أن الأمة المصرية لم تذعن للحكم الفرنسي ولم تطمئن إليه بحال من الأحوال ولم تُخدع في حقيقة الأغراض التي كان يرمي إليها نابليون من الحملة وتلك فضيلة تدل علي مبلغ الحيوية الكامنة في

[٢١] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ١٣٨
[٢٢] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٢٤، ٢٥
[٢٣] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٦٧
[٢٤] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٦٧

الأمة والواقع أن نابليون مع تلك الوعود التي كان يمني بها المصريين في منشوراته وبياناته لم يكن يقصد في الحقيقة إلا فتح مصر وإخضاعها لتكون أداة لتحقيق أطماعه في الشرق والغرب – – ولقد دل تاريخ هذا الفاتح العظيم علي أنه لم يبر بوعده لأمة من الأمم التي فتح بلادها بل كان يهزأ بحرية الأمم ويتخذ من الشعوب سلعة يساوم بها تحقيقاً لأطماعه في الفتح والسلطان – – وقد واجهت الحملة مقاومة عنيدة اعترف بها مؤرخو الحملة من الفرنسيين أنفسهم وفي هذا الصدد يقول المسيو مارتان أحد مهندسي الحملة وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين صحبوا نابليون إلي مصر : بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر فإنهم لم يستقر لهم قرار في البلاد وكان مركزهم فيها مزعزعاً ومحفوفاً بالمتاعب ولم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة)[٢٥] ويمكن القول أن المصري آنذاك كان لا يمكنه الثقة بأي شخص لا يؤمن بالله مهما كانت القوانين البشرية التي يخضع لها ويعمل لها ألف حساب ومهما كانت المبادئ التي يؤمن بها فهو عندما يطبق القانون يطبقه علي بني جنسه فقط في أغلب الأحيان ولن يتورع عن فعل الأفعال القبيحة والبشعة بضحاياه أما الذي يخاف الله فإنه يتقي الله في جميع الظروف ومع جميع البشر ويطبق منهج الله وأوامره حتي علي ألد أعداءه لأن مراقبة المولي عز وجل للعبد دائمة ومؤكدة {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} (١٩) سورة غافر فلا يستطيع الهرب من رقابته عز وجل كما يتهرب غير المؤمن من رقابة البشر وقوانينهم كلما أتيحت له الفرصة

لطمة حضارية علي وجه مصر

- هل من الممكن أن نلقي نظرة علي تأثير الحملة الفرنسية علي الشعب المصري من حيث انبهاره بما شاهده من حضارة مادية قد تكون عرضته لفتنة من نوع خاص ؟
- أنا أفهم تماماً ما تعنيه ، وسوف أحاول أن أوضح لك ما أعرفه عن هذا الموضوع ، والذي أُطلِق عليه (لطمة حضارية علي وجه الشعب المصري)
- بالتأكيد إن الانبهار بالحضارة الغربية قد يزعزع الثقة في النفس لدي البعض ، خاصة إذا كانت الفجوة الحضارية هائلة
- سنستعرض معاً ونتأمل حجم الفجوة الحضارية بين مصر وفرنسا في ذلك الوقت وكيف أن مصر كشعب لم يكن له أي ذنب في ذلك ، وسوف أوضح مدي انبهار المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي بما شاهده من أمور جعلته يعترف ويقول عن بعض ما شاهده أنها أمور لا تسعها عقول أمثالنا ،
- لاحظ أن الجبرتي لم يكن من طبقة العامة والغوغاء ولكنه يعتبر محسوب علي النخبة المثقفة في مصر فإذا حدث له هذا الانبهار وتلك الدهشة فما الذي حدث لباقي البسطاء من الشعب المصري ؟

---

[٢٥] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٥٢ ، ١٥٣

- سأتلو عليك ما كتبه الكاتب الكبير يحيي حقي [26] عن المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي ، في كتابه الممتع صفحات من تاريخ مصر فتحت عنوان ٥ديسمبر سنة ١٧٩٨م ، كتب ما ملخصه : ، -- من حسن الحظ أن كان يعيش في مصر حينئذ رجل ، لا أعرف من أجدادنا أحداً يفوقه في قدرته علي تملك حبي وإعجابي وعلي تثبيت الإعتزاز ببلدي في قلبي ، هذا هو الجبرتي مؤرخ مصر العظيم ، ومن حسن الحظ أيضاً أنه كان يمثل أرقي ما وصلت إليه الحضارة الشرقية - - - - - بل إن المهم أن ذهنه كان متفتحاً لا يشله الغرور أو التعصب ، فنحن بإزاء شهادة رجل مثقف متزن حكيم نشأ في بيت من أرقي بيوت القاهرة في ذلك العهد ، إنني اعتبر يوم ٥ديسمبر سنة ١٧٩٨م من أهم أيام مصر الحديثة ولهذا اتخذته عنواناً لهذه الكلمة ، ففي ذلك اليوم خرج الجبرتي من داره ليتفرج علي ما يفعله الفرنسيون في هدم المباني لشق طرق حديثة في قلب العاصمة ، - - - - فلما رجع لداره كتب لنا ما يلي :- - فعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم في أقرب زمن ، كانوا يصرفون الرجال من بعد الظهيرة ويستعينون في الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول ، المساعدة في العمل وقلة الكلفة ، كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من الخلف يملؤها الفاعل تراباً أو طيناً أو حجارة من مقدمها بسهولة ، بحيث تسع مقدار خمسة غلقان ، ثم يقبض علي خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجري علي عجلتها بأدني مساعدة إلي محل العمل فيميلها بإحدي يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة وكذلك لهم فئوس وقزم محكمة الصنعة متقنة الوضع ، غالب الصناع من جنسهم ولا يقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية علي الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة ، ،
- عربة يد ذات عجلة أمامية واحدة تبهر الجبرتي
- نعم بالفعل فقد علق الكاتب الكبير يحيي حقي علي ما كتبه الجبرتي فقال : هكذا كانت تعيش مصر في عالمها المقفل إلي حد أن عربة نقل صغيرة بعجلة أمامية واحدة بدت للجبرتي كأنها معجزة شيطانية ، ينبغي ألا نقتصر علي الابتسام بمحبة لسذاجة الجبرتي ، بل نتأمل قوله بإمعان ، ففي وصفه دلالة بينة علي الفروق العميقة بين عقلية الشرقي وعقلية الغربي ، فلو كان محله رجل أوروبي وشاهد مثلاً علي تفوق الإنتاج لما انشغل حتي ذلك الوقت إلا بحساب الفرق بين أجر العمل اليدوي والعمل الآلي ، وقاس هذا الفرق بمقياس الفائدة المئوية لقرض يستدينه لشراء الآلة الحديثة ولا يعكر مزاجه في التفكير في مصير العامل الذي ستوفره الآلة ، هذه هي العقلية التي قامت عليها عظمة النظام الرأسمالي ، وأما الجبرتي فإن أورد لفظ الكلفة في كلامه ، فمن الواضح أنه لم يكن معنياً إلا بأثر الآلة في التخفيف من سخرة الإنسان في العمل الجسماني

---

[26] نقلا عن كتاب صفحات من تاريخ مصر -طبعة يناير ٢٠٠٨ - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- من صفحة ٣٥ وما بعدها وتحت عنوان ٥ديسمبر سنة ١٧٩٨م

- إنها الرحمة التي تعتبر الفرق بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية في العديد من الأمور
- يضيف الكاتب فيقول : - - - لم يكتف الجبرتي بالفرجة علي شق الطرق يوم ٥ديسمبرسنة ١٧٩٨ فهو قد ذهب أيضاً في اليوم ذاته –ياله من يوم عظيم- إلي المجمع العلمي الفرنسي - - - ثم عاد لداره ووصف لنا ما شاهده بدهشة طفل ساذج كما سنري ، فهل أنا مبالغ إذا قلت إن الصدمة العقلية العنيفة بين الشرق والغرب حدثت يوم ٥ديسمبر١٧٩٨ ، استيقظت مصر وأدركت أن هناك علماً حديثاً غير علمها القديم وأن هذا العلم الحديث - - هو سر غلبة الغرب علي الشرق ، مصر في ذلك اليوم هي الجبرتي
- مصر في ذلك اليوم هي الجبرتي ، يا له من تعبير رائع من أديب مبدع ، فهل لديك ما حدث للجبرتي في المجمع العلمي ؟ لأنني أعتقد أن زيارة الجبرتي لهذا المجمع جاءت إطار حرصه علي كتابة تاريخ مصر كشاهد عيان فرأي أن هذا يتطلب زيارته لكل الأماكن المسموح له بزيارتها حتى يسجل كل ما يراه ويسمعه من باب الأمانة العلمية والله أعلم
- بالفعل قام الجبرتي بزيارة المجمع العلمي الفرنسي وتم استقباله بحفاوة بالغة وترحاب لأن علماء فرنسا كانوا يرحبون بزيارة أي مصري يريد أن يتعرف علي المجمع العلمي
- حتي يصاب بذُل الجهل وخضوع التخلف للتقدم علي ما يبدو فالإبهار العلمي من أقوي وسائل إخضاع الشعوب وتحطيم أي أمل لهم في المقاومة فعندما تشاهد بعينيك أموراً علمية تفوق إمكانياتك العقلية بكثير فبالتأكيد سوف ترهب فاعليها،
- أو قد يكون السبب في الترحيب مختلف لأن العلماء يهتمون بالعلم أكثر من أي شئ آخر ولا يوظفونه سياسياً أو عسكرياً ، أما الجبرتي فعندما وصف ما رآه في هذا المجمع وكتبه في كتابه الشهير كان في حالة من التعجب لا مثيل لها وسوف أتلو عليك مقتطفات قصيرة مما كتبه الجبرتي عن هذا المجمع لتحكم بنفسك علي قوة اللطمة الحضارية التي تعرضت لها مصر علي وجهها المتخلف في ذلك الوقت ، يقول الجبرتي : (وإذا حضر إليهم بعض "المسلمين" ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلي أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم مما يحير الأفكار)[٢٧] ، (ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئاً في كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخري فعلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتي انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر فقلبه علي البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا

[٢٧] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٥٧

ونظرناه ثم فعل كذلك بمياه أخري فجمد حجر أزرق وبأخري فجمد حجر أحمر ياقوتياً وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه علي السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه فضحكوا منا ، وغير ذلك من أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع

- (براهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع) ، يا له من تحليل ينم عن وعي ورقي في الفكر
- يضيف الجبرتي : – – – ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدني شئ كثيف ويظهر له صوت وطقطقة وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخري ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة، ولهم فيها أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا)٢٨
- لا أجد ما أقول بعد كلام الجبرتي إلا رحم الله علماء الإسلام في فترة ازدهار الحضارة الإسلامية رحم الله جابر بن حيان أستاذ الكيمياء الأول في الوقت الذي لم يعرف فيه العالم شيئاً عن الكيمياء ، ورحم الله ابن خلدون أستاذ علم الاجتماع ورحم الله الخوارزمي أبو علم الجبر وغيرهم من علماء بغداد والقاهرة في نهاية القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث الهجري ولا حول ولا قوة إلا بالله
- هذا صحيح فمبادئ وأسس معظم العلوم الحديثة قد وضعها علماء مسلمون
- هل قام علماء الحملة بحصر تعداد سكان مصر في تلك الفترة ؟

تعداد سكان مصر طبقاً لتقدير علماء الحملة الفرنسية ٢٩

- يقول العالم الفرنسي ج دي شابرول : (كان تقدير عدد سكان مصر علي الدوام عرضة لأخطاء خطيرة ، وقد وقع أغلب المؤرخين المحدثين والقدامي في مبالغات كبيرة يمكن لأي توصيف بسيط للأماكن أن يدحضها وإلي جانب الخدمات التي قدمتها الحملة الفرنسية للعلوم والفنون والآثار في مصر ، فإنها قد حثت كذلك علي استخدام الإحصاء في الأبحاث والدراسات التي تتخذ موضوعا لها أحد الأمور الهامة ، وهكذا أمكن التوصل ليس فقط إلي تحديد مساحة الأراضي المنزرعة والقابلة للزراعة بطريقة أقرب إلي الموضوعية ، بل وكذلك عدد القري والكفور التي تغطي وادي النيل كما أمكن بالمثل تقدير تعداد السكان في مصر ، وكذا تعداد سكان مدنها الهامة ،وبخلاف ما جمعته أثناء وجودي في مصر من معلومات فقد استعرت هنا بعض التفاصيل من الدراسة التي كتبها جومار Jomard عن تعداد السكان في مصر

---

[٢٨] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٦٠

[٢٩] من كتاب موسوعة وصف مصر – المصريون المحدثون – الجزء الأول –الطبعة الثالثة – ١٩٩٢ تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب – الكتاب الأول – دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثون – تأليف ج دي شابرول الفصل الأول – لمحة عامة عن الطقس والسكان وعن تقاليد وعادات المصريين – 2عن السكان وطبقاتهم المختلفة ، باختصار من صفحة ٢٢ إلي صفحة ٢٤------:

الحديثة مقارناً بتعداد السكان في مصر القديمة ،وحيث أن جومار قد أقام حساباته علي معطيات أكثر دقة عن تلك التي جمعت حتي الآن ، وحيث أنه أبان عدد الموتي وخصوبة السيدات ومقدار الضرائب واستهلاك الحبوب بالإضافة إلي أمور أخري هامة ذات طابع اقتصادي وسياسي فإنه قد توصل بذلك إلي نتائج نعتبرها قريبة من الحقيقة ، - - -وسوف أكتفي هنا بإيراد فقرة من ملخصه تضم نتيجتين متقاربتين وصل إليهما عن طريقين مختلفين: إن تحديد المساحة الحقيقية للأرض المزروعة ثم حصر عدد السكان في جزء محدد من مساحة البلاد يؤدي ، بعد تعميم هذه النسبة وإضافة الناتج الإجمالي إلي عدد سكان القاهرة ، إلي نتيجة شبه مؤكدة وهي أن تعداد سكان مصر يبلغ ٢٤٤٢٢٠٠ نسمة ،أما الطريقة الثانية فقد بنيت أن عدد قري مصر يبلغ ٣٦٠٠ قرية وأن متوسط سكانها هو ٥٣٤ شخصا لكل قرية ، أي أن تعداد سكان القري يبلغ ٢١٠٢٤٠٠ نسمة ، وبإضافة سكان المدن إلي ذلك الرقم فإن تعداد مصر يبلغ ٢٤٦٧١٠٠وحسب ما سبق فقد تحدد تعداد سكان مصر بحوالي ٢.٥ مليون من السكان ولا يدخل ضمن ذلك مطلقاً عدد العربان الذين يعمرون الصحراوات والذين لا يمكن إخضاعهم لتعداد دقيق ، لكن مسيو جوبير Jaubert من جهة أخري يقدر عدد الفرسان العربان حسب الإحصاء الذي قام به بـ ٢٧٠٠٠ فارس ، فإذا ما أضفنا إليهم نفس العدد لأشخاص راجلين وعدداً يتناسب مع ذلك من السيدات والأطفال فإن مجموع تعداد أبناء قبائل العربان سوف يرتفع إلي ١٣٠٠٠٠ نفس ، - -كانت القاهرة في عام ١٧٩٨ تضم ما بين ٢٥٠–٢٦٠ ألفاً من الأشخاص بما في ذلكالمماليك والتجار الأجانب ، وقد قدر تعدادها بحسب إحصاء تم قبل مجئ الحملة الفرنسية بـ ٣٠٠٠٠ نسمة)

- **إن أكثر ما لفت نظري في ما قلت ليس الأعداد والأرقام ولكن قول هذا العالم : ،(وحيث أن جومار قد أقام حساباته علي معطيات أكثر دقة عن تلك التي جمعت حتي الآن) ، مما يدل علي اعترافه بوجود حسابات أكثر دقة من حساباته ، ففضل كتابة نتائج تختلف عن حساباته ، وهي تعتبر أمانة علمية**
- **بلا شك أن هناك من العلماء من ينسب لنفسه حسابات ودراسات وأبحاث لم يقم بها ، بل قام بنقلها بالكامل بنتائجها دون الإشارة إلي صاحب الفضل الحقيقي فيها ، وأخشي أن يتحول البحث العلمي في مصر حالياً لمجرد نقل أبحاث علماء الخارج بنتائجها للحصول علي درجات علمية غير مستحقة**
- **هل تخشي أم أن ذلك قد حدث بالفعل ؟**
- **الله أعلم ، إذا كان هذا قد أصبح ظاهرة عامة أم لا ، ولكنني سمعت عن حدوث بعضه أحياناً وليست لدي مصادر موثوقة بحدوثه فلا أستطيع الجزم بحدوث ذلك**
- **بمناسبة الدراسات والأبحاث العلمية ، هل أطمع في الإلمام ببعض ما كتبه علماء الحملة عن مصر وشعبها وآثارها وما إلي ذلك مما درسوه في مصر ؟**

- بالتأكيد يمكن أن سنستعرض ونتأمل معاً بعض ما كتبه علماء الحملة الفرنسية في كتابهم الموسوعي الضخم (وصف مصر) لنعرف حجم المجهود في هذا الكتاب ومدي تعمق هؤلاء العلماء في تفاصيل الشئون المصرية في كافة المجالات ، فبالرغم من أن نابليون قد أحضرهم في الأساس لحل مشاكل الحملة ، ولكنهم كتبوه بدافع حب العلم لدراسة كل شئ في مصر وتسجيله ، وقد تمت ترجمة هذا الكتاب إلي اللغة العربية بواسطة الأستاذ زهير الشايب ثم استكملت العمل فيه ابنته مني زهير الشايب
- سأكون سعيد جداً إن قرأت لي بعض ما ورد في هذا الكتاب الشهير

مقتطفات من كتاب وصف مصر

- إليك أولاً بعض ما ورد في مقدمة هذا الكتاب ثم بعد ذلك سنقرأ بعض فقرات قليلة من الكتاب دون ترتيب معين لنتأملها معاً
- كلي آذان صاغية ، ولكن اسمح لي أثناء القراءة بترديد أي عبارة تعجبني فهو أمر لا إرادي ، كما يمكنني التعليق أو الاستفسار ، ومن المؤكد أنك ستفهم الفرق بين الترديد والتعليق والاستفسار
- علي أي حال ، كتبت الاستاذة مني زهير الشايب في مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب وصف مصر في أكتوبر ١٩٩٢ ما ملخصه : لقد مضي علي صدور هذا الكتاب في طبعته الأولي من الترجمة العربية أكثر من خمسة عشر عاماً ، لاقي خلالها –ولا يزال– الاهتمام المتزايد من القارئين والمتخصصين ، ولعل السبب وراء هذا الاهتمام يتضح لنا مما ذكره فورييه في مقدمة الطبعة الفرنسية حيث يقول : (لم يسبق لأي بلد آخر أن خضع لأبحاث بمثل هذا الشمول وهذا التنوع ، وفضلاً عن ذلك فليست هناك بلاد أخري جديرة بأن تكون موضوعاً لأبحاث كهذه ، فمعرفة مصر أمر يهم في الحقيقة كل الأمم المتحضرة) ، وإذا كان لعلماء الحملة الفضل والتقدير لتأليف هذا الصرح الفريد ، فقد أتاح المترجم الفرصة لأناس كثيرين –لا سيما المصريين– كي يعرفوا قدر هذا الوطن العظيم ، الشامخ علي مر العصور ، انتهي كلام أو بعض كلام الأستاذة مني زهير الشايب
- أكثر ما لفت نظري في كلامه عبارة (فليست هناك بلاد أخري جديرة بأن تكون موضوعاً لأبحاث كهذه)
- أما ما كتبه الأستاذ زهير الشايب نفسه في مقدمة كتابه في فبراير ١٩٧٦ فقد اخترت لك منه ما يتعلق بما ذكره علماء الحملة عن الدين الإسلامي من وجهة نظرهم وكيف عالج المترجم هذا الأمر حيث كتب ما يلي : ولقد آثرت هنا أن أقدم ترجمة كاملة أمينة نصاً وروحاً لكل ما ذكره المؤلف خاصاً بنا وبمعتقداتنا ، وسوف يلاحظ القارئ أنني قد آثرت عدم التدخل إلا في أضيق نطاق ممكن لاعتبارات لا بأس من طرح بعضها : ١ – أننا هنا بصدد أثر علمي هام ينبغي أن يحظي بالاحترام ، ٢ – أنه ليس كل ما يقال عنا صحيحاً علي إطلاقه ، وإن كان ينبغي علينا في كل الأحوال ألا نخشي أية فكرة صحيحة ، ٣ – أنه قد آن الأوان لنواجه بشجاعة ما يقال عنا ، فتجاهل ذلك أو الصمت عنه ليس هو الوسيلة المثلي ، فذلك الموقف لن يعني إلا تسليمنا ولو بشكل سلبي بصحته ، ومعرفة ما يقال عنا

هي أفضل وسيلة لمواجهته بل ودحضه ، ٤ – أن الأقوياء لا يخافون معرفة ما يقال بشأنهم ، ولا أظن أحدا يجادل في قوة عقيدتنا ، وأنني فيما فعلت إنما كنت أصدر عن تقديس كبير للإسلام ولنبيه الكريم صلي الله عليه وسلم ، كما أنني واثق أنني فيما التزمت به من أمانة في النقل كنت أقرب ما يكون إلي روح الإسلام ، الذي ينهض أول ما ينهض علي الإقناع العقلي ، والذي كانت أول آية في كتابه الكريم تدعو إلي القراءة والفهم والذي لا يستوي –بنص آياته– الذين يعلمون والذين لا يعلمون ،

- من كلام الأستاذ زهير الشايب يتضح مدي هجوم علماء الحملة علي الإسلام وإلا لما كتب كل هذه التبريرات في مقدمة كتابه
- وأضاف الأستاذ زهير الشايب في نهاية مقدمته ما يلي : وبرغم كل شئ فإن واجب الأمانة يقتضي بأن أعترف بما يأتي : ١ – أنني قد حذفت من الجزء الخاص بالأقباط نصف جملة وجدت أن اللياقة تقتضي حذفها ، ٢ – أنني حذفت هامشاَ كاملاَ أثار –عند نشره بمجلة الثقافة– ردود فعل لم أكن أتوقعها ، ولا يتجاوز هذا الهامش أربعة سطور ، ٣ – أنني حذفت آخر عبارة في الكتاب (حوالي سطر ونصف) إذ وجدت من الأفضل ألا تترك هذه الجملة طعماً مريراً في حلق القارئ ، بعد صحبة ممتعة مع مؤلف حاول جهده أن ينصفنا طيلة مؤلفه
- تعتقد ما هي العبارة الأخيرة في الكتاب الذي قام بحذفها ؟
- من المؤكد أنها تسئ بشكل عام للشعب المصري ، ولا سبيل لمعرفة هذه العبارة إلا إذا عدنا للنسخة الأصلية من الكتاب باللغة الفرنسية
- علي أي حال لقد عرفنا من خلال أحداث الحملة وما فعلوه بمصر والمصريين وجهة نظرهم الحقيقية عن الشعب المصري أو دعنا نقول الشعوب المسلمة بشكل عام ، وما كتبوه عن مذبحة يافا فيه الكفاية ، فما هي أول فقرة ستختارها لنستعرضها معاً
- ورد في كتاب وصف مصر وصف للصناعة المصرية كالآتي : (وقبل الدخول في تفاصيل فنون الصناعة ، ينبغي أن أنوه بالمقدرة المتميزة للغاية لدي الصناع المصريين ، فهم يملكون علي وجه الخصوص تلك الموهبة التي تثير إعجابنا لدي الصينيين ، موهبة المحاكاة المتقنة لأعمال الآخرين إلي درجة ينتج عنها في بعض الأحيان عدم القدرة علي التمييز بين التقليد والأصل ، ومن ناحية أخري فنحن نعرف أيضاً أن المصريين يعتادون العمل وهم جالسون ، وهم في نفس الوقت يعملون بخفة في صناعات مما لا يستطيع صناعنا أن يقوموا به في أوضاع مماثلة)[٣٠]

[٣٠] صفحة ٢٤٩ موسوعة وصف مصر – الجزء العاشر– تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة وتحقيق زهير الشايب ومني زهير الشايب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

- هذه شهادة من علماء الحملة الفرنسية تؤكد أن المصريين كانوا علي أتم الاستعداد للتقدم في مجال الصناعة إذا اتيحت لهم الفرصة لذلك ولكن لم تكن هناك قيادة واعية توجههم ، أو قل لا توجد إرادة سياسية لتحقيق ذلك ، فماذا ورد أيضاً بكتاب وصف مصر بدون ترتيب ؟
- لقد وردت فقرة عن اندهاش علماء الحملة الفرنسية من التسامح بين الأديان في مصر علي عكس ما كانوا يعتقدون – كما ما يلي : (----- وسنعجب لأن العامة الجاهلة الموسومة بالتعصب لا تلعن اليهود ، أو المسيحيين من الكاثوليك والأقباط والأرمن والسوريين والروم .. إلخ ، لأنها ألفت مشاهدتهم في جميع الأيام منتشرين بأعداد كبيرة ، يتاجرون بحرية في الشوارع والأسواق والأماكن العامة ، وتنتشر الأحياء التي يسكنها الأقباط والإفرنج والروم واليهود في كل أجزاء المدينة ، دون أن تحميها أية أسوار خاصة ، وكل طائفة لها كنائسها التي تمارس فيها شعائرها في سلام ، ودون أي نوع من المضايقات ، وهذه أيضاً مسألة لدينا عنها في أوروبا تصورات قل أن تطابق الواقع – – وتقع حارة النصارى – أحد أحياء الأقباط – جنوب ميدان الأزبكية أما أكبر أحيائهم التي تحمل هذا الاسم فيقع شمال هذا الميدان نفسه – – وللمسيحيين الروم كنيستهم قرب الحمزاوى في الغرب ، ولهم أيضاً حي يسمي حارة الروم إلي الشرق من السكرية – – والحي اليهودي – حارة اليهود – شديد الاتساع والازدحام – ومن اللافت للنظر بدرجة كبيرة أن يوجد مسجد في قلب هذا التجمع اليهودي الكثيف ويوجد بالحي اليهودي عشرة معابد –)[٣١]
- وهل كانوا يعتقدون أن كل أهل دين من الأديان يتحميهم أسوار خاصة ؟ ، يبدو أنهم لا يعرفون شيئاً عن الإسلام وعلاقته بباقي الأديان السماوية ، ولكن هل هناك وصف للتجارة في ذلك الوقت ؟
- بالطبع فقد ورد بالجزء الأول من موسوعة وصف مصر – صفحة ٢٥٦ ، ٢٥٧ ما ملخصه كالآتي : (– – وتشتمل تجارة التصدير المصرية أساساً علي : الأرز والبن وجلود الماعز والأقمشة والقطن والسكر والقمح والعقاقير الطبية والخضروات الجافة ، وكانت الحنة مرغوبة بكثرة في كل البلاد ، وكان جزء من مالية مصر يذهب إلي تركيا لتسديد الجزية التي يدفعها الباشا للسلطان ، مع ما يرسل من هدايا كان يقدمها للوزراء والمقربين من السلطان ، حتي يثبت في مكانه ، – – – وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا لصالح مصر بشكل كبير
- أرجو أن تتأمل معي هذه الجملة (وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا لصالح مصر) سبحان مغير الأحوال
- إذ لم تكن مصر تدفع أموالاً علي الإطلاق ، وكان المقابل دائماً يتم في صورة بضائع ، بينما كانت أوروبا مضطرة في معظم الأحيان إلي دفع الأموال ، وكانت فرنسا ترسل الأصواف وصبغة النيلة

[٣١] موسوعة وصف مصر – مقتطفات مختارة من الجزء العاشر – تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة وتحقيق زهير الشايب ومني زهير الشايب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

والأسلحة ومختلف المواد اللازمة لصناعة الحدايد والنحاس ، أما البندقية فكانت تصدر لمصر العملات الذهبية الإيطالية والخرز والمرايا ، أما ألمانيا فكانت ترسل البورسلين والأواني الزجاجية والمواد اللازمة لصناعة الحدايد والنحاس ، – – أما تجارة الهند ومكة – علي العكس من ذلك – مكلفة لمصر – – ولكي نعطي للقارئ فكرة موضوعية عن تجارة مصر ، نضع تحت يده جداول مختلفة ، نوضح فيها بالتفصيل كل مواد الاستيراد والتصدير التي تغذي هذه التجارة ، وتعود هذه الأرقام إلي عام ١٧٧٥م ، – – – – وقد أورد علماء الحملة الفرنسية هذه الجداول من صفحة ٢٥٨ إلي صفحة ٢٦٣ بالجزء الأول من الموسوعة –)[٣٢]

- **لا داعي لقراءة كل هذه الجداول ولكن يكفي أهم ما جاء فيها**
- **أهم ما جاء في هذه الجداول هو أن فرنسا كانت تستورد القمح المصري ، فقد ورد في الجزء الرابع الذي يصف الزراعة والصناعات والحرف والتجارة في مصر ، بيان ما تقوم مصر بتصديره واستيراده من أصناف وأنواع التجارة المختلفة ، ومما يلفت النظر ما جاء تحت عنوان (تجارة مصر مع فرنسا) فقد كتب علماء الحملة الفرنسية ما يلي : الواردات : كان يصدر من فرنسا إلي القاهرة سلع مختلفة تنتجها المصانع الوطنية بالإضافة إلي بضائع متنوعة ، قادمة من بلاد أجنبية ، وخزنت في مرسيليا ، وكانت أهم البضائع الفرنسية تشتمل علي أجواخ لانجدوق المعروفة باسم لندران درجة أولي وثانية ، وكذلك علي أجواخ من سيدان ومن لوفييه وآب فيل ، ومنسوجات من ليون محلاة بجالونات ذهبية وفضية ، – – – – ثم يستمر المؤلف الفرنسي في وصف المنتجات التي تقوم مصر باستيرادها من فرنسا إلي أن يصل إلي بند الصادرات المصرية إلي فرنسا فيقول : الصادرات : تصدر مصر إلي فرنسا : الأرز والقمح والزعفران وملح النشادر والنطرون والصودا والقطن المغزول والأقمشة القطنية والكتانية من مختلف الأصناف والسنامكي وجلود الجاموس والأبقار والجمال ، وبخلاف هذه السلع المنتجة أو المصنوعة في مصر كانت الأخيرة تصدر إلي فرنسا أيضاً السلع الآتية والتي كانت تعد مستودعاً لها ، وهي تشتمل علي السلع القادمة من أواسط أفريقيا ، عن طريق دارفور وسنار : الصمغ ، التمر هندي ، العاج ، ريش النعام ، وكمية ضئيلة من تراب الذهب (التبر) – – وكان الأرز يصدر في العادة عن طريق دمياط – – –أما القمح الذي يصدر إلي فرنسا فكان يخزن أولاً في رشيد ، ومن هناك يرسل في مراكب إلي أبي قير والإسكندرية ، ومنها يبحر القمح في السفن التي تشكل قافلة المشرق – – – وكانت السفن اليونانية علي وجه الخصوص ، ومن مختلف جزر الأرخبيل ، هي التي تستخدم في نقل القمح من فرنسا حين عانت إيطاليا من نقص الغلال – – في منتصف القرن الماضي ، وتقدر الكمية التي صدرت من القمح خلال سنوات القحط الثلاث ، والتي أصابت هذه المناطق ، بنحو ثمانين ألف**

---

[٣٢] نقلاً باختصار عن الجزء الأول من كتاب موسوعة وصف مصر – تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب

أردب ، وفرض مراد بك ، وهو الذي كان يحصل علي عائد جمرك رشيد ، رسم خروج قدره ١٨٠ مديني عن كل أردب من القمح[٣٣]

- **أعتقد أن مصر لم تعاني طوال تاريخها من الحاجة للقمح إلا في العصر الحديث ، وسبحان الله**
- **ومن أهم ما ورد من فقرات في هذا الكتاب الضخم وصف علماء الحملة الفرنسية للشعب المصري في ذلك الوقت وقد ذكرته لك في بداية حوارنا**
- **فماذا عن وصفهم للمماليك ، أم أن كل كلامهم كان عن الشعب المصري فقط ؟**
- **لقد قام علماء الحملة الفرنسية بتوضيح أسباب عدم تكاثر المماليك في مصر وإليك بعض ما ورد في كتاب وصف مصر عن هذا الموضوع : - - - - يمكن للزوجة المصرية أن تصبح أماً فيي سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك في العادة في سن الرابعة عشرة . وتظل في سنواتها المقبلة تقدم الأدلة علي خصوبتها المذهلة - - ولكننا نستطيع القول – لكي نقدم نسبة دقيقة – بأن كل مصرية تتزوج تنجب طفلاً كل ثلاثة أعوام ، ويقيم ذلك نوعاً من التعويض بالنسبة للسيدات اللاتي يمرضن ، أو اللاتي يتميزن بخصوبة قليلة ، ، والعقم التام شديد الندرة في هذه البلاد ، - - - -وتتم الولادة عن طريق القابلات وهي علي الدوام حوادث سعيدة ، وعندما لا تستطيع امرأة – بعد أن تكون استنفذت كل الوسائل – أن تتمتع بسعادتها في أن تكون أماً ، أو أن تحتفظ بالأبناء الذين أتت بهم إلي هذا العالم ، فإن التبني يعوضها عن ذلك الحرمان - - - ويقوم الموت بحصد أطفال العائلات الأجنبية علي وجه الخصوص ، فالمماليك واليونانيون والعثمانيون والأوروبيون وكافة أبناء الأجناس التي لا تنتمي لهذا الوطن يموتون في العادة دون ذرية تخلفهم ، وذلك إذا ما تناسلوا فيما بينهم ، أما عندما يتزوجون من سيدات هذا البلد فإن بمقدورهم أن يتمتعوا بمباهج الأبوة ، دون أن يستطيعوا مع ذلك أن يتطلعوا إلي أن ينالوا نعمة أن يتركوا بعدهم ذرية كبيرة العدد ، ، - - - وهكذا يمكن القول بأن هذا الشعب يدين بوجوده لخصوبة نسائه ، بينما يصعب علي الأجناس الأخري أن تستمر علي قيد الحياة في هذه البلاد ، ، وسوف نقدم الدليل علي ذلك في الجدول الآتي عن حالة أهم الأسر المملوكية : اسماعيل بك : لم يترك إلا بنتاً واحدة ، إبراهيم بك : له طفلان علي قيد الحياة ، قاضي أغا : أنجب أحد عشر طفلاً ، بقي منهم أربعة علي قيد الحياة ، مراد بك ، أيوب بك الصغير وأيوب بك الكبير ، الألفي بك ، محمد بك المنفوخ ، عثمان بك تباس ، عثمان بك الشرقاوي ، عثمان بك الأشقر ، عبد الرحمن بك ، عثمان بك البرديسي ، عثمان بك الطمبورجي ، حسن بك الجداوي ، صالح بك ، إبراهيم بك الوالي ، محمد بك العبدولي ، كل هؤلاء بلا أطفال ، ، محروق بك بن إبراهيم بك : له طفلة واحدة علي قيد الحياة ، علي بك الكخيا : له طفلة واحدة علي قيد الحياة وكذلك سليمان بك ، أحمد بك الكرارجي : لم ينجب أطفال**

---

[٣٣] نقلاً عن كتاب (موسوعة وصف مصر – جزء الزراعة والصناعة والتجارة) تأليف ب س جيرار من علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب – الجزء الرابع – مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ – مقتطفات من صفحة ٣٠٤ إلي صفحة ٣١٠

علي الإطلاق ، ونفس الشئ بالنسبة لعثمان بك حسن ، وكذلك سليم بك أبو دياب ، وقاسم بك ، حسن كاشف الشركسي لم يخلف سوي طفل أعمي ، محمد أغا : أنجب اثنين وعشرين طفلاً لم يبق منهم علي قيد الحياة سوي طفل واحد ضعيف البنية

- يا لها من إحصائية عجيبة بالفعل
- ومن هذه الإحصائية نري كيف كان عدد أطفال المماليك الذين يبقون علي قيد الحياة ضئيلاً ، ويمكننا من جهة أخري أن نعد أسراً أجنبية أخري كثيرة لم تكن بأسعد حظاً من ذلك ، وهذا دليل علي أن الوطنيين وحدهم في مصر هم الذين لديهم فرصة البقاء عن طريق التناسل ، ويبدو أن طبيعة المناخ تلفظ بعناد بذور الأجناس الغريبة
- ربما يفسر ذلك قيام المماليك بشراء المزيد من المماليك بصفة مستمرة من أسواق الرقيق في ذلك الوقت ، وماذا ورد أيضاً في هذا الكتاب من موضوعات ؟
- لقد وردت فقرة عن إعجاب علماء الحملة الفرنسية باحترام الشيخوخة في مصر ، فقد ورد في الجزء الأول من كتاب وصف مصر عن هذا الموضوع ما ملخصه : قد لا يكون من المناسب أن نبحث عن ممارسة الفضائل الطبيعية عند الشعوب المتحضرة ، حيث تتوافق الأنانية والمصالح – وهما أبناء الحضارة الشرعيين –مع أضواء المعرفة ، إذا صح القول ، ذلك أن أفق المعارف عند الشعوب كلما اتسع كلما ابتعدت هذه الشعوب عن حياة الطبيعة ، ولا ينبغي أن نمضي بهذه الفكرة بحد أبعد من ذلك ، ومع أننا لا ننتوي هنا أن نعقد مقارنة متعسفة ، فإنه ينبغي علينا القول بأن الشرقيين وإن كانوا قد أهملوا تعلم العلوم والآداب ، فقد استطاعوا علي الأقل أن يحتفظوا ببعض آثار من العادات والفضائل البدائية ، وإلا ، فهل ثمة عند أمم الشرق ما يستوجب المديح أكثر من ذلك الاحترام العميق الذي يكنونه نحو الشيخوخة ؟ ، ويتميز المصري علي وجه الخصوص بهذا الشعور النبيل ، – – –– – – وفي مقابل ذلك ، فإن المفكر يستطيع أن ينعي علي الشعوب الأوروبية – التي تطورت صناعاتها ومعارفها لحد مذهل – هذه اللامبالاة الشديدة نحو الشيخوخة – – – ونستعير هنا ، حول هذا الموضوع ، بعض الافكار التي وردت علي لسان مؤلف كتاب رسائل عن مصر Lettres sur L'Egypte الذي انتقدنا بمرارة وأحياناً تحامل صارم ، وترسم أقواله بدقة ذلك الفرق الكائن بين أفكار وعادات شعوب الشرق ، وبين مثيلاتها عند شعوب الغرب ، بخصوص الشيخوخة : إن الشيخوخة عند كل الشعوب المتحضرة ، حيث يعيش الإنسان وسط عائلته فترة أقل ، لا تلقي من الاحترام نفس ما تلقاه في مصر ، بل إنها تكاد تكون في معظم الأحيان نقيصة ، حيث ينبغي علي ذي الشعيرات البيضاء أن يصمت أمام غرور الشباب ومباهاته ، وأن يلعب دور طفل حتي يمكن تحمله في داخل نطاق العائلة ، فما أن يحس الإنسان عندنا بأن سنوات العمر قد بدأت تثقل كاهله ، حتي يري نفسه وقد أصبح عبئاً ثقيلاً علي أولئك الذين يدينون بوجودهم له ، يري نفسه وقد أنكر عليه حق الرعاية وأغلقت دونه

القلوب ، وترتجف من برودة الوحدة روحه ، أما المشاهد التي كنت أراها هنا في مصر قد اضطرتني أن أقدم لكم النقيض المقابل ، فهنا في مصر ، يبتسم العجوز وهو يلقي الاحترام ، يبتسم برغم وطأة وضعف هذه الشيخوخة – لأحفاده وهم يأتون لمداعبته ، وينشرح صدره وهو يري أربعة أجيال تهرع نحوه لتقدم إليه ما تفرضه عليها الشفقة الحنون ، فيتذوق بذلك بهجة الحياة حتي آخر لحظة من لحظات عمره ، وفي واقع الأمر فإن الأوروبيين لا يمكنهم أن يرضوا عن أنفسهم بثقة وإعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذي يبلغ مرتبة التقديس ، – – –فهؤلاء الناس الذين نطلق عليهم ذلك النعت المقزز المرعب : المتوحشون البرابرة ، يقدمون لنا في هذا الخصوص مثالاً يجدر بالاحتذاء ، علي أجمل الفضائل ، فكل شئ في كبار السن يفصح عن المهابة والأهمية ، فإذا تكلموا أنصت الجميع لما يقولون في احترام شديد ، ويترجم العرب كلمة Vieillard (مسن–عجوز) بكلمة : شيخ ، وهو لقب شرف يوحي بمعني التشريف والسيادة ، والكلمة الأولي في كل العائلات المصرية للأكبر سناً ، – – – وفضلاً عن ذلك فإن الشرق – الذي نتفق علي أنه مهد الحضارات – كان مسرحاً للتقاليد الأبوية القديمة ، – – وإذا كانت أوروبا هي وطن الفنون ومسرح ملذات الشباب ومغامراته ، فإن الشرق ، – ومصر بوجه خاص – هو علي نحو ما ، جنة الشيوخ

- ألم يعلم هؤلاء معني بر الوالدين في الإسلام والعطف علي الصغير وتوقير الكبير ، لماذا لم يفسر علماء الحملة كل هذه السلوكيات تفسيراً دينياً ، ألم تقل أنهم قد درسوا ديننا وتعاليمه ،
- ربما كان يمنعهم من ذلك المكابرة وإنكار الأديان بشكل عام
- علي أي حال تكفي هذه الفقرات من كتاب وصف ولنبدأ الحديث عن محمد علي باشا
- ولكن هناك موضوعات أخري طريفة يمكن أن تنال إعجابك عن أحوال مصر والمصريين في ذلك الوقت
- مثل ماذا؟
- مثل وصف علماء الحملة لحمامات الساونا علي الطريقة المصرية فتحت عنوان الحمامات العامة كتب علماء الحملة الفرنسية ما يلي : يمكن أن نحصي أكثر من مائة حمام بالقاهرة ، يواظب السكان علي الذهاب إليها ، وبخاصة في الشتاء ، – – إذ يسمح الصيف للطبقة الدنيا منهم بالتطهر والاغتسال في النهر حيث تكون مياهه شبه فاترة ، أما الشتاء ببرده فإنه يحرمهم من هذه الوسيلة الاقتصادية ، وهنا يتوجه إلي الحمامات ، حوالي مرة كل أسبوع ، أولئك القادرون منهم ، ليحصلوا بمصاريف زهيدة علي متعة يطمح إليها الفقراء والأغنياء معاً ، أما رجال الطبقة الممتازة ، أو بالأحري أولئك الذين يحوزون ثروة كبيرة . فإنهم يمتلكون في بيوتهم حمامات خاصة ، وبرغم ذلك فإن هذا لا يمنعهم من أن يلتقوا بين الحين والحين في الحمامات العامة ، ليروحوا عن أنفسهم فيما بينهم ، – – – – ويوجد بكل حمام مغطس ملئ بمياه شديدة السخونة ، وبعد أن ينتهي المرء من استحمامه يغطس فيه للحظات ، وطريقة الاستحمام التي تتبع هناك تختلف عن طريقتنا نحن في ذلك ، فبعد أن يدخل المرء ، يستقبله

الخدم في الحجرة الأولي حيث يودع ملابسه ، ويعقد حول جسمه فوطة بسيطة ، ثم يقاد إلي ممر يشعر وهو سائر فيه بوهج الحرارة يشتد شيئاً فشيئاً لتصبح قوية عند اقترابه من الحجرة الثانية ، وهناك يجد نفسه وسط سحابة من بخار ساخن معطر يخترق مسام كل جسمه ، ويرقد علي قطعة من قماش صوفي فيقترب منه علي الفور خادم يلبس في يده قفاز ، أو يمسك بفوطه من صوف ناعم ، وعندما يتأكد أن البخار قد اخترق كل المسام بشكل كاف ، يبدأ بأن يطقطق كل مفاصل الوافد وتكاد هذه العملية لا تسبب سوي ألم خفيف تعوضه تلك الليونة التي تحدثها بعد ذلك في حركة الجسم ، ويستطيع الأوروبيون الذين لم يعتادوا مثل هذه العملية ويخشون نتائجها ، أن يرفضوها بمطلق حريتهم ، وبعد ذلك يدلك الخادم الجسم بالقفاز أو قطعة الصوف التي بيده ، ويكون التدليك قوياً لحد يظن معه المرء أن جلده سينفصل عن جسمه ، ويتوالي سقوط خيوط سوداء ، إذ يتخلص الجسم من كل الوساخات التي كانت عالقة به ، بل إن المسام نفسها تتخلص من أقل شئ يمكن أن يسدها ، وفي أثناء هذه العملية يكون النزيل الصبور غارقاً في عرقه ، ثم يقتاد بعد ذلك إلي حجرة مجاورة ليبقي وحده ، ويغتسل بمياه تأتي من عيني مياه إحداهما ساخنة ومياه الأخري باردة ، ثم يرتدي قميصاً ليعود في النهاية إلي الحجرة الأولي ، حيث يقدم له الخادم وهو جالس علي أريكته النارجيلة وفنجاناً من القهوة ، وعندما يحين خروجه تكون ملابسه قد تعطرت بدخان خشب الصبر ، وترش رأسه وكل جسمه برغاوي صابون معطر ، – – – –ويقوم مدير الحمام بتعطير الحجرات وإعداد ماء الورد ، ويحصل عادةً مقابل كل هذه الخدمات علي ما يكفيه ، إذا كان رواده من الأثرياء ، ونادراً ما يكون مكان الاستحمام واحداً بالنسبة للجنسين ، إذ ينقسم المبني إلي قسمين لكل منهما مدخل مستقل ، وفي الحالة الأولي يخصص لكل من الجنسين موعد خاص ، وتذهب النساء عادةً إلي الحمام في وقت متأخر ، وما إن يدخلن حتي تعلق قطعة من قماش مطرزة أو سجادة لتنبه الجمهور إلي حضورهن ، ومنذ ذلك الوقت لا يمكن لأي رجل أن يدخل ، ويستبدل بكافة الخدم الذكور علي الفور وبدون استثناء خادمات – – [٣٤]

- إنها معلومات طريفة بالفعل لم أكن أعرف عنها شيئاً ، فماذا كتبوا أيضاً
- لقد قام علماء الحملة الفرنسية بوصف الأسبلة في القاهرة : بالجزء العاشر من موسوعة وصف مصر وفي صفحة ٢١٢ وما بعدها وتحت عنوان الكتاتيب ، الأسبلة ، والأحواض العامة ورد ما ملخصه : – – – – ذكرت من قبل أن الأسبلة والكتاتيب العامة بالقاهرة ، قد نتجت معظمها عن منشآت –– لأمراء وأثرياء كرسوها لصالح سكان هذه المدينة الكبيرة وراحتهم ، وقد لا تكون هناك مدينة في أوروبا تضم هذا العدد من الأسبلة ، ونلاحظ في هذه الأبنية أعمدة الرخام والنقوش الرائعة ، وكذلك حليات من الحجر والبرونز ، ومنها يحصل الناس في جميع الفصول ومجاناً علي احتياجاتهم من الماء الذي

[٣٤] نقلاً باختصار عن كتاب موسوعة وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب الجزء الأول من صفحة ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠

يحمل إليها بمشقة بالغة من الفرع الأقرب من النيل ، حيث تصادفنا في الشوارع الجمال المخصصة لهذه الخدمة بدون انقطاع ، وفضلاً عن الأحواض التي يغترف منها الماء بوفرة يوجد في خارج هذه الأبنية سبيل مصاصة يرتشف المارة منه الماء لتخفيف ظمئهم ، أما الأعمدة التي تزدان بها واجهات هذه الأسبلة فمن المألوف أن تكون قطعاً من الرخام الأبيض نفذت في أيطاليا ، وهي ملساء أحياناً ، وقد تكون حلزونية الشكل أحياناً ، أو ذات شكل مضلع أحياناً أخري ، وكثيراً ما يجمع بين هذه الأشكال ، مع حليات من البرونز الذهبي اللون ، كما أن نوافذ السبيل نفسها مزودة بقضبان من البرونز مشغولة بمهارة ، وعلي الجدران نقوش محفورة تخلد اسم صاحب السبيل ، والأسبلة عبارة عن ثلاثة طوابق ، أولها الموجود تحت سطح الأرض ، وهو عبارة عن خزان واسع تصب فيه قرب المياه التي تحملها الجمال ، أما الطابق العلوي فيرفعه عدد من الدعامات أو الأعمدة ، وهكذا تضم هذه الأقبية عدداً ضخماً من الأعمدة الجرانيتية والحجرية جمعت من المباني القديمة ، ولست أشك في أننا لو قمنا بفحصها لوجدنا من بينها قطعاً قديمة بالغة الأهمية ، وعدد هذه المنشآت النافعة كبير وهو يبرهن علي أن روح الإحسان في الشرق أكثر انتشاراً من تصورنا المعتاد ، وسيكون تعداد هذه الأسبلة إطالة مفرطة ، وسأقتصر علي ذكر أهمها وأكثرها فخامة فيما يتصل بالعمارة ، – – -- – ويبلغ العدد الإجمالي للأسبلة ، أو تلك التي قمت بزيارتها علي الأقل ، مائتين وخمسة وأربعين سبيلاً ، تتميز ببنائها الرائع ، وغالباً ما يعلو السبيل طابق يضم مدرسة مجانية (كتاب) أسسها رجل الإحسان نفسه الذي أنشأ السبيل ، وتحمل اسمه أيضاً ،

- من حسن الحظ أن هناك العديد من الأسبلة موجودة حتي الآن وتشهد بعظمة ورقي فن البناء في تلك العصور ، فهل هناك موضوعات أخري تريدني أن أعرفها من كتاب أو موسوعة وصف مصر ؟
- يمكن أن نكتفي بهذا القدر ونبدأ في الحديث عن أحداث ما بعد رحيل الحملة الفرنسية
- لا مانع علي الإطلاق ، فماذا حدث بعد رحيل الحملة ؟

عندما تولي محمد علي باشا حكم مصر

- خمس سنوات تقريباً (١٨٠١–١٨٠٥م) هي الفترة بين جلاء الحملة الفرنسية وبين تولي محمد علي باشا حكم مصر وكانت أحوال مصر خلال هذه السنوات الخمسة في غاية الاضطراب فقد تصارعت عدة قوي علي الحكم والطريف أن محمد علي شخصياً كان وراء هذه الاضطرابات والعقل المدبر لها أو علي الأقل لمعظمها فكان يستخدم جميع الوسائل المتاحة من قوة ودهاء ليضمن عدم سيطرة أحد الفرق المتصارعة وعدم استقرار الأمور لأي فريق منهم في مصر كما كان يتقرب من الزعامة الشعبية ويراهن عليها فالشعب هو القوة الباقية التي يمكن أن تمنحه حكم مصر وسط كل هذه الصراعات وكانت الحملة الفرنسية قد أشعلت روح الجهاد في الشعب المصري وتسببت في إفاقته من سباته العميق ربما دون أن تقصد

- ولكن من هو محمد علي وما هي الأساليب التي استخدمها ليصل إلي حكم مصر وما الذي دار خلال هذه السنوات الخمسة ؟
- ولد محمد علي سنة ١٧٦٩ م[٣٥] ونشأ بمدينة قولة من ثغور مقدونيا وكان منذ صغره يبدو عليه النبوغ والجرأة واقتحام المخاطر وروح المغامرة منذ التحق بالجيش وكان يميل إلي حل المواقف والمشاكل الصعبة بطرق غير تقليدية تعتمد علي الذكاء الحاد وسرعة البديهة وانتهاز الفرص المناسبة بغض النظر عن أي اعتبارات أخري ، ومارس محمد علي لفترة تجارة الدخان مما جعله يكتسب خبرة كبيرة في المسائل التجارية والاقتصادية وكان لا يعرف القراءة والكتابة ، ثم ترك محمد علي تجارة الدخان وعاد مرة أخري إلي الحياة العسكرية وعندما قام السلطان العثماني بتجميع جيش كبير لقتال الحملة الفرنسية في مصر طلب من كل حاكم ولاية أن يرسل قوة لتنضم إلي هذا الجيش (صدر الأمر إلي متصرف قولة بتقديم ما لديه من الجنود فألف كتيبة من ثلثمائة جندي انضم محمد علي في سلكها)[٣٦] ووصلت هذه القوة مع مثيلاتها تحت قيادة حسين قبطان باشا إلي أبي قير في شهر مارس سنة ١٨٠١ م علي متن السفن العثمانية ومنذ ذلك التاريخ شهد محمد علي كل الأحداث وحتي جلاء الحملة الفرنسية وكان محمد علي من ذلك الطراز من القادة الذين عرفوا إمكانيات مصر جيداً وعلي حد تعبير الأستاذ جمال بدوي عنهم (وضعوا أيديهم علي مفتاح شخصيتها فباحت لهم بسرها وجعلت منهم حكاماً يلهج بذكرهم التاريخ)[٣٧] ، وعندما تقرأ عن الأحداث التي مرت بها مصر خلال السنوات الخمسة التي أعقبت جلاء الفرنسيين عن مصر تشعر أن محمد علي كان يلعب بالنار في جرأة وشجاعة يحسد عليها ، وكان الرجل الثاني في القوة الألبانية الموجودة بمصر ضمن قوات الجيش العثماني ،
- فهل قام السلطان العثماني بتعيين والي علي مصر بعد جلاء الحملة الفرنسية ؟
- نعم لقد قام السلطان العثماني بتعيين عدة ولاة علي مصر خلال هذه الفترة واحداً تلو الآخر ولكن لم يصمد أحد منهم وسط الظروف التي كانت تحيط به ، وكان أول والي بعد جلاء الحملة الفرنسية مباشرة هو خسرو باشا ثم أحمد باشا ثم علي باشا الجزائرلي أما آخر والي فكان اسمه خورشيد باشا وكل هؤلاء لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم علي مصر وقد يكون السبب في ذلك هو محمد علي نفسه
- فماذا كتب المؤرخون عن هذا الموضوع ؟
- يقول عن هذه الفترة المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي (كان محمد علي هو الرأس المدبر للحملة علي خسرو باشا ثم علي أحمد باشا ثم علي علي باشا الجزائرلي ، ولكنه ظل بعيداً عن الميدان وترك

[٣٥] تاريخ الحركة القومية ج٢ (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٢٥٦ [وهذه السنة ولد بها نابليون أيضاً]

[٣٦] تاريخ الحركة القومية ج٢ (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٢٥٨

[٣٧] كتاب محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٣٣

عثمان بك البرديسي " من زعماء المماليك " يأتمر بعلي باشا الجزائرلي ويتولي أمر قتله ليحتمل تبعة هذا العصيان الخطير في نظر الباب العالي إذا ما جاء وقت الحساب ، والواقع أن مقتل الجزائرلي كان فيه القضاء علي مظهر السلطة العثمانية في مصر وبذلك تخلص محمد علي من إحدي القوتين اللتين كان يعمل علي سحقهما ولم يبق أمامه إلا قوة المماليك فبدأ العمل علي التخلص منها وتمهيداً لهذه الغاية ترك لزعماء المماليك السلطة ظاهراً حتي يحملهم تبعة الحكم ومساوئه ويجعلهم هدفاً لسخط الشعب)[٣٨]

- يا له من داهية

كيف تلاعب محمد علي باشا بعثمان بك البرديسي ؟

- يوجد كتاب اسمه (الفرعون الأخير محمد علي) لكاتب يُدعي جيلبرت سينويه وترجمة عبد السلام المودني وقد تناول الكاتب في كتابه العديد من الأمثلة علي مكر ودهاء محمد علي فيقول مثلاً عما فعله محمد علي بعثمان بك البرديسي أحد أمراء المماليك عندما طالبه الجند برواتبهم وحدثت اضطرابات عديدة بسبب ذلك : (– – وفي ظل هذا الجو المأساوي ، يدفع محمد علي بالبرديسي التعيس إلي الواجهة ، ويكاد يصير حاكماً للبلاد ، ففي السابع من شهر ربيع الأول أي الثاني والعشرين من شهر أيلول لسنة ١٨٠٤ يدخل الشريكان إلي العاصمة ، فتستقبلهما الجموع الغاضبة التي تشتكي الفاقة والعوز ، وأمام حالة اليأس الكبيرة هذه ، يأمر البرديسي محمد علي بفتح مخازن الغلال من توه وتوزيع الحبوب المخزونة فيها ، مَن مِن الرجلين سيستفيد من هذا القرار ؟ البرديسي بحسب جبارتي ، لكن ما من شك أن محمد علي سيحظي بحصة هامة من رضي الشعب ، ألم يكن هو من يوزع القمح في النهاية ؟ لكن ومهما يكن الأمر ، فلحد الساعة لم تحل المشاكل بعد ، فعلي البرديسي أن يستجيب لمطالب الجنود المتعددة والمتكررة بتأدية رواتبهم المتأخرة ، وهكذا يجتمع مجلس لدي إبراهيم باي ، ويتم اتخاذ قرار بتقسيم المبالغ المستحقة بين الأمراء بحسب مواردهم ، ولكن هذا لم يكن كافياً أيضاً ، فيرغم البرديسي علي الرفع من ضريبة علي تجار القاهرة ، وأيضاً علي تجار العاصمة من الأجانب وبالتالي ستسبب الإذاية للقناصلة – – – وهكذا فقد كان يتم الاستيلاء علي بضائع التجار تحت أنظارهم الحزينة وتباع بأبخس الأثمان ، – – – – ولاستدرار دعم الجيش يعمد البرديسي إلي إضافة ضريبة جديدة علي المواطنين ، وهي النقطة التي أفاضت الكأس ، وتحولت القاهرة في الأيام التي أعقبت ذلك ، إلي بركان يغلي فاندلعت المواجهات في كل مكان فيها تقريباً وارتفعت الأصوات المتوحدة من المآذن تعلن "ما الذي تريد إضافته إلي شقائنا يا برديسي" (إيش تاخد من تفليسي يا برديسي) وقام الرجال والنساء علي السواء بطلاء أيديهم بطلاء أزرق علامة علي الحداد ، وأغلقت الدكاكين ، وزاد نهب المرتزقة أكثر من أي وقت مضي ، والاستيلاء علي البراجي

[٣٨] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج٢ صفحة ٢٨٥

القادمة من مصر العليا أو السفلي ، وتوجهت الجموع إلي الأزهر ، مكان تجمع الشعب في الأزمات العظمي ، وتأهبت الأيادي للانقضاض لكن لم يحدث أبداً ، وهو ما يثبت حسن تدبير محمد علي ، وتحت تأثير موجة الغضب العارمة ، أن توجه أحد باللوم إلي الباشا القادم الذي كان يفرك يديه خلف الكواليس ، فقد حانت لحظة إلقاء البرديسي في الجحيم ، وهكذا قام بتوزيع الألبان التابعين له في العاصمة وكلفهم بمهمة منع المماليك من إيذاء الجماهير ، ويدأ الشعب الصغير يهتم من قريب بهذا الحامي الذي أرسلته العناية الإلهية ، ويستدعي البرديسي المستشيط غضباً العلماء ووجهاء العاصمة ويحملهم شاتماً مسئولية ما يقع من أحداث ، فيدافع محمد علي عن العلماء ويعلن بحسم عن أن الحكومة هي من عليها تحمل أداء رواتب الجنود وليس الشعب المصري وبهذا الموقف يبرهن للوجهاء أنه لا يخشي أن يعارض المماليك في سبيل الدفاع عن مصالح الشعب ، وبطريقة غير محسوسة لا يمنح للشعب صورة المنقذ فقط بل والمنقذ بلا طموح)[٣٩]

- أعتقد إنه ليس من المروءة أن تكون لديك رؤية لحل مشاكل وأزمات شعب مطحون ولا تقدم الحلول أو حتي مقترحات للحلول بل وتفتعل أزمات غير موجودة، لمجرد أن تثبت فشل من في السلطة ، كي تتولي أنت السلطة بدلاً منه ، فمصالحك الشخصية أهم من الصالح العام الذي يمكن أن ترعاه وأنت خارج السلطة أيضاً ، وعلي أي حال لقد قمت باختيار فقرة من كتاب يوضح تماماً ما كنت استفسر عنه ، فماذا حدث للتعيس البرديس بعد ذلك وإبراهيم بك ؟
- لقد لاذوا بالفرار بعد أن أرسل إليهم محمد علي جنوده الألبان للضغط عليهم والمطالبة برواتبهم المتأخرة هم أيضاً (وأُسقِط في أيدي المماليك ورأوا أنفسهم حيال قوتين ثورة الأهالي من جهة وجنود محمد علي من جهة أخري فلم يجدوا سبيلاً للنجاة سوي الفرار من القاهرة)٤٠
- إذن فقد خلا الجو تماماً لمحمد علي
- بالتأكيد ، (كانت الفرصة سانحة ليحقق محمد علي آماله ويتولي سلطة الحكم في مصر فالمماليك قد دالت دولتهم والقوة التركية قد تلاشت من البلاد والوالي التركي في القلعة سجين وليس ثمة قوة حربية سوي الألبانيين " الأرناؤوط " الذين تحت قيادته ولكن محمد علي كان طويل الأناة بعيد النظر فرأي ألا يصل إلي سلطة الحكم بقوة الجند وآثر أن ينتظر حتي يصل إلي تلك الغاية بإرادة الشعب وبذلك يبرهن أنه لم يناوئ المماليك لمطامع شخصية بل لمحض الصالح العام فيزداد الشعب تعلقاً به)٤١
- ومن أصبح والياً رسمياً علي مصر وسط كل هذا ؟

---

[٣٩] (الفرعون الأخير محمد علي) تأليف جيلبرت سينويه –تقديم ديروش نويلكور–ترجمة عبد السلام المودني

[٤٠] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٣

[٤١] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٣

- (وصل خورشيد باشا إلي بولاق في أواخر مارس سنة ١٨٠٤ وهو خامس من تقلد ولاية مصر - - فأولهم خسرو باشا وقد خلع ، ثم طاهر باشا وقد قتل ثم أحمد باشا وقد طرد ثم علي باشا الجزائرلي وقد قتل ، ثم خورشيد باشا وفي عهده قامت الثورة)٤٢ ، (وكان خورشيد باشا سئ الرأي فاسد التدبير ميالاً إلي الظلم غير مكترث بميول الشعب معتمداً علي القوة الغشوم - - تعددت مظالمه فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن الناس – ففي عهده قوي سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصي مداه حتي أثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالي عن كرسي ولايته وأجلسوا محمد علي مكانه ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل)٤٣ وهكذا ثار الشعب علي الوالي خورشيد باشا بالقوة وكان زعيم الثورة وقائدها هو السيد عمر مكرم الذي أعطي السلطة لمحمد علي بعد أن أخذ منه العهود والمواثيق أن يعدل بين الناس وأن يحكم البلاد بما يرضي الله ،
- فماذا كان رد فعل السلطان العثماني
- لقد أرسل الشعب المصري إلي السلطان العثماني يطلب منه تعيين محمد علي والياً علي مصر واستجاب السلطان لرغبة الشعب وأرسل فرماناً بتولية محمد علي حكم مصر ،
- ونزل خورشيد باشا أخيراً من القلعة ؟
- لم تتوقف الحرب بين الشعب والوالي إلا عند وصول هذا الفرمان من الأستانة يوم ٩ يوليو سنة ١٨٠٥ م٤٤ ونزل خورشيد باشا من القلعة وهو يعتبر آخر والي تم تعيينه بإرادة السلطان العثماني قبل تولي محمد علي ، أما محمد علي فكان تعيينه بإرادة الشعب وقبل كل هذا وبعده إرادة المولي عز وجل
- إذن فقد وصل محمد علي باشا للحكم في مصر والتقت مصر بشخصية بارزة غير عادية
- هذا صحيح فقد تكلمنا من قبل عن كبار القادة عندما يحضرون إلي مصر علي اختلاف دياناتهم ومذاهبهم وكيف ينظرون إلي مصر نظرة خاصة ويرون بها ما لا يراه الآخرون إنها الشخصيات البارزة التي تكلمنا عنها من قبل مثل مينا ومنتوحتب الثاني وأحمس الأول والإسكندر المقدوني وبطليموس الأول والإمبراطور أغسطس الروماني وسيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه وأحمد بن طولون وأبو بكر الإخشيد والمعز لدين الله الفاطمي وصلاح الدين الأيوبي وسيف الدين قطز والظاهر بيبرس والأشرف خليل بن قلاوون والسلطان سليم الأول العثماني ونابليون بونابرت وغيرهم من القادة الذين عرفوا إمكانيات مصر جيداً

---

[٤٢] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٤

[٤٣] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٦

[٤٤] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٣١٤

- كل قائد من هؤلاء القادة نظر إلي مصر نظرة مختلفة مع اختلاف نية كل منهم تجاهها فمنهم من اتخذها عاصمة لملكه واستغل إمكانياتها ومنهم من قام بتقليم أظافرها وتجريدها من مقوماتها قبل أن يعود إلي عاصمة ملكه لتصبح ولاية تابعة له ، ومنهم من سخرها لخدمة الإسلام والمسلمين لتصبح عضواً قوياً في جسد الأمة الإسلامية المترابطة ومنهم من حقق بها مجد شخصي وجعلها عزبة خاصة له ولأولاده من بعده ،
- بالطبع وكل واحد منهم أحبها وقّدر لها قدرها ولكن هناك فرق بين من يحب حب صاحب العزبة لعزبته ومن يحبها لوجه الله وابتغاء مرضاته ،
- والسؤال هو أين محمد علي من كل هؤلاء وما هي الغاية التي كان يحلم بتحقيقها وإذا كان محمد علي قد نفذ مبدأ الغاية تبرر الوسيلة فماذا كانت غايته وما هي الوسائل التي استخدمها لتحقيق غايته ؟
- عندما تقرأ عن الأحداث التي مرت بها مصر خلال السنوات الخمسة التي أعقبت جلاء الفرنسيين عن مصر تجد أن محمد علي كان يلعب بالنار في جرأة وشجاعة يحسد عليها ، وكان قد تم جلاء الإنجليز عن مصر ولكن ليس بسبب ما يحدث بها ولكن بسبب ما يحدث في أوروبا فقد أجبرتهم الظروف الدولية في أوروبا وفعاليات الاتفاق مع فرنسا علي مغادرة مصر ولكن بعد أن عرفت قيمة موقعها جيداً ، وكان الإنجليز يرغبون في تولي محمد بك الألفي حكم مصر وكان الألفي العدو اللدود لمحمد علي وكان يعمل له ألف حساب
- لماذا الألفي تحديداً ؟

محمد علي باشا ومحمد بك الألفي

- كان محمد علي يكره المماليك بشدة ويعمل علي سحقهم تارة ومهادنتهم تارة أخري وكان أخطرهم بالنسبة له محمد بك الألفي الذي كان قد غادر مصر مع الإنجليز وعاش فترة في لندن واتفق معهم علي حكم البلاد بدعم منهم وعاد إلي مصر ليواجه محمد علي وكان محمد علي يعتبره أصعب عقبة في طريقه للحكم بل كان يتفادى الصدام به في أي مواجهه عسكرية بقدر الإمكان ، وكان الألفي يمتاز بالذكاء الحاد والشجاعة وحسن القيادة وربما كان سينهض بمصر علي الطريقة الإنجليزية في حالة ما كان قد وصل إليه الحكم كما نهض بها محمد علي ولكن علي الطريقة الفرنسية كما سنري ،
- أي أن محمد علي رجل فرنسا والألفي رجل بريطانيا في مصر فهل دعمت فرنسا محمد علي ليصل للحكم ؟
- (وهنا لابد أن نعرض لرواية ذكرها بعض المؤلفين الفرنسيين وإليها يرجعون صعود نجم محمد علي وتقلده ولاية مصر فيقولون أن المسيو ماسيو دلسبس لما عين قنصلا لفرنسا في مصر أخذ يبحث عن رجل تؤيده فرنسا وتشد أزره وتساعده علي تقلده حكم مصر وإنه لم يكن يعرف أحدا في مصر فسأل قواس القنصلية واسمه عمر أغا عن الرجل المنشود فدله علي محمد علي لأنه يعرفه من قبل فكتب

دلسبس إلي حكومته يوصيها بشد أزر محمد علي ومساعدته علي تقلده ولاية مصر -)٤٥ وينفي المؤرخ الرافعي هذه القصة تماماً ويقول أنها غير صحيحة بالرغم من أنه لا ينفي أن فرنسا كانت تقف مع محمد علي بعد توليه الحكم ، فيقول (أما كون فرنسا رأت من مصلحتها السياسية أن تشد أزر محمد علي بعد تقلده الولاية وتؤيده ضد دسائس السياسة الإنجليزية فهذه مسألة أخري لا علاقة بينها وبين حكاية عمر أغا)٤٦ ،

- **فما المشاكل التي واجهت محمد علي ؟**
- **كان المماليك يسيطرون علي صعيد مصر وكانت الحرب تدور بينهم وبين قوات محمد علي ومن ناحية أخري حاول الإنجليز بالتنسيق مع الدولة العثمانية إعادة المماليك للحكم وتولية محمد بك الألفي الذي كان قد عاد إلي مصر وسيطر علي الفيوم وبالفعل وصل أسطول عثماني إلي الإسكندرية في أول يوليو سنة ١٨٠٦ ومعه والي جديد علي مصر اسمه موسي باشا ليقوم بالدور الذي كان يقوم به الولاة قبل الحملة الفرنسية أيام حكم زعيم المماليك كشيخ للبلد ،**
- **فماذا فعل محمد علي ليحل هذه المشكلة ؟**
- **لجأ محمد علي إلي زعماء الشعب مرة أخري ، وبدون الدخول في التفاصيل استطاع زعماء الشعب إلغاء قرار السلطان وتثبيت محمد علي في حكم مصر ، وتفرغ محمد علي للمماليك حيث لجأ معهم إلي أسلوبه الذي برع فيه وهو الدهاء والحيلة (فأخذ يعمل علي فصم عراهم مستخدماً التنافس القديم بين زعماءهم)٤٧ واستمرت المشاكل والحروب والحيل والمكر بين محمد علي والمماليك وكان أخطرهم عثمان بك البرديسي ومحمد بك الألفي ، وكان الألفي قد حاصر دمنهور واقترب من رشيد والإسكندرية في انتظار وصول الحملة الإنجليزية لتتعاون معه كي يصل لحكم مصر والتي جاءت بالفعل سنة ١٨٠٧م (حملة فريزر) ولكنها وجدته قد مات وفشلت الحملة وتم مقاومتها ببسالة لا نظير لها وكان الألفي قد مات بعد موت عثمان بك البرديسي بحوالي شهرين ،**
- **فماذا كان رد فعل محمد علي عندما علم بوفاة الألفي ؟**
- **إليك بعض ما رواه الجبرتي عندما وصف موت الألفي (من تمام سعد محمد علي باشا الدنيوي حتي أنه قال في مجلس خاصته " الآن ملكت مصر " ولما مات الألفي ارتحلت أجناده ومماليكه وأمراؤه وارتفعوا ناحية قبلي فسبحان الحي الذي لا يموت)٤٨**
- **عجيب أمر هؤلاء المماليك إنهم يلتفون حول شخص وليس دعماً لفكرة أو سياسة محددة فإذا اختفي هذا الشخص أو مات تفرقوا في الحال**

---

[٤٥] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٣

[٤٦] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٤

[٤٧] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٣

[٤٨] عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج ٧ صفحة ٣٨

- كان محمد الألفي هو الوحيد تقريباً الذي لم يجرؤ محمد علي على مواجهته عسكرياً في ميادين القتال وسبب سعادة محمد علي بموته أن من تبقي من أمراء وزعماء المماليك لم يكن علي نفس مستوي الألفي وكان من السهل علي محمد علي أن يستقطبهم لصالحه بإعطاء كل أمير منهم الأمان علي نفسه وعلي ممتلكاته وأن يسكن معزز مكرم في العاصمة وله مكانته من التقدير والاحترام طالما أنه لا يسعي للوصول للحكم ولا يبغي سوي الحياة الكريمة الآمنة ،
- ولكنه تخلص من هؤلاء أيضاً بعد ذلك في مذبحة القلعة الشهيرة كما هو معروف
- لم يبق أمام محمد علي سوي التخلص من الجنود الأرناءوط الذين زاد تمردهم وكادوا أن يقتلوه عندما ثاروا عليه لتأخر رواتبهم حتي أن محمد علي انتقل من سراي الأزبكية سراً إلي القلعة بحيث لم يشعر به الجنود المتمردين ولجأ محمد علي لزعماء الشعب كي يحلون له مشكلة تأخر رواتب الجنود
- سبحان الله ، إن محمد علي يلجأ إلي الشعب كلما واجهته مشكلة غير قادر علي حلها ، فليته التزم بما وعدهم به بعد ذلك
- (ولما كانت خزانة الحكومة خالية من المال قرروا " أي زعماء الشعب " أن يتحمل الأهالي هذه الإتاوة الجديدة – – فجبيت الإتاوة ودفعت للجنود واستتبت السكينة مؤقتاً علي حساب الأهالي)[٤٩]
- ما أنكر فعله أمام زعماء الشعب أيام البرديسي قام به وبواسطة نفس الزعامة الشعبية
- كانت هذه المشكلة التي أثارها الجند من الأسباب الرئيسية التي جعلت محمد علي يفكر جدياً في تأسيس جيش نظامي والتخلص من هؤلاء الجنود غير النظاميين في المعارك في الحجاز والسودان كما يقول الرافعي (وأخذ يتحين الفرص لإنفاذ فكرته فكان من وسائل تحقيقها إرسال أخلاط الجيش غير النظامي إلي الحملات البعيدة في الحجاز والسودان وبذلك أخذ يتخلص منها تدريجياً تمهيداً لتأسيس الجيش المصري)[٥٠] ،
- إذن فقد كان الشعب المصري وزعماءه يقفون مع محمد علي في كل مشكلة بداية من توليته حكم مصر رسمياً بعد عزل خورشيد باشا بالقوة ، مروراً بمقاومة فرمان تعيين موسي باشا ثم قتال حملة الإنجليز في رشيد والحماد ثم حل مشكلة ثورة الجند ،
- كل هذا قام به الشعب من أجل محمد علي وكان زعماء الشعب يقفون مع محمد علي باشا في كل شئ عدا ظلم الشعب مما كان يسبب له الإزعاج أحياناً

محمد علي يتخلص من الزعامة الشعبية والمماليك الموالين له

- إذن فقد كانت الزعامة الشعبية صداع في رأس الباشا فكيف تخلص منها ؟

---

[٤٩] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٧٩

[٥٠] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٧٩

- يقول عبد الرحمن الرافعي : (من الراجح أن محمد علي باشا كان يميل في ذات نفسه إلي التخلص من الزعامة الشعبية التي أجلسته علي قمة المجد ، لأن هذه الزعامة كانت في هذه السنوات الأولي من حكمه بمثابة سلطة ذات شأن تستقصي عليه وتراقب أعماله مراقبة مستمرة وكانت ملجأ الشاكين ممن ينالهم الظلم - - ولئن كان محمد علي مديناً للزعامة الشعبية بولاية الحكم وتثبيته وتذليل العقبات التي اعترضته وإحباط الدسائس والمؤامرات التي تدبر له فإن السلطة في ذاتها من شأنها أن تطغي صاحبها وتنزع به إلي الاستبداد بالأمر ، فمحمد علي بعد أن استقر في الحكم وثبتت أقدامه طمحت نفسه إلي الاستبداد بالأمر ويبدأ يشعر بالغضاضة من تدخل العلماء وأهل الرأي في شئون الحكم وسعيهم في دفع المظالم عن الناس)٥١ ،
- هذا ما كتبه الرافعي فماذا كتب الجبرتي عن هذا الموضوع ؟
- يقول الجبرتي : (ولما انقضي هذا الأمر واستقر الباشا وأطمأن خاطره وخلص له الإقليم المصري - - فأول ما بدأ به أنه أبطل مسموح المشايخ والفقهاء ومعافي البلاد التي التزموا بها - - واغتروا بذلك واعتقدوا دوامه وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها بدون القيمة وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء - - واتخذوا الخدم والأعوان - - وانقلب الوضع فيهم بضده وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام - - وأوقع مع ذلك زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد علي الرياسة)٥٢ ،
- إذن فقد شغلهم بالدنيا
- ليس كلهم بالطبع فيؤكد الرافعي أن السيد عمر مكرم لم يخضع لمغريات محمد علي باشا (فلم تلن قناته للمنافع والمغريات ولم تزعزعه الكوارث والتهديدات وقد ظل يمثل النزاهة والاستقامة حتي آخر نسمة من حياته وأيده في مسلكه بعض الشيوخ ولكن أغلبيتهم قد انصرف إلي أسباب المنافع والاستكثار من الأموال والضياع والدور والقصور)٥٣ ،
- يا له من أسلوب خبيث بالفعل
- أما المؤرخ جمال بدوي فكتب يقول عن هذا الموقف ما يلي (فبعد تولية محمد علي وانفراده بالحكم ونكوصه عن العهود والمواثيق التي أقسم علي احترامها كان عليه أن يزيح عمر مكرم ثم ينفيه إلي دمياط وطنطا تنفيذاً لتعليمات مكيافيللي التي تنصح الأمير بأن يطيح بكل الذين ساعدوه علي الوصول إلي الحكم ووجد محمد علي تشجيعاً وتأييداً - بل تحريضاً - من مشايخ الأزهر للخلاص من عمر

[٥١] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٨١

[٥٢] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٧ صفحة ١١٣ ، ١١٤

[٥٣] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٨٣

مكرم مقابل انعامات رخيصة أغدقها عليهم ثم استردها منهم بعد أن استخدمهم في التآمر علي زعيمهم وعندما ذهبوا إليه محتجين علي إلغاء امتيازاتهم لم يجدوا منه سوي أقذع العبارات وهي نتيجة طبيعية لمن يبيع نفسه ثم يعجز عن استردادها مرة أخري بعد أن تكون النفس قد تلوثت وفسدت)٥٤

- **لقد عبر الأستاذ جمال بدوي عن كل ما كنت أريد قوله بأسلوبه الرائع ، فهل هناك آراء أخري ؟**
- **هناك تعليق علي هذا الموضوع كالآتي : (- - هناك عدداً من العبر والدروس التاريخية التي يجب أن يعيها كل مسلم في تلك الحادثة ، أولها أنه كان من الطبيعي أن يتجه محمد علي إلي محاولة التخلص من زعماء الأمة الذين جاءوا به كي يسهل عليه أن يجمع من الضرائب ما شاء وأن ينفذ سياساته بدون حساب لمعارضة للجماهير ، وأن ينفرد بالسلطة ، وبديهي أن زعماء الأمة الشرفاء وعلي رأسهم السيد عمر مكرم لم يحسبوا حسابات لذلك اليوم اعتماداً علي الجماهير أو استناداً إلي ثقتهم في حسن نية محمد علي ، ونحن هنا لابد أن نقرر حقيقتين ، أولهما : أنه لا يمكن في الحياة السياسية الاعتماد علي حسن نية الحكام ، فالسلطة في حد ذاتها مفسدة ومهما كان ورع الشخص فإن السلطة ربما تفسده ، وكان من الضروري تطوير النظام السياسي بشكل يحمي الأمة من تقلبات النفوس أمام خمر السلطة ، وإغراء القوة ، وكان الزعماء في ذلك الوقت بالذات يمتلكون حركة جماهيرية حققت من القوة والاتساع ما يكفل لها ذلك لو أرادت ، والحقيقة الثانية : أنه كان لابد من تحويل الحركة الجماهيرية إلي مؤسسة ذات تنظيم يكفل لها الاستمرار ولا يجعلها عرضة للمؤامرات وتقلبات بعض المشايخ تحت إغراء المال أو الحسد ، - - - وبتلك المؤامرات الدنيئة استطاع محمد علي أن يتخلص من السيد عمر مكرم ، ليس هذا فحسب ، بل إنه باستخدام بعض المشايخ في الإيقاع بالسيد عمر مكرم كان قد أجهز علي المؤسسة الأزهرية بكاملها ، فالجمهور رأي في عملهم معني الخيانة والغدر ، محمد علي نفسه احتقرهم بعد ما قبضوا المال لقاء عملهم هذا ، وهكذا استطاع محمد علي الداهية أن يتخلص من الزعيم وأن يسقط هيبة العلماء أمام الجماهير ، - - - وربما يكون هذا العمل قد أفاد محمد علي علي المستوي الشخصي ، ولكن هذا العمل كان التوطئة الأولي للقابلية للاستعمار ، ففصم العلاقة بين العلماء وبين الجماهير قد أفقد الطرفين إيجابيتهما ، وباتت الجماهير بلا قيادة شرعية تعمل من خلالها في التصدي للاستعمار أو الاستبداد ، وبهذا العمل حقق محمد علي للاستعمار هدفاً كان من الصعب تحقيقه ووضع اللبنة الأولي في القابلية للاستعمار ، فلو كان محمد علي قد اغتال عمر مكرم أو اعتقله أو قتل العلماء أو سجنهم لكان تخلص من العلماء ، ولكنه لم يكن قد قضي علي كيان هام كان ضرورياً للصمود في ذلك الوقت العصيب أمام العدو التاريخي المتربص بنا ، وسواء قصد محمد علي ذلك أم لم يقصد فإن النتيجة كانت مروعة علي أمتنا وعلي استقلالنا)٥٥**

---

[٥٤] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ١٣ ، ١٤

[٥٥٥٥] نقلاً عن كتاب تاريخ مصر الحديث – ١٧٩٨-١٩٥٢- صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر – د محمد مورو

- إنها كارثة بالفعل أن يفقد الناس الثقة بالمشايخ والعلماء ، فسوف يتركون فراغاً في حياة الناس وسيشغله غيرهم وما أدراك من هم غيرهم ، فبالفعل لو كان قتلهم كان سيتخلص منهم دون أن تهتز الثقة في الأزهر ، ولكنه قام بتشويه صورتهم أمام الناس وأخرج أسوأ ما فيهم فتخلص منهم ومن مؤسسة الأزهر ككل ، إنه تعليق مهم ومؤثر أيضاً ، وبالطبع لم يحدث هذا مع المماليك فقد قتلهم دون الحاجة لتشويه سمعتهم فهو ليس في حاجة لذلك فقد فعل ذلك أيام عثمان بك البرديسي

مذبحة القلعة وتأثيرها علي الشعب

- بالفعل فبعد أن كسر محمد علي شوكة المشايخ وقام بنفي كبيرهم السيد عمر مكرم خارج القاهرة بعيداً عن الأحداث قرر أن يتخلص من الأمراء والقادة المماليك الذين أعطاهم الأمان وجعلهم يتركون ساحات القتال وسكنوا بالقاهرة وعاشوا حياة كريمة غير متطلعين للحكم فقام بدعوتهم لحضور احتفال ضخم وفخم بالقلعة لوداع ابنه أحمد طوسون باشا الذي كان متوجهاً علي رأس جيش لمهمة خارج البلاد وكان يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١م[٥٦] (وقبل ابتداء الحفلة دخل البكوات المماليك علي محمد علي باشا في قاعة الاستقبال الكبري فتلقاهم بالبشر والحفاوة وقدمت لهم القهوة وشكرهم الباشا علي إجابتهم دعوته وألمع إلي ما ينال ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه في موكبه فأجابوه بالشكر - -- وعندئذ نهض المماليك وساروا إلي حيث يأخذون مكانهم في الموكب الفخم)[٥٧] وكان الموكب يتواجد به مجموعات من الجنود تسير أمام وخلف مجموعة المماليك ، وكان يمر بمنطقة شديدة الضيق بالقلعة وفي نهايتها باب خرج منه مقدمة الموكب ثم تم إغلاقه علي المماليك والجنود وانهال عليهم ضرب النار من أعلي الأماكن المجاورة لهذا الممر الضيق
- فماذا فعل المماليك عندما وقعوا في هذا الكمين ؟
- (لم يستطع المماليك دفاعاً عن أنفسهم ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة علي الحركة أو الرجوع القهقرى أو النزول عن جيادهم لضيق المكان الذي حصروا فيه ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص ولم يكونوا يحملون سوي سيوفهم وهيهات أن تعمل السيوف في ذلك الموقف شيئاً فانصب عليهم الرصاص وحصدهم حصداً وجاءهم الموت من كل مكان)[٥٨] ،
- فكم كان عددهم تقريباً ؟
- (وهكذا دخل القلعة في صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم قُتِلوا جميعاً ولم ينج منهم إلا واحد اسمه أمين بك فإنه كان في مؤخرة الصفوف)[٥٩] وقفز بجواده من فوق سور القلعة وتلقي الجواد الصدمة ونجا هو وفر متنكراً إلي أن وصل سوريا فيما بعد ، وكانت المذبحة مؤامرة

---

[٥٦] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١٠٨

[٥٧] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١٠٩

[٥٨] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١٠

[٥٩] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١١

محكمة من محمد علي استطاع أن يقتل فيها من لم يستطع أن يقتله في ساحات القتال حيث الأماكن المخصصة للقتل الشريف ،

- أن ما فعله الباشا هو غدر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني
- بالتأكيد ، وقد علق المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي علي هذه المذبحة فكتب الآتي : (تلك هي الواقعة الشهيرة بمذبحة القلعة ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك - - ولكن مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الإنسانية ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهاً لوجه حتي تخلص منهم في ميادين القتال لكان ذلك خيراً له ولسمعته)[٦٠] ، ويقول المسيو جومار وهو الذي جعله محمد علي باشا مديراً لأول بعثة مدرسية مصرية في فرنسا (لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد علي هدفاً لأحكام التاريخ القاسية - -
- فماذا كان تأثير هذه المذبحة علي الشعب المصري ؟
- يقول الرافعي: ومن جهة أخري فإن الفتك بالمماليك علي هذه الصورة الرهيبة قد كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس وكان من نتائجها أن استولت الرهبة علي القلوب فلم يعد ممكناً إلي زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلي نفوس الناس)[٦١]
- وكيف استطاع الجبرتي رحمه الله أن يؤرخ لهذه الأحداث في ظل سيطرة الباشا؟

محمد علي والجبرتي

- يقول المؤرخ الكبير جمال بدوي : (لم يكن عبد الرحمن الجبرتي مؤرخاً حكومياً يكتب ما يرضي الحاكم ولكنه كان مؤرخاً شعبياً من الطراز الأول يسجل ما يراه في أمانة ودقة دون ابتغاء مرضاة السلطة أو خوفاً من سخطها ومثل هذا المسلك الأخلاقي لم يكن مما يعجب الحكام لأن الحاكم يريد من المؤرخين المعاصرين له أن يحرقوا له البخور وينتحلوا البطولات ويزيفوا الحقائق فيجعلوا من مخازيه مجداً ومن سوءاته عزاً فإن لم يفعلوا سخط عليهم وعصف بهم وهذا ما فعله محمد علي الكبير عندما نمي إلي علمه ما كتبه الجبرتي عنه في صفحات ذاعت وشاعت وتداولتها أيدي الناس فلم يرحم شيخوخته وأوعز إلي أعوانه فاغتالوا ابنه خليل أثناء سيره في شارع شبرا وارتاع الرجل وهو يتلقي جثمان ابنه الصريع وفهم بذكائه دوافع الجريمة فامتلأت نفسه هماً وكمداً وظل البقية الباقية من أيامه يبكي ابنه حتي أبيضت عيناه من الحزن فكف بصره كما كفت يده عن الكتابة إلي أن وافاه الأجل فغادر الدنيا حزيناً مكلوماً عام ١٨٢٥م)[٦٢] ،
- لقد كنت أتوقع بالفعل أن الجبرتي رحمه الله ليس لن يكون له مكان في دولة محمد علي

[٦٠] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١٤

[٦١] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١٤صفحة ١١٥

[٦٢] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٣٩

- (لقد ساء الجبرتي أن يري محمد علي وقد تملكته نزعة الشره إلي الأموال فيصادرها دون سند من الشريعة ثم هو لا يتورع عن جمع الأموال بأخس الوسائل حتي لو تطلب الأمر شراء المحاصيل من الفلاحين بأسعار زهيدة وفرضها علي الناس بأسعار باهظة)[٦٣] ،
- فهل كان الجبرتي ضد محمد علي دائماً ؟
- الطريف أن الجبرتي لم يكن ضد محمد علي باستمرار بل إنه كان يذكر أعماله النشيطة ويصفه بالهمة العالية في المشاريع الكبري التي كان يقوم بتأسيسها فمثلاً ذكر الآتي عن أحد مشاريع محمد علي :(وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله لشئ من العدالة علي ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه)[٦٤]
- أعجوبة زمانه وفريد أوانه ، يا له من تعبير ، فهل كان محمد علي يحتقر المصريين ؟
- يقول الأستاذ جمال بدوي : (وإذا كنا – نحن المصريين – نحمد لمحمد علي هذه الخطوة " تجنيد المصريين " التي كان لها ما لها في ترسيخ الحس القومي إلا أن الأمانة التاريخية تقتضينا أن نسجل لمحمد علي قسوته في تجنيد الفلاحين المصريين وانتهاجه طرقاً غير إنسانية في جمع الفلاحين قسراً وقهراً وتقييدهم في الحبال وسوقهم كالدواب إلي معسكرات التجنيد ، يقول المؤرخ العسكري محمد فيصل عبد المنعم في كتابه " مصر تحت السلاح " إن المتتبع للطريقة التي اتبعها محمد علي لتجنيد المصريين يلاحظ بجلاء مدي احتقاره للمصريين الذين كان يدعوهم بالفلاحين وامتهانه لآدميتهم رغم أن هذا الشعب بذاته هو الذي اختاره وانتخبه لحكمه)[٦٥]
- فماذا كان تأثير قرار تجنيد المصريين علي من حول محمد علي من أتراك ؟
- أثار قرار تجنيد المصريين قلق القادة الأتراك وتحدثوا مع محمد علي في ذلك (وصارحوه بمخاوفهم من الإقدام علي هذه الخطوة التي لا تحمد عقباها ولكنه طمأن خواطرهم بأن تجنيد المصريين يقتصر علي مستوي " الأنفار " أي الجنود فقط أما رتب الضباط والقادة فستبقي حكراً علي الأتراك ومن معهم من الشركس والألبان والأكراد وكل الفئات التي ورثت الامتيازات من المماليك)[٦٦]
- فهل نجح المصريون كجنود في الجيش المصري ؟
- لقد أثبت الجنود المصريين كفاءة لا نظير لها في حروب حقيقية تحت قيادة ابراهيم باشا خارج القطر المصري (وقال كلوت بك في كتابه : ربما يُعد المصريون أصلح الأمم لأن يكونوا من خيرة الجنود لأنهم علي الجملة يمتازون بقوة الأجسام وتناسب الأعضاء والقناعة والقدرة علي العمل واحتمال المشاق ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للأوامر والشجاعة والثبات عند

---

[٦٣] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٤٠

[٦٤] عجائب الآثار (الجبرتي) صفحة ٤١٠

[٦٥] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٩٣ ، ٩٤

[٦٦] المرجع السابق صفحة ١٣١

الخطر والتذرع بالصبر في مقابلة الخطوب والمحن والإقدام علي المخاطر والاتجاه إلي خط النار)[٦٧] وذكر كلوت بك حوادث عدة تأييداً لهذا الوصف ، ولكن كلوت بك لم يعتبر المصريين أهلاً للقيادة واعتبر كونهم جنود فقط هو الأفضل ويرر عمل محمد علي في إقصائهم عن المراتب السامية في الجندية وإسنادها إلي الأتراك والمماليك بينما رأي المارشال مارمون الذي زار مصر في رحلته أن المصريين يصلحون للقيادة ولكن خوف محمد علي في البداية من زيادة نفوذهم هو الذي جعله لم يبدأ بهم كضباط في الجيش ولكنه اكتفي بكونهم جنود فقط

- فمتي كانت أول مرة يصبح فيها المصريون ضباط بالجيش المصري ؟
- في عهد سعيد باشا ابن محمد علي
- ولكنه لم يصل للحكم بعد إبراهيم باشا أليس كذلك ؟
- نعم فقد تولي عباس الأول الحكم قبل عمه سعيد لفرق السن بينهما فقد كانت الولاية لأكبر أبناء الأسرة العلوية سناً وليس أكبر أبناء محمد علي
- فهل تسمح بأن تلخص بيان حكام مصر من أسرة محمد علي طبقاً لترتيب وصولهم للحكم قبل أن نخوض في سرد الأحداث التي تمت في عصر هذه الأسرة ؟

بيان أسماء حكام مصر من أسرة محمد علي باشا

- لا مانع علي الإطلاق ، وفيما يلي الأسماء بالترتيب : ١ – والي مصر (محمد علي) باشا فترة الحكم حوالي ٤٣ سنة من١٨٠٥/٥/١٧ إلي١٨٤٨/٩/١ توفي في ١٨٤٩/٨/٢، ٢ – والي مصر (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) فترة الحكم حوالي شهرين من ١٨٤٨/٩/٢إلي١٨٤٨/١١/١٠توفي في ١٨٤٨/١١/١٠ ، ٣ – والي مصر (عباس حلمي) الأول ابن (أحمد طوسون) باشا ابن (محمد علي) فترة الحكم حوالي ٦ سنوات من ١٨٤٨/١١/١٠ إلي ١٨٥٤/٧/١٣ اغتيل في يوليو ١٨٥٤ توفي والده أحمد طوسون باشا في حياة محمد علي ، ٤ – والي مصر (محمد سعيد) باشا ابن (محمد علي) كان أصغر من عباس الأول ابن اخيه وحكم مصر حوالي ٨.٥ سنة من ١٨٥٤/٧/١٤إلي ١٨٦٣/١/١٨ توفي في يناير ١٨٦٣ ، ٥ – والي ثم خديوي مصر الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٥.٦ سنة من ١٨٦٣/١/١٩ إلي أن تم عزله سنة ١٨٧٩/٦/٢٦ توفي سنة ١٨٩٥ بالآستانة ودفن بالقاهرة وفي عهده تم افتتاح قناة السويس
- ٦ – خديوي مصر الخديوي (محمد توفيق) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٠.٥ سنة من ١٨٧٩/٦/٢٦ إلي ١٨٩٢/١/٧ توفي سنة ١٨٩٢ وفي عهده قامت الثورة العرابية واحتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ، ٧ – خديوي مصر الخديوي (عباس حلمي) الثاني ابن الخديوي (محمد توفيق) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد

---
[٦٧] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ٣٤٦

علي) حكم مصر حوالي ٢٢ سنة من ١٨٩٢/١/٨ إلي ١٩١٤/٩/١٩ توفي سنة ١٩٤٤ عزله الإنجليز مع بداية الحرب العالمية الأولي ، ٨ – سلطان مصر السلطان (حسين كامل) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ٣ سنوات من ١٩١٤/١٢/١٩ إلي ١٩١٧/١٠/٩ أعلنه الإنجليز سلطاناً لتستقل مصر رسمياً عن الدولة العثمانية تماماً وفرضوا الحماية علي مصر وتوفي سنة ١٩١٧ ، ٩ – سلطان ثم ملك مصر الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٩ سنة من ١٩١٧/١٠/٩ إلي ١٩٣٦/٤/٢٨ قامت في عهده ثورة ١٩١٩ وفي عهده تم رفع الحماية الإنجليزية عن مصر وتوفي سنة ١٩٣٦ ، ١٠ – ملك مصر الملك (فاروق) الأول ابن الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٦ سنة من ١٩٣٦/٤/٢٨ إلي ١٩٥٢/٧/٢٦ تنازل عن العرش لابنه تحت ضغط ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وتوفي في إيطاليا سنة ١٩٦٥ ودفن في مصر بمسجد الرفاعي ١٩٣٦، ١١ – ملك مصر تحت الوصاية الملك (أحمد فؤاد) الثاني ابن الملك (فاروق) الأول ابن الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر تحت والوصاية سنة واحدة تقريباً من ١٩٥٢/٧/٢٦ إلي ١٩٥٣/٦/١٨ تم إعلان الجمهورية يوم ١٩٥٣/٦/١٨ وكان الملك طفلاً صغيراً تحت الوصاية

- **بالتأكيد هذا البيان من موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري**
- **هذا صحيح**
- **من الواضح وجود العديد من الأسماء المركبة في هذه الأسرة مثل محمد توفيق أو أحمد فؤاد**
- **نعم فقد كان ذلك معروف عن أسرة محمد علي**
- **أعتقد أن محمد علي باشا قد تعدي المسموح به ، ولكن كيف سمحت أقوي دولتين في العالم في ذلك الوقت بنجاحات محمد علي إلي هذا الحد وتكوين هذه الدولة المصرية القوية الناهضة وهل كان صعود دولة محمد علي تحت مراقبة الدول الكبري وبحساب بحيث يتم إيقافه في أي وقت ؟ وهل كان يجهل الموقف الدولي ؟**
- **والإجابة علي هذا السؤال محيرة بالطبع وقد حاول الأستاذ يحيي حقي الإجابة في معرض حديثه عن الجهل بالموقف الدولي**
- **فماذا قال ؟**

هل كان محمد علي يجهل الموقف الدولي ؟

- **يقول الأديب الكبير يحيي حقي بعد أن تحدث عن جهل إبراهيم بك ومراد بك بالموقف الدولي[٦٨] : – – – ننتقل الآن إلي محمد علي ، لا يمكن لعصامي مثله الجمع بين طغيان الشخصية وشدة الدهاء إلا**

[٦٨] نقلاً عن كتاب (صفحات من تاريخ مصر) للكاتب الكبير يحيي حقي

أن يكون –رغم أميته– (رجل دولة) بالمعني الحديث لهذا التعبير ، أراد من أول يوم أن يستأثر هو وأبناؤه بحكم مصر لأنه أحبها كما يحب الأكول البطني أكلة شهية ، هي جنته في الأرض ينعم بها قبل أن يأذن له سيدنا رضوان بدخول جنة السماء ، علمي علمك ، فكان لابد له أن يفهم سياسة الباب العالي في استنبول وهي في ذاتها عقدة العقد ، وأن يظل متسمعا لكل همس يدور في سراي (خولمة باغجة) أو (يلديز) وعن طريق سياسة الباب العالي نفذ محمد علي إلي فهم الموقف الدولي في أوروبا ، من الممكن الدفاع عن الرأي القائل أن محمد علي لم يفهم هذا الموقف الدولي حق الفهم وأنه ظل حبيس أفقه المحلي الدائر حول محور (رأس التين–خولمة باغجة) لعل السبب أن أطماعه كانت أقوي من ذكائه ، والطمع يعمي ويصم ، فقد أخطأ في تقدير أن أوروبا ستقف مكتوفة الأيدي تشهده ينشئ أمبراطورية عربية تغير علي الدولة العثمانية فإما أن تحتلها وإما أن تقص جناحها علي الأقل وتنتزع منها الخلافة – – – – وأخطأ في تقدير مدي مساعدة فرنسا له حسبها أنها –وهي مرضعته– ستقف إلي جانبه علي طول الخط ، لم يفهم أن تركة الرجل المريض (الدولة العثمانية) معدة للتوزيع علي دول أوروبا لا علي بلاد أسيا وأفريقيا ، كلها في نظر أوروبا بلاد نيام نيام ، وأن أوروبا وإن اختلفت فهي متفقة علي منع قيام دولة عظيمة في هذا الموقع الذي تحتله مصر – – –

- اتفقوا علي منع قيام دولة عظيمة في هذا الموقع ، هذا كلام يدعو للتأمل بالفعل ، فقد كانت هناك دائماً دولة إسلامية كبري في هذه المنطقة من العالم ، ويتغير اسمها فقط من دولة الراشدين إلي الدولة الأموية إلي العباسية ثم تأسست دول كبري في ظل الخلافة العباسية مثل الطولونية والإخشيدية ثم سيطر الفاطيون لفترة ثم جاءت الأيوبية فالمملوكية فالعثمانية ، وكانت كل دولة تلتهم سابقتها عندما تضعف وتفسد ، وكان قد جاء الدور علي محمد علي ليؤسس دولته وتدور عجلة التاريخ مرة أخري ويلتهم الدولة العثمانية الضعيفة ويؤسس دولة مرهوبة الجانب علي أنقاضها كما فعل سابقيه ، ولكن يبدو أن هذه المرة قد فهم الأوروبيون التاريخ جيداً ووقفوا إلي جانب محمد علي باحساب وحذر وتحت السيطرة ليقضي علي العثمانيين ثم يلتهموه لمنع وجود مارد جديد في المنطقة
- يبدو أن حواري معك قد أثمر بالفعل ، فقد قمت بتحليل للموقف بإيجاز رائع ومركز
- أشكرك ، فهذا بعض ما عندكم ، فماذا أضاف أيضاً الأستاذ يحيي حقي ؟
- يضيف فيقول : – – – فلما توغل إبراهيم باشا في الأناضول وأصبح قاب قوسين أو أدني من استانبول اشتركت أوروبا –في مقدمتها فرنسا– في توجيه إنذارها لمحمد علي بالرجوع إلي جحره والانكماش فيه ، وكان تحطيم أسطول مصر غدراً في موقعة نافارين مثلاً آخر علي اتحاد أوروبا وفي مقدمتها فرنسا علي كبح جماح مصر ، من السهل ربط خيبة أمل محمد علي ببوادر إصابته بالجنون ، لا شك أن الإنذار الأوروبي كان صدمة شديدة له ، والجاهل لا العالم هو الذي يصاب بمثل هذه الصدمة حين يستيقظ علي الحقيقة المرة التي كانت خافيه عليه

- هذا الرأي الأول الذي يفترض أن محمد علي كان لا يفهم الموقف الدولي ، فماذا قال يحيي حقي عن الرأي الآخر ؟
- يقول : – – ومن الجائز الدفاع عن الرأي المضاد القائل أن محمد علي لم يكن غرا حتي يتصور أنه يستطيع إقامة إمبراطورية بمشهد – – من أوروبا التفسير المعقول لسياسته هو أنه أراد أن تكثر في يده أوراق اللعب ولو ضحي في سبيل ذلك بالجيوش والأساطيل كل هذه الأوراق لا تلزمه ولا يطمع في الربح منها إلا ورقة واحدة ، وإنما لابد له أن يحتال لامتلاكها ليساوم بها فيتنازل عنها جميعاً من أجل استبقاء هذه الورقة الواحدة في يده ، إنها ورقة استيلائه علي عرش مصر حقا له ولذريته من بعده ، – – إذا كان محمد علي قد انسحب من الحجاز واليمن وسوريا والأناضول وإذا كان اسطوله قد تحطم فإن هذا كله كان الثمن الذي لابد من دفعه لحصوله علي عرش مصر كان محمد علي يعلم هذا الثمن وكان مستعداً لدفعه ومما يؤيد هذا الرأي أن مودته ومودة خلفائه من بعده لفرنسا لم تتغير رغم كل الذي فعلته ،
- إذن فقد انسحب محمد علي من كل هذه البلاد التي انتصرت فيها جيوشه
- ليس هذا فحسب بل إن الدول الكبرى بعد أن أجبرت محمد علي على الانسحاب من كافة الأراضي التي دخلها الجيش المصري عدا السودان بإجباره علي تخفيض عدد الجيش المصري وتم إجباره علي عدم تصنيع سفن حربية وتكوين أسطول مصري أي بمعني أصح تم تقليم أظافره ،
- في الحقيقة أنا مع الرأي الذي يقول أن محمد علي تم استغلاله لتحقيق أهداف معينة وبعد أن تم تحقيق المطلوب منه قاموا بتقليم أظافره
- وهناك رأي آخر يقول أن الدول الكبري ساعدت محمد علي في البداية عندما أيقنت أن البعد الديني لديه ليس له حساب وأنه من السهل علمنة الدولة علي يديه وإنهاك آخر دولة إسلامية كبري متمثلة في الدولة العثمانية لتقسيمها فيما بينهم كما حدث بعد ذلك وهناك آراء عديدة مختلفة حول شخصية محمد علي التي حيرت المؤرخين فمثلاً يقول الدكتور علي الصلابي (لقد كان الجبرتي معاصراً لسياسة الظلم التي مارسها محمد علي على الشعب المسلم في مصر الذي امتص حقوقه وخيراته وفتح للتجار الأوروبيين الباب علي مصراعيه لدخول مصر والهيمنة علي اقتصادها ، وأصبحت مصر هي المزرعة التي تعتمد عليها أسواق أوروبا من المنتجات الزراعية وارتبطت مصر بأوروبا ارتباطاً حضارياً وتجارياً وأصبح اعتماد طبقة التجار الناشئة في مصر علي الأسواق الأوربية من الناحية الإقتصادية وبالتالي السياسية إلي جانب تمكين دعاة الثقافة الأوروبية من السيطرة علي الحياة الفكرية بعد أن شل دعاة الاتجاه الإسلامي وأوقف مناهج التعليم القائمة علي الدين تنفيذاً لسياسة نابليون الماسونية وهو أمر أكده المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينى في قوله " كان محمد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية

إلي حقائق فعالة في مصر)٦٩ وقد ورد أيضاً عن محمد علي أنه قال للفرنسيين وهو يفاوضهم علي مسألة احتلالهم للجزائر (ثقوا أن قراري – – لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني أنني متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي)٧٠

- فما رأيك أنت في كل ما فعله محمد علي ؟
- لا أُخفي عليك ، لقد كنت أتمني أن ينجح محمد علي في تكوين دولة إسلامية كبري مرهوبة الجانب علي أنقاض الدولة العثمانية ، فمهما يكن من أمر كانت المنطقة ستظل في مأمن من الاستعمار الأوروبي الذي أنهكها فكرياً وأفقدها هويتها وزرع داخلها الكيان الصهيوني إلي الآن وقام برسم حدودها بالمسطرة وفتتها إلي عدة قوميات تكره كل منها الأخري وأمدهم بالسلاح ليتقاتلوا وقام بنهب ثرواتهم ونشر عملاءه بينهم ولكن أمنيتي هذه بالطبع تنتج عن تفكير بشري محدود ويتسم بقصور شديد فكلها أمور وأسباب يسببها المولي عز وجل ، بحكمته التي لان ندركها فقد تكون فتن تخوضها الأمة وابتلاء يميز به المولي عز وجل الخبيث من الطيب والله أعلم ، ومهما كان تفكيرنا فلن نصل أبداً إلي الحكمة من كل هذا ولكننا نثق في الله ونتبرأ من حولنا وقوتنا إلي حوله وقوته وإنا لله وإنا إليه راجعون ، وقد قال سبحانه : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) ٤٤ سورة يونس
- سبحانه وتعال (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) ٢٣ سورة الأنبياء
- إن كل هذا يؤكد ما سبق أن قلته لك ، أنك لن تعرف ما سيحدث ، فافعل ما يجب عليك فعله وسر علي طريق الحق دون أن تشغل نفسك بمعرفة نتائج ما تفعله ، أما دراستنا للتاريخ فتأتي في إطار معرفة كيف تطور الصراع بين الحق والباطل لنتسعد لمواجهة أعداء الأمة كلما قاموا بتغيير أساليبهم القذرة في محاربة الإسلام
- بالتأكيد إن مرحلة محمد علي وما تلاها كانت مرحلة جديدة في الصراع لم تكن القوة وحدها المستخدمة فيه ، فقد أصبحت هناك وسائل أخري لتدمير عقول المسلمين أو تغييبها والسيطرة عليها حتي شعروا بما يسمي بالهزيمة النفسية التي هي أشد تأثيراً من الهزائم العسكرية ، فماذا بعد محمد علي ؟
- تولي إبراهيم باشا حكم مصر في حياة أبيه محمد علي الذي لم يكن يعي ما يدور حوله حتي مات إبراهيم نفسه قبل أن يموت محمد علي
- وهل وافق السلطان العثماني علي تولي إبراهيم باشا حكم مصر
- بالتأكيد فقد كان كل ما كسبه محمد علي من كل إنجازاته ومعاركه أن يظل حكم مصر في الأسرة العلوية كما نصت علي ذلك معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، فلما مرض محمد علي (– – عقد ابراهيم

[٦٩] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤١٤

[٧٠] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤٠٩

باشا مجلساً خاصاً برئاسته واستقر رأي المجلس علي أن يتولي إدارة شئون الحكومة بدل أبيه فتولي الحكم في إبريل سنة ١٨٤٧م وأبلغ الأمر إلي الباب العالي[٧١] فأرسل إليه في يوليو فرمان التقليد ، وقد عني ابراهيم باشا مدة حكمه القصير بتقوية ثغور البلاد وحصونها وتجديد قوتها الحربية ولكن عاجلته المنية في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨م ، توفي وله من العمر ستون سنة هلالية – – وبعد وفاة إبراهيم ولي الحكم عباس باشا الأول ، ومازال محمد علي مصاباً بمرضه العضال إلي أن توفي يوم ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ هـ " ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ " بسراي رأس التين بالإسكندرية ونقلت جثته إلي القاهرة وشيعت جنازته باحتفال مهيب ودفن بمسجده بالقلعة حيث يرقد رقدته الأبدية – –)[٧٢] وهكذا مات الرجل الذي صنع من مصر دولة مستقلة ذات سيادة وبعد أن أسس بها مشاريع عملاقة وهو بلا شك شخصية فذة يندر أن تتكرر في التاريخ (علي أن من الواجب أن نقرر إثباتاً للحقيقة من جميع نواحيها أن الشعب لم يتحرر من الشقاء في عصر محمد علي ، فقد وقع عليه إرهاق ومظالم كثيرة ويحق لنا من هذه الناحية أن نقول إن أعمال الإصلاح التي تمت في عصر محمد علي لم ينتفع بها الجيل الذي عاش في ذلك العصر بل انتفعت منها الأجيال التي توالت من بعده ، أما جيل محمد علي فقد فدحته أعمال السخرة والإرهاق ولم يتذوق طعم الحرية الشخصية ولا حق الملكية فلعلك تذكر أن محمد علي قد تملك كل أراضي مصر ووضع نظام احتكار الحاصلات الزراعية وبيعها ، كما احتكر التجارة والصناعة وقد أساء هذا النظام إلي الشعب إساءة كبري لأنه ضرب عليه حجاباً من الفقر والجمود – – وإذ تكلمنا عن المظالم التي أرهقت الشعب في عهده فمن الحق أن نقول أنها أخف وطأة من المظالم التي كانت تقع في عصر المماليك)[٧٣] كان هذا جزء من رأي المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي في محمد علي وأضاف أيضاً (فإذا نحن نظرنا إلي تاريخ محمد علي في مجموعه حكمنا من غير تردد أنه مؤسس الدولة المصرية الحديثة ومحقق الاستقلال القومي وباعث نهضة الإصلاح والعمران في مصر وأنه من هذه الناحية أكبر بنَّاء في صرح القومية المصرية – – فلو لم يتولي محمد علي حكم البلاد لبقيت رازحة تحت حكم التقهقر والفوضي كما بقيت سائر ولايات السلطنة العثمانية كالعراق وسورية وفلسطين أو لاحتلتها دولة من دول الاستعمار كما احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠م) ،

- علي العموم الاحتلال تم علي أي حال في عهد أحد أحفاد محمد علي
- ويمكن الآن أن نتوقف عن الحديث عن محمد علي باشا وإبراهيم باشا ونبدأ الحديث عن عباس الأول
- هذا الذي يُسمي حي العباسية نسبة لاسمه ؟

---

[٧١] الباب العالي مقصود به السلطان العثماني وحكومته وهو مجرد إجراء شكلي لا يؤثر في تولية ابراهيم باشا حكم البلاد والله أعلم

[٧٢] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ٥٧٣ ، ٥٧٤

[٧٣] عصر محمد علي (الرافعي)– صفحة ٥٦٢ ، ٥٦٣

- نعم ، وهذا الوالي لا تتوفر لدي الكثيرين معلومات عنه ،
- فكيف حكم مصر بعد إبراهيم باشا ، وما أهم ما ميز عصره ؟
- سوف تندهش إذا قلت لك أن عصر عباس الأول كان عصر رفاهية للفلاح المصري
- وكيف ذلك ؟
- لأن أكثر ما يُرهق الفلاح وينغص عليه حياته هو أعمال السخرة والتجنيد والاستدانة من دول أخري والتدخل الأجنبي في البلاد والضرائب وجمع الأموال وهجمات البدو وأعمال النهب والسلب ، وكل ما سبق لم يحدث في عهد عباس الأول
- لا ضرائب ولا سخرة ؟
- إن الضرائب وأعمال السخرة والاستدانة والتدخل الأجنبي وكل ما ذكرته لك من إجراءات يلجأ إليها الحاكم عندما تكون لديه مشروعات كبري وطموحات وحروب كثيرة وأعمال بناء كبري وأهداف يريد تحقيقها وكل هذا لم يكن يحتاجه عباس الأول وبالتالي لم يلجأ إلي هذه الأساليب ، وإليك بعض المعلومات عن عباس الأول وماتم في عصره
- لقد اشتقت لأعرف ذلك بالفعل

عباس الأول ١٨٤٨–١٨٥٤ ورفاهية الفلاح المصري [٧٤]

- ولي عباس الحكم بعد وفاة عمه إبراهيم وفي حياة جده محمد علي إذ كان أكبر أفراد الأسرة العلوية سناً وبالتالي أحقهم بولاية الحكم بعد إبراهيم ، وهو ابن طوسون ابن محمد علي ، ولم يرث عباس عن جده مواهبه وعبقريته ولم يشبه عمه إبراهيم في عظمته – – – وكان محمد علي قد توفي في ٢ أغسطس ١٨٤٩ بسراي رأس التين ونقل جثمانه إلي القاهرة ودفن بمسجده في القلعة ، وكان في استقبال جثمانه جميع أفراد الأسرة الباقين علي قيد الحياة ولم يتخلف سوي عباس ، وخلال الفترة التي حكم فيها عباس والتي استمرت خمس سنوات ونصف غدا عباس غريب الأطوار – – – – – سيئ الظن بالناس ولهذا كان كثيراً ما يأوي إلي العزلة ويحتجب بين جدران قصوره التي كان يتخير لبنائها الجهات الموغلة في الصحراء أو البعيدة عن العمران ، من هذه القصور البعيدة عن العمران القصر الضخم الذي شيده في صحراء الريدانية التي سميت منذ ذلك الحين باسم العباسية نسبة إليه – – – – وفي عهد عباس أصبح الفلاح آمناً في حقله من اللصوص ، ذلك أن عباس قد عني باستتباب الأمن فضرب علي أيدي الأشقياء وقطاع الطرق وطاردهم وعاملهم بقسوة فخشوا بأسه وانقطع دابرهم وأمن الناس شرورهم ، كما أصبح الفلاح آمناً من تصرفات رجال الجندية وأعمال السخرة وذلك لقلة عدد الجيش ولعدم وجود أشغال عامة كحفر القناطر ، وترتب علي قلة المصروفات بسبب هذه الخطة التي

---

[٧٤] نقلاً باختصار عن كتاب (المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر)– د يونان لبيب رزق– المجلس الأعلي للثقافة – الفصل الرابع (مصر بين عهدي محمد علي واسماعيل)– عبد الله محمد عزباوي

اتبعها عباس أن خفت الضرائب ، - - ولم يفرض عباس أي ضرائب جديدة علي الفلاحين ، وفي ذلك يذكر نوبار في مذكراته أن ناظر المالية اقترح عليه فرض ضريبة جديدة وقد سأله عباس : هل ميزانيتنا متوازنة ؟ وجاء الرد أن الميزانية متوازنة بل وهناك فائض في الإيراد وعندئذ قال له عباس : إذن في هذه الحالة ما ضرورة فرض عبء جديد إنها جريمة وخطيئة ،حذار من الآن لا تطرح أمامي مثل هذه الاقتراحات ، وفي عهد عباس ألغي نظام الاحتكار ، فعم الرخاء واغتبط الفلاح بثمرة كده وعمله ، ففي سنة ١٨٤٩ أصدر عباس قراراً بإلغاء احتكار شراء الكتان من الفلاحين وقد جاء في هذا القرار (طلباً لرفاهية الأهالي وفائدتهم كان محصول الكتان بمديرية المنوفية يورد للأشوان الأميرية بسعره المعلوم ولكن ظهر بعد البحث والتنقيب أن هذا الصنف إذا لم يورد في الأشوان ويباع بيد أصحابه يكون أفيد وأولي لراحتهم ولرفاهية الرعية ولذلك قرر المجلس المنعقد يوم الأربعاء ٢٦ ذي الحجة ١٢٦٤هـ في القلعة أن يرخص للأهالي في بيع محصولهم كما يريدون وقد وافق لدينا اتباع ذلك) ، وأعقب إلغاء نظام الاحتكار في عهد عباس أن انطلق التجار الشوام واليونانيون إلي أنحاء الريف المصري سعياً وراء شراء المحاصيل من الفلاحين ، ووجد الفلاحون المجال أمامهم واسعاً لبيع حاصلاتهم وتسلم الثمن نقداً ،

- التجار الشوام واليونانيون شغلوا الفراغ الذي تركته الحكومة ، علي أي حال لقد كان ذلك في صالح الفلاح المصري ، فأنا أعتقد أنه لم يكن يعرف كيف يتصرف في إنتاجه ولمن يمكن بيعه والله أعلم
- وشهد عهد عباس تقدماً من ناحية الإدارة لم يعرفه عهد محمد علي ، فقد انتظمت مرتبات الموظفين بفضل سياسة صارمة في التدبير والتوفير وأصبح الموظفون يتقاضون مرتباتهم في موعدها بعد أن كانوا في أيام محمد علي ينتظرون ١٥ أو ٢٠ شهراً لتسلم هذه المرتبات ، وفي عام ١٨٥٢ شرع عباس في مد السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة ،
- كنت أعتقد أن أول من شرع في مد خط سكة حديد في مصر هو سعيد باشا والخديو اسماعيل فقط
- اعتقد عباس أن جده محمد علي قد أفسح المجال للنفوذ الأوروبي في مصر ولذا فقد مضي في سياسة الحذر من الغرب ، فعمل علي هدم النفوذ الأوربي في مصر ، إذ كان يعتقد أنه إذا ما تحتم عليه الخضوع لأحد فليكن للخليفة العثماني وليس للأوروبيين وكان يري أن النضال بين السلطان والوالي لن يفيد سوي الأوروبيين ولن يؤدي إلا إلي الانهيار التام للإمبراطورية العثمانية بما فيها مصر ، وقد نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا سنة ١٨٥٣ فطلب السلطان عبد المجيد من عباس أن يمده بالجيش والأسطول فلبي عباس طلبه ، وقد أبلي المصريون بلاء حسنا في هذه الحرب التي استمرت إلي عهد سعيد فقد استطاع الجيش المصري أن يكسر هجمات الروس في سنة ١٨٥٤
- ولكن الجميع تقريباً يتهم عباس الأول وعصره بالعديد من السلبيات

- علي الرغم من السلبيات التي شهدها عصر عباس الأول من إهمال للتعليم وإغلاق للمصانع وانحطاط الجيش والبحرية فإن عصره قد تميز بعدم التدخل الأجنبي في البلاد ، وعدم اللجوء إلي الاستدانة ، ولم يترك أي دين علي حكومة البلاد ، ولم يثقل خزانة البلاد بالديون الأجنبية التي كبلها خلفاؤه من بعده وكان يجتهد دائماً في سد عجز الميزانية دون أن يلجأ إلي القروض
- ومات عباس دون أن يعرف أن مصر ستكبلها الديون ويرتع فيها حثالة أوروبا بعد ذلك
- في الحقيقة إن عباس الأول قد مات مقتولاً
- إن هذا ليس بمستغرب بالنسبة لي
- وقد وصل للحكم بعده عمه سعيد الذي كان أصغر منه سناً ولقد تميز عصره بأن أصبح المصريون ضباطاً في الجيش المصري وليس جنوداً فقط كما قام بفتح المجال أمام الغرب وخاصة فرنسا لتطوير البلاد ، وقام بالطبع بتوقيع عقد قناة السويس والذي كان يحتوي علي شروط مجحفة تجبر الجانب المصري علي توفير عمال بالسخرة بدون أجر ،
- فما أبرز الأحداث التي وقعت في عهده غير عقد شركة قناة السويس ؟

الجيش المصري وشجاعة فائقة في المكسيك

- تحت عنوان (من أجل عيون فرنسا) ، كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي ما يلي[٧٥] ؛ من الجائز أن تجامل صديقك في أفراحه فترسل إليه بوكيه ورد أو بطاقة تهنئة ، ومن الواجب أن تجامله في أحزانه وأزماته بعبارات تنم عن المشاركة الوجدانية ، أما أن تجامله بإرسال الجيش ليحارب معه في بلاد بعيدة ، فهذا أغرب أنواع المجاملة التي سجلها تاريخ مصر الحديث ، عندما بعث الوالي سعيد باشا بكتيبة من الجيش المصري لتخوض حرباً مع المكسيك مجاملة لإمبراطور فرنسا نابليون الثالث وفاء لروابط الصداقة بينهما ،
- وما أسباب هذه الحرب ؟
- كان نابليون الثالث يحلم بإقامة إمبراطورية فرنسية في العالم الجديد ، فانتهز فرصة قيام ثورة في المكسيك ضد نظامها الجمهوري وعمل علي إذكاء نارها ، وحاول تحريض إنجلترا وأسبانيا لتدخل بحجة حماية الرعايا الأوروبيين ، فلم تأبه الدولتان لتحريضه ، فتحمل وحده مسئولية التدخل ، بعث بقوات فرنسية تعرضت لهزائم متوالية ، فلما تحرج موقفه لم يجد من ينقذه من ورطته سوي صديقه الحميم سعيد باشا ، وأبت شهامة الوالي المصري أن يعتذر لصديقه بأن من غير المنطقي أن يذهب الجيش المصري ليحارب في بلاد لا تربطها بمصر صداقة أو عداء من بعيد أو من قريب ، وإنما استجاب للاعتبارات الشخصية وقام بتجهيز كتيبة قوامها ١٢٠٠ جندي وضابط تحت قيادة البكباشي السوداني خيرة الله محمد ، وأبحرت الكتيبة إلي المكسيك في عام ١٨٦٣ وخاضت المعارك التي فرضت عليها في

[٧٥] نقلاً عن كتاب (محمد علي وأولاده) تأليف المؤرخ الكبير جمال بدوي

شجاعة تحسد عليها حتي أن القائد الفرنسي وصف أفرادها بأنهم أسود وليسوا جنوداً وبعد أربع سنوات من الحرب اليائسة كانت الكتيبة قد فقدت معظم أفرادها بمن فيهم قائدها ، ولم يبق منهم سوي ٣٠٠ جندي عادوا إلي باريس في صحبة الجيش الفرنسي المهزوم ، فاستعرضها الإمبراطور وأشاد بشجاعة أفرادها وخلع عليهم الأوسمة ، وبعد وصولهم إلي الإسكندرية استعرضهم الخديوي اسماعيل – بعد وفاة سعيد – في قصر رأس التين وأمر بترقية بعض رجالها اعترافاً بشجاعتهم

- هل كان هناك شبه بين سعيد باشا والخديو اسماعيل في أسلوب الحكم ؟

عقد شركة قناة السويس وعندما يكون الخصم هو الحكم

- في الحقيقة أن كلاهما كان يثق في فرنسا إلي درجة غير طبيعية ، فعن هذا الموضوع يقول الأستاذ جمال بدوي[٧٦] : كان سعيد ومن بعده اسماعيل يثقان ثقة عمياء في نزاهة ملوك أوروبا وفرنسا بالذات ، علي عكس مؤسس الأسرة العلوية محمد علي باشا الذي كان شديد الحذر من ناحية الأطماع الأوروبية ، ولم يكن يحسن الظن بهم ، ولا يسمح لهم بالتغلغل في شئون البلاد تحت ستار المشروعات والمصالح المشتركة ، وعمل علي حماية الاستقلال الوطني من الوقوع في براثن النفوذ الأوروبي ، وإن كان الموقف الرافض للهيمنة الأوروبية لم يمنع محمد علي من اقتباس أساليب النهضة الأوروبية في تأسيس مشروعه الكبير ، فبعث البعثات إلي هناك ، واستقدم العلماء والخبراء إلي مصر ليعملوا تحت عينه الثاقبة ، ومضي وريثه عباس الأول علي هديه في مقاومة النفوذ الأوروبي ، وإذا كان عهد عباس يتميز بالجهالة والتخلف والرجعية إلا أن استمساكه بالاستقلال الوطني هو الحسنة الوحيدة التي تذكر له ، فسلم البلاد بعد أربع سنوات شداد إلي من جاء بعده وهي خالية من النفوذ الأجنبي ، فلما كان عصر سعيد نجح دليسبس فيما فشل فيه أيام أبيه ، واستغل ضعف شخصية الوالي الجديد وانبهاره الشديد بالحضارة الفرنسية وصداقته الحميمة مع الإمبراطور نابليون الثالث ، في الحصول علي امتياز شق قناة السويس وإبرام عقد يلزم الحكومة المصرية بأعباء فادحة ، ولم يتريث سعيد في دراسة بنود العقد وتمحيص ما يحتويه من مظالم ، وأسرع بتوقيع العقد ثقة منه في سلامة النوايا الفرنسية
- سلامة النوايا الفرنسية ، كم فقدنا من أنفس وأموال بسبب تلك النوايا
- وكان اسماعيل أوروبي النزعة ، مما جعله يثق في ساستها ورجال المال فيها ، ويعتقد فيهم حسن النية ، ولم يفطن إلي مطامعهم الاستعمارية ، وبلغت به السذاجة أن لجأ إلي صديقه الإمبراطور نابليون الثالث ليكون حكما في النزاع بينه وبين شركة قناة السويس حول الامتيازات الظالمة التي نص عليها العقد في عهد سلفه سعيد باشا
- فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

---

[٧٦] نقلا عن كتاب – محمد علي وأولاده – للمؤرخ الكبير جمال بدوي

- وقد شعر اسماعيل في بداية حكمه بفظاعة الالتزامات التي كبلت مصر بأعباء جسيمة فأزمع إلغاءها إنطلاقا من الشعار الذي أعلنه بأن تكون القناة ملك مصر لا أن تكون مصر ملكا للقناة ، فاعترض علي البنود التي تلزم الحكومة المصرية بتقديم عشرون ألف عامل لحفر القناة بالسخرة وتفرض علي مصر أن تدفع للشركة تعويضات في حالة تقصيرها عن توفير هذا العدد ، واعترض علي إعطاء الشركة حق تملك جميع الأراضي الواقعة علي ضفتي القناة وإعفائها من الضرائب ، ورفضت الشركة الفرنسية التنازل عن هذه الامتيازات ، وحرضت الصحف الفرنسية علي شن حملة ضد حكومة مصر ، وتعضيد حق الشركة في هذه المكتسبات ، وكان من الطبيعي أن ينحاز الرأي العام الفرنسي إلي جانب مصالحه الاستعمارية ومن خلفه دوائر المال والبنوك والحكومة فماذا يعمل خديو مصر إزاء هذا التكتل الاستعماري ؟ ، لجأ إلي صديقه الحميم نابليون الثالث ليكون حكماً في النزاع دون أن يدرك بأن امبراطور فرنسا لا يمكن أن يتخذ موقفا محايدا يعارض المصالح الاستعمارية لبلاده ، وتجاهل اسماعيل الحقيقة البديهية بأن الخصم لا يمكن أن يكون حكما عادلا ، وأن سياسات الدول الاستعمارية لا تعرف الصداقة الشخصية ، وفي عام ١٨٦٤ أصدر الإمبراطور حكمه ويقضي بإلزام الحكومة المصرية دفع تعويضات باهظة إلي الشركة الفرنسية مقابل تعديل بعض بنود العقد ، وبلغت هذه التعويضات ٨٤ مليون فرنك أي ما يعادل ثلاثة ملايين و ٣٦٠ ألف جنيه مصر في ذلك الوقت ، وإذا علمت أن كل رأس مال الشركة هو ثمانية ملايين جنيه ، أمكنك أن تقدر فداحة التعويضات التي حكم بها الإمبراطور وأنها تقارب نصف رأس مال الشركة
- أن تكون القناة ملك مصر لا أن تكون مصر ملكا للقناة ، ليت الخديو اسماعيل قد التزم بهذا الشعار الذي أعلنه
- فماذا عن الاحتفالات التي اشتهر الخديو اسماعيل بإقامتها
- هناك بالطبع الاحتفالات الشهيرة التي أقامها بمناسبة زواج أنجاله
- من المؤكد أنها كانت رائعة ، فهل لديك وصف لها ؟

أفراح الأنجال في عهد اسماعيل

- عن هذا الموضوع كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي رحمه الله في كتابه الممتع أنا المصري ما ملخصه : من الأقوال المأثورة عن الخديو توفيق في وصف أبيه إسماعيل : لن يأتي الزمن بمثله في أبهة الملك وفخفخته السَنية – وهو وصف صحيح يمثل شخصية إسماعيل أصدق تمثيل ، وكل ما تسمعه من أوصاف خيالية عن ألف ليلة وليلة تتواضع إلي جانب ليالي إسماعيل وحفلاته الصاخبة وسهراته المخملية ،
- ليالي اسماعيل تشبه ليالي ألف ليلة وليلة ، سبحان الله

- كان إسماعيل يلتمس – بل يفتعل – المناسبات السعيدة لإقامة الحفلات ، وإذا كانت احتفالات افتتاح قناة السويس قد بهرت ملوك أوروبا وأميراتها فإن أفراح الأنجال فاقت الأولي في بذخها وإسرافها وتواصلها أربعين يوماً بلياليها ، ولا ننسي أن أفراح الأنجال أقيمت بعد أربع سنوات من حفلة القناة ،
- كم كان عددهم ؟
- الأنجال الأربعة كانوا ثلاثة ذكور وفتاة ، أولهم ولي العهد توفيق وعروسه الأميرة أمينة والثاني الأمير حسين كامل وعروسه الأميرة عين الحياة والثالث الأمير حسن واختار له أبوه عروسه الأميرة خديجة وفاء لوعد قطعه لها ، ولهذا الوعد قصة طريفة
- وما هي قصة هذا الوعد ؟
- بدأت القصة عندما كان الخديو يتفقد الدراسة في مدرسة البلاط التي أنشأها لتعليم الأميرات ، ولما وجد التلميذة خديجة أخذ يحثها علي الاجتهاد في تحصيل العلم وحفظ القرآن وبعد سنوات ذهب الخديو لزيارة المدرسة وسأل خديجة عما حفظته من القرآن الكريم فأجابت علي الفور : واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وانبسطت أسارير الخديو لذكائها وحسن تصرفها ، وضحك قائلاً : أجل أجل لن أنسي وعدي واختارها زوجة لابنه حسن
- واضح أنها كانت فتاة ذكية
- أما الابنة الوحيدة التي احتفل الخديو بزواجها فهي الأميرة فاطمة وهي التي سجلت اسمها في التاريخ بسبب التبرعات القيمة التي قدمتها لإنشاء الجامعة المصرية ، ووقائع أفراح الأنجال رواها مؤرخ عصر إسماعيل إلياس الأيوبي نقلاً عن الكتاب الأوروبيين الذين شاهدوا الأفراح ،
- الكتاب الأوروبيون هم من كتبوا عن هذه الإحتفالات شئ عجيب جداً
- بدأت الاحتفالات يوم ١٥ يناير ١٨٧٣ واستمرت أربعين يوماً بمعدل عشرة أيام لكل واحد من الأنجال ، وزينت الشوارع الممتدة من القصر العالي إلي قصر الجزيرة ، إلي سراي القبة ، بالنجف والفوانيس المختلفة الألوان ، وفي نهاياتها أقيمت أقواس النصر تعلوها الشموع ، فسطعت الأضواء حتي جعلت القاهرة شعلة من النور ، وفي أهم الميادين أقيمت المسارح للفرق الموسيقية والغنائية وأهمها فرقة عبده الحامولي ، وفي اليوم الخامس عشر بدأ خروج الهدايا المقدمة من الوالدة باشا وزوجات الخديو إلي العرائس من القصر العالي ويبدأ موكب شوار عروس ولي العهد في حراسة صفوف الفرسان وآلاي من المشاة في ملابس بيضاء ناصعة ، وكانت الهدايا عبارة عن مجوهرات وقلائد من الماس من نوع البرلنتي ومناطق من الذهب الخالص وأقمشة مطرزة باللؤلؤ وزمرد في حجم البيض وآنية متنوعة من الفضة الصب وكان من بين الهدايا المقدمة من الخديو لولي عهده سرير من الفضة الصب الخالصة محلاه بماء الذهب الأبريز وعواميده الضخمة مرصعة بالماس والياقوت الأحمر النادر والزمرد والفيروز

واجتاز الموكب شوارع العاصمة ولم يختلف شوار الأميرات عين الحياة وخديجة وفاطمة عن شوار الأميرة أمينة[٧٧]

- لا أستطيع التعليق علي كل هذا البذخ ، ولكن لماذا يتم استعراض الهدايا في موكب أمام عامة الشعب ، ألا يكفيه أن يري الزينة والأنوار ؟
- لديك كل الحق فلم يكن هناك داعي لأن يري الناس كل هذه الهدايا الثمينة
- ألم يكن هناك شخص واحد في مصر قادر علي أن يقول رأيه بصراحة للخديو اسماعيل ؟
- أعتقد أن الخديو اسماعيل كان آخر من حكم مصر حكم مطلق دون مراعاة لأي ضغوط داخلية أو خارجية ، وذلك علي الأقل إلي أن تم التدخل الأجنبي في مصر بسبب استفحال الديون ، وحتي السيادة العثمانية كانت شكلية إلي حد كبير ، فكان يفعل ما يشاء في مصر دون أن يحاسبه أحد في الداخل والخارج ، أما بعد انتهاء عصر اسماعيل والاحتلال البريطاني فقد أصبحت مصر مقيدة بقوي خارجية تعمل لها مصر ألف حساب ربما إلي الآن
- إذن فقد كان اسماعيل هو من يصح أن نطلق عليه الفرعون الأخير بالفعل
- ومع ذلك فقد أحرجه أحد شيوخ الأزهر أمام الجميع ، وهي قصة طريفة وردت في أكثر من مرجع
- وكيف حدث ذلك ومن هو هذا الشيخ ؟

البتشتي.. القناوي الأزهري الجريء الذي تحدى الخديوي إسماعيل

- إنه الشيخ توفيق محمد خليفة، الذي عُرف بـ''توفيق البتشتي''، وينسب إسمه إلى مسقط رأسه مركز أبو تشت، أول مراكز محافظه قنا ١٨٧٧، وقد كان الشيخ توفيق البتشتي، من الطراز المتميز في تفكيره وطريقة تعبيره وأسلوبه في عرض المسائل العلمية، مما حبب الطلاب فيه، فاتسعت حلقات دروسه، وضاق المكان بالراغبين في علمه، وانفرد برقعة شاسعة من الأزهر، ساعده فيها صوته الجهوري وحنجرته القوية ، وعُرف عنه أنه يرفع راية الحق لا يخشى حاكمًا، ولا يتملق سلطانًا، فحين وقعت الحرب بين مصر والحبشة، في عهد الخديوي إسماعيل، وتوالت الهزائم، وضاق صدر الخديوي، فقال له شريف باشا رئيس النظار: إذا لجأت إلي علماء الأزهر الأطهار وقرأوا البخاري يفرج الله الكرب وينتصر الجيش، فكلم الخديوي الشيخ العروسي، شيخ الأزهر، فجمع له من العلماء الصالحين، وأخذوا يتلون البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر، ولكن أخبار الهزائم ظلت تتوالى وانتصارات العدو تتعاظم، فرجع الخديوي إلي العلماء واتهمهم بأن ما قرأوه إما ليس صحيح البخاري، أو إنهم ليسوا علي مستوى سلفهم الصالح، فسكت العلماء وصرخ البتشتي من آخر الصف ''هُزمنا منك يا إسماعيل، فإنا روينا

---

[٧٧] نقلاً باختصار عن كتاب –أنا المصري– للمؤرخ الكبير جمال بدوي – هيئة الكتاب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ – مقتطفات مختصرة من صفحة ١٠١ وما بعدها

عن النبي (ص) إنه قال: لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم."

- يا له من شيخ جرئ حقاً ، فماذا كان رد فعل الخديوي ؟
- أطرق الخديوي، وانصرف ومعه شريف باشا، ثم رجع أحد مماليكه يطلب الشيخ المتحدث واصطحبه معه إلي القصر، وطلب منه الخديوي أن يعيد ما قاله، فأعاد الشيخ حديثه وشرحه، فتساءل الخديوي: ماذا صنعنا حتى ينزل بنا البلاء؟ فأجابه الشيخ بأن قوانينه تبيح الزنا وترخّصه وكذلك الخمر، فبرر الخديوي بأن تلك العادات نُقلت لهم من -أوروبا-، فرد الشيخ ''إذن فما ذنب البخاري وما حيلة العلماء''، فصمت الخديوي وصدّق على كلامه وكافأه على جرأته[٧٨].
- إن هناك فرق كبير بين أحوال مصر قبل عصر اسماعيل وأحواله بعد عصره ، ولقد اعترف بنفسه أنه قام بنقل عادات أوروبا إلي مصر بحلوها ومرها حتي وصل الحال لما وصفه الشيخ بقوله أن القوانين تبيح الزنا وترخصه وكذلك الخمر وهو لم يكن مقنناً أبداً في مصر قبل ذلك
- لقد كان هناك فرق كبير جداً بين من أحضرهم محمد علي باشا من أوروبا إلي مصر وبين من حضروا في عصر اسماعيل ، فقد كان محمد علي ينقل الخبرات والحضارة والعلم وكل ما ينفع مصر أياً كانت نواياه وأهدافه ، أما اسماعيل فقد حضر في عهده المرابين وتجار الأعراض وحثالة أوروبا ، وشتان بينهم وبين سليمان باشا الفرنساوي وكلوت بك وغيرهم ممن أفاد مصر في عصر محمد علي
- إنه شئ محزن بالفعل لأن عصر اسماعيل أثر علي مصر وشعبها وترك عادات نعاني منها حتي الآن

الخديوي اسماعيل يقلد أوروبا

- لقد كتب الأستاذ جمال بدوي عن هذا المعني فقال ما ملخصه : (كان أقصي ما يريده اسماعيل أن يبدو أمام ملوك أوروبا في صورة الفنجري القاعد علي أموال قارون ثم ينثرها ذات اليمين وذات الشمال ولو عن طريق السلف من بيوت الربا والبنوك الأوروبية وكان هؤلاء الملوك يعرفون الحقيقة المفزعة وهي أن هذه الأموال هي من خزائن بنوكهم وهي بضاعتهم ردت إليهم في أشكال من السفه والبذخ والفشخرة الكدابة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً)٧٩ ، (ومضي اسماعيل في تقليد الأوروبيين في عاداتهم وسلوكياتهم وملابسهم وسهراتهم متناسياً أنه حاكم مسلم يحكم شعباً مسلماً له موروثاته وعاداته وتقاليده وأن تبديل العادات والتقاليد عن طريق الصدمات والطفرات يؤدي إلي نتائج عكسية لأن عملية التطور الاجتماعي تتطلب تهيئة ذهنية وثقافية طويلة المدى ولم يلتفت إلي ملاحظات وانتقادات رجال الدين لمظاهر التفرنج بل بطش بمشايخ الأزهر عندما عارضوه وانتشي بمدائح الكتاب الأوروبيين الذين باركوا سياسته وانهالت مقالاتهم بنزعته التحررية ومسايرته لروح العصر ولم تكن

---

[٧٨] نقلاً باختصار عن موقع حكاية الجنوب – تحت عنوان البتشتي.. القناوي الأزهري الجريء الذي تحدى الخديوي إسماعيل– بقلم سعيد عطية

[٧٩] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٢٢٩

هذه المقالات لوجه الله وإنما مقابل الأعطيات التي كان يغدقها عليهم الخديو والتي بلغت خمسة ملايين جنيه في تقدير بعض المؤرخين)[٨٠]

- سبحان الله ، منذ ذلك العصر كانت هناك مقالات مدفوعة الأجر ، فما قصة مجلس النواب الذي تم تأسيسه في عصر اسماعيل ؟
- لقد كان يريد اسماعيل أن يتباهي أمام ملوك أوروبا بأن لديه برلمان مثلهم ولكن حدث ما لم يكن يتوقعه من هذا البرلمان ، فكأنما قام بتحضير عفريت ولم يتمكن من صرفه كما يقولون
- فماذا حدث ؟
- لقد كتب الأستاذ جمال بدوي عن هذا الموضوع ما ملخصه : (هل كان اسماعيل وهو يضع لبنات مجلس شوري النواب يتوقع أن ينقلب الهزار إلي جد ؟ وأن يتحول هذا المجلس الضعيف المسالم إلي شريك مخالف شرس ؟ وأن يصيح أحدهم في وجه الطاغية حين أراد فض المجلس دون النظر في الميزانية : أننا هنا سلطة الأمة ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب (!!) قالها عبد السلام المويلحي في صباح يوم الخميس ٢٧ مارس ١٨٧٩ م عندما توجه رياض باشا وزير الداخلية ورمز الاستبداد وهو منتفخ الصدر إلي قاعة مجلس النواب بالقلعة ليتلو قرار فض الدورة حتي تكتمل المؤامرة التي دبرها رئيس الوزراء نوبار باشا مع الوزيرين الدخيلين – الإنجليزي والفرنسي – لإعلان إفلاس مصر كحل أخير لأزمة الديون الأجنبية وعلمت العناصر الوطنية في المجلس بما تدبره الحكومة في الخفاء ، فأعدوا مشروعاً مضاداً يقضي أن يلتزم المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومي بشرط تنظيم الشئون المالية وإصلاح مفاسد الإدارة بعيداً عن الوزيرين الأجنبيين)[٨١] وبالرغم من مغادرة رياض باشا المجلس غاضباً ظل المجلس في حالة انعقاد وتناوب الأعضاء علي المبيت في القاعة حتي استقالت الحكومة
- لم أكن أعرف شيئاً عن هذا الاعتصام الذي قام به النواب في عصر اسماعيل
- لقد كان هذا درساً للحكام بعد ذلك كما سنري في عهد الملك فؤاد ، فقد كان عندما يحل المجلس يقوم بإرسال قوات تحاصره حتي يمنع الأعضاء من الاجتماع والاعتصام به ، ومع ذلك كانوا يجتمعون في أماكن أخري ، والآن لقد حان الوقت لنترك الحديث عن الخديوي اسماعيل ونتحدث عن عصر ابنه توفيق
- لا مانع ولكن أريد أن نتوقف قليلاً عند التوغل الأجنبي في مصر في عصر أبناء محمد علي ، لأنه موضوع خطير أدي إلي وجود محاكم خاصة بهم وامتيازات خاصة بهم في مصر
- إن ما حدث يسمي الاستعمار الإستيطاني وقد كتب عنه الدكتور جمال حمدان

---

[٨٠] محمد علي وأولاده(جمال بدوي) صفحة ٢٢٩

[٨١] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ١٥٠

- فماذا كتب عنه ؟
- ورد عن هذا الموضوع في كتاب مختارات من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان ما ملخصه : كانت خطوط الملاحة ، وكل أنواع السفن تنقل حمولاته البشرية النهمة ، لتلقي بها علي أرصفة الإسكندرية ، التي أصبحت بوابة الاستيطان وأكبر مراكزه ، – كذلك فلعل منها عناصر طيبة صالحة بالمستوي العلمي والفني أو بالمقياس الأخلاقي ، لكن تلك هي الأقلية النادرة ، الاستثناء الشاذ ، فالمسلم به حتي بإجماع المؤرخين الأوروبيين أنفسهم ، أنها في معظمهما تمثل مجاج الشمال ونفاية أوروبا وحثالة البحر المتوسط ، فتقريباً معظم هؤلاء المهاجرين الأوروبيين كانوا من المغامرين والأفاقين ، وأصحاب السوابق والمزورين واللصوص والمجرمين والهاربين من يد العدالة من كل صنف بلا تعليم أو حرفة أو مهنة غالباً وبلا أخلاق علي الأغلب وعلي الأفضل من المرابين والسماسرة وأصحاب الأعمال المشبوهة والكل تقريباً لا هدف له إلا أن يصنع ثروة بالحلال أو الحرام ، والحرام بالدرجة الأولي ، وذلك في ظل الامتيازات الأجنبية وعصر القناصل أو العصر الذهبي للقناصل
- يا لها من كارثة حلت بمصر
- ومما له دلالته أن بعضهم كان يغير اسمه في مصر ومعظمهم يخفي اسم عائلته وحتي أكثرهم احتراماً بين المستعمرة الأوروبية لم يكن فوق الشبهات وكان من أصل مشكوك فيه – – – ويكاد المرء يخلص من هذا كله إلي أننا إلي حد بعيد إزاء مافيا عظمي ، إلا أنها للتناقض والأسف مافيا فوقية لا سفلية ، علي قمة المجتمع الضحية ، لا في قاعه كما ينبغي علي الأقل ، وهذا بدوره ما يضع أيدينا علي خلاصة الاستعمار الاستيطاني في مصر ، – – ، وعلي الجملة يمكن القول إن الجاليات الأوروبية في مصر كانت تمثل وجه أوروبا القبيح بمثل ما أن الاستعمار عموماً هو الوجه القبيح للحضارة الأوروبية الحديثة ، وإذا صح أن الامتيازات الأجنبية كانت جديرة بأن تفسد رجالاً أفضل منهم ، فالصحيح أيضاً أنهم كانوا عناصر فاسدة بالأصل ، وإذا كان البعض يزعم أنه لم يكن بديل لهذه الجاليات كأداة للتحضير والاحتكاك الحضاري والأوربة فإنه حقاً لثمن باهظ جداً بل ورهيب ذلك الذي دفعته مصر مادياً ومعنوياً ، إنسانياً وبشرياً في سبيل الحصول علي الحضارة الحديثة ، فعلي المستوي المعنوي والاجتماعي فإن المستعمرة الأوروبية رغم أصولها الاجتماعية السفلي جاءت لتفرض نفسها في مصر أرستقراطية طبقية دخيلة علي قمة الهرم الاجتماعي الوطني ، كمجتمع فوق المجتمع ، بل ولتتحول بفضل الامتيازات الأجنبية ونظام الحماية والمحاكم المختلطة إلي دولة داخل الدولة تكاد تمثل في مواطنها الجديدة نوعاً من الامتيازات الإقليمية التي عرفتها مواني الشرق الأقصي في وقت معاصر – – من ناحية أخري ، وبحكم الحاجز الديني فإنهم كانوا وظلوا أيضاً مجتمعاً معزولاً مغلقاً علي نفسه ، أشبه بالمعسكرات ، غير قابلة للاختلاط –التزاوج– أو الذوبان في المجتمع الوطني حتي مع الأقباط ، والنتيجة الصافية هي مجتمع منقول بكامل جذوره وبيئته ومناخه الحضاري والاجتماعي باختصار جزر

أوروبية فرضت علي الأرض المصرية ، قطعة من أوروبا في مصر ، التي لم تصبح بهم علي أية حال قطعة من أوروبا

- إن ما كتبه د جمال حمدان يعبر عن مأساة كبري عاشتها مصر بعد انتهاء عصر محمد علي وإبراهيم وعباس الأول بلا شك وتزايدت وتعاظمت في عهد اسماعيل ،
- بالفعل لقد أصبحت هذه الأمور في نهاية عصر أسرة محمد علي من المسلمات وخاصة في عصر فؤاد وفاروق بعد ذلك كما سنري إن شاء الله
- حسناً يمكننا الآن أن نبدأ الحديث عن الخديوي توفيق الذي قام السلطان العثماني بتعيينه بعد أن عزل أبيه ، والذي في عهده تم الاحتلال البريطاني لمصر إثر قيام الثورة العرابية كما هو معروف

عندما تولي الخديوي توفيق حكم مصر

- هو محمد توفيق بن اسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي ، ولد يوم الخميس ١٠ رجب سنة ١٢٦٨ هـ الموافق ٣٠ ابريل سنة ١٨٥٢ م ، ولما شب وترعرع ألحقه والده بمدرسة المنيل فتلقي فيها العلوم الأولية ، ثم انتقل إلي المدرسة التجهيزية فتلقي فيها علومها ، ودرس اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والتركية والفارسية وتزوج سنة ١٨٧٣ بالأميرة أمينة إلهامي كريمة الأمير إبراهيم إلهامي نجل عباس باشا الأول ، ولم يتزوج من غيرها ، ورزق منها سنة ١٨٧٤ بالأمير عباس حلمي – الخديو عباس حلمي الثاني – وفي سنة ١٨٧٦ بالأمير محمد علي
- الأمير محمد علي صاحب القصر الشهير في المنيل بجزيرة الروضة ؟
- نعم ، ثم رزق منها بالأميرتين خديجة ونعمت ، ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره قلده أبوه رياسة المجلس الخصوصي الذي كان بمثابة مجلس الوزراء ، ثم ولي وزارتي الداخلية والأشغال ومرن قليلاً علي أحكام الإدارات والدواوين ، ثم قلد رئاسة الوزراء في ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ عقب سقوط وزارة نوبار باشا حين اشتد النزاع بين اسماعيل والدول الأوروبية ، وكانت هذه الوزارة تضم وزيرين أوروبيين ، أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي ، ولم تدم طويلا إذ قام الخلاف بينها وبين مجلس شوري النواب ، واستهدفت لحركة معارضة قوية انتهت بسقوطها وتأليف وزارة محمد شريف باشا الأولي في سنة ١٨٧٩ ، وهي الوزارة التي بقيت تتولي الحكم إلي أن خلع اسماعيل ، فلما ورد النبأ البرقي بخلعه يوم الخميس ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ تلقي توفيق باشا في اليوم ذاته نبأ إسناد منصب الخديوية إليه ، وكانت سنه إذ ذاك ثماني وعشرين سنة هجرية إلا ثلاثة أيام ، فأقيمت حفلة تنصيب في مساء ذلك اليوم بالقلعة ، وكان يوماً مشهوداً ، فتوجه من سراي الإسماعيلية إلي القلعة يصحبه في عربته أخواه الأمير حسين كامل باشا – السلطان فيما بعد – والأمير حسن باشا ، وشريف باشا رئيس مجلس الوزراء ، تتبعه عربات الأعيان والكبراء وقناصل الدول ، وابتدأ إطلاق المدافع إيذاناً بتحرك الموكب من سراي الإسماعيلية ، وأطلقت مائة مرة ومرة ، اتباعاً للرسوم المعتادة ولما بلغ سراي القلعة جلس في

قاعة التشريفات وكان بها كبار العلماء والموظفين والقناصل والأعيان ، وتلقي تهاني المهنئين بجلوسه علي العرش ، وبعد الفراغ من الحفلة أطلقت المدافع ثانية مائة مرة ومرة ، وعاد الخديو إلي سراي الإسماعيلية ، ولم يكن في ماضي توفيق قبل ولايته الحكم ما يسترعي النظر أو يدل علي اتجاه معين في سياسته ، علي أن هذا الماضي كان يبعث الأمل في أن يكون عهده خيرا من عهد اسماعيل ، فقد شهد المتاعب التي استهدفت لها البلاد بسبب إسراف أبيه وتورطه في القروض ، وتولي الوزارة في ظروف اشتد فيها نفوذ الدول الأوروبية بسبب هذا الإسراف ، ورأي بعينه ما فرضته إنجلترا وفرنسا علي أبيه من أن يكون لهما وزيران يمثلانهما ويحميان مصالح الدائنين من الأوروبيين ، وكان له في استقامته الشخصية وميله إلي الاقتصاد ما يجعله بمنأي عن أخطاء أبيه

- فما هي مشكلته إذن ؟
- علي أن ثمة ناحية ضعف في شخصيته ، وهي أنه كان ضعيف الرأي مترددا ، قليل الشجاعة والحزم ، فاستشعر الخوف من النفوذ الأوروبي من يوم توليته الحكم ، وكان همه الأول طوال عهده النزول علي إرادة الدول الأوروبية ، ولم يكن مؤمناً بالنظام الدستوري ، بل كان في خاصة نفسه من أنصار الحكم المطلق ، ومن ذلك كله تولدت في عهده الأزمات والمشاكل التي جاوزت في خطورتها وعواقبها ما حدث في عهد أبيه ، وفي الحق أن اسماعيل كان أكثر شجاعة واقداما من توفيق ، ولو كان توفيق يجمع إلي خصاله الطيبة شجاعة أبيه ، وجرأته وعلو همته لنجت البلاد من الكوارث التي وقعت في عهده ، ولتغير مجري التاريخ القومي إلي خير مما كان وأقوم ،
- كان اسماعيل حاكم قوي ولكن له تجاوزات خطيرة ، أما توفيق فقد له خصال طيبة لكنه كان حاكم ضعيف ،، سبحان الله
- كان محمد شريف باشا ، الوزير المشهور رئيسا للوزارة حين ولي توفيق باشا الحكم ، فقدم استقالته جريا علي العادة المتبعة عند تغيير ولي الأمر ، ولكن توفيق باشا رغب إليه في البقاء وتأليف الوزارة مرة أخري ، وكتب إليه في هذا الصدد بتاريخ ٢ يوليه سنة ١٨٧٩ كتابا رقيقا يؤكد فيه ثقته ويعرب عن آماله في الإصلاح ، قال فيه : يا وزيري العزيز ،،،،، لقد استعفت الوزارة فأكلفك بتشكيل وزارة جديدة ، ولا أزيدك بحقيقة الحال علماً ، ولما قضت العناية الأزلية بتوليتي أمر بلادي جعلت علي واجبات ليس من همي إلا النهوض بها بأمانة وشهامة علي علمي بمقدار صعوبتها وجسامة المطاليب المتراكمة علي مع الارتباك والفترة المالية التي انزعجت منها الخواطر إذ وقفت حركة التجارة وأوجدت فترة في البلاد لم تقع في مصر من قبل ، علي أني عظيم الميل إلي بلادي شديد الرغبة في تحقيق آمال الأمة التي أظهرت السرور بولايتي وفي إخراجها من هذه الحال السيئة ، ومع هذه العواطف فإني عازم عزما أكيدا علي بذل الجهد وصرف الهمة إلي التماس أحسن الوسائل لإزالة هذا الاختلال المفسد لكثير من المصالح ، وذلك بتقرير الاقتصاد الحق القانوني في نفقات الحكومة ورعاية الأمانة

والاستقامة في الخدمة العمومية وإصلاح شئون الهيئة القضائية والهيئة الإدارية ، تلك هي الوسائل الأولي التي يهمني اتخاذها لتقوي بها المملكة علي استرجاع قوتها وتوسيع موارد ثروتها وإنجاز وعودها ووفاء عهودها ، إلا أن إدراكي لهذه الغاية التي هي موضوع آمالي يتوقف علي مساعدة الأمة بجملتها ووجود الغيرة الوطنية في قلوب مأموري الحكومة وصدق العزيمة في الذين يساعدونني علي إدارة الأعمال مسئولين عما يفعلون ، ويقيني أن لا أفقد هاته المساعدات ولا أعدم من الله الكريم مدداً وأنك ستنهض بما كلفتك به علي الوجه الموافق لنيتي وللغاية التي أسعي إليها ، فاقبل يا وزيري العزيز تأييد مودتي الصادقة ،،،،،،،،،، محمد توفيق[٨٢]

- إنها رسالة رقيقة بالفعل ولكن لا أدري لماذا أشعر من كلامه بمدي قلقه مما هو قادم عليه ، ولكن قبل أن نستكمل الحديث عن أهم الأحداث في عهده ، هل توجد أي مواقف طريفة حدثت في عهده تشبه ما كان يحدث في عهد أبيه
- يحضرني موقف طريف كتبه الأستاذ يحيي حقي كالآتي : - - مر الخديو توفيق بالقطار الملكي علي منفلوط ذات يوم وخرج الأعيان لاستقباله بالمحطة وتقدم إليه شاعر منفلوط حينئذ الشيخ أبو النصر واستأذن أن يلقي بين يديه قصيدة للترحيب ، فتنازل الخديو وأذن له ، وربما فعل لعلمه بأن القطار لن يقف بالمحطة إلا دقائق معدودة ، ولعله كان يعرف الشاعر إذ كانت له شهرة مستفيضة في خفة الدم والظرف والفكاهة ، وبدأ الشاعر تلاوة قصيدته ، بيتاً بعد بيت ، والخديوي يهز رأسه بالرضي والإعجاب ، ثم يصبر ، والشاعر ماض لا يفتر عن التلاوة ، تتلاحق الأبيات ، دون أن تلمع بارقة أمل في قرب الختام ، فتململ الخديوي وانتقل غليان القاطرة وضجرها إليه بالعدوي ، فقاطع الشاعر قائلاً بضيق يقنعه بابتسام : - هي القصيدة كام بيت يا شيخ أبو النصر ؟ ، فأجابه كلمح البرق : - ٩٩ يا أفندينا ، هذا جواب لا يمكن السكوت عليه بل يثير بلا تردد سؤالاً لا مفر منه ولا يختلف فيه اثنان ، فارتفع حاجب الخديوي واختلجت عينه وقال بعجب : - طب وماخلتهاش ١٠٠ ليه ؟ ، فكان الرد أسرع من سابقه : - أصلي ناقصني بيت يا أفندينا ، ففهم الخديوي - - هذه التورية وابتسم لها وأقطعه بيتاً في منفلوط ، مكافأة للشاعر علي لباقته وظرفه ، ولينقذ نفسه -علي الأقل- من قصيدة لا تنتهي٨٣
- أقطعه بيت في منفلوط ، إن هذا الموقف يجعلك تشعر بأنه قد ورث مصر عن أبيه وأجداده ، فماذا حدث بعد ذلك ؟
- يقول الأستاذ محمود السعدني في كتابه الرائع (مصر من تاني) : (وفي هذه الأثناء مر علي مصر رجل كالأنبياء ، قاطع كالسيف واضح كالشمس هو جمال الدين الأفغاني وتعجب من الحال التي وصلت إليها مصر شعب صابر ومسالم وحاكم فاجر وعصابة من اللصوص الأجانب وجلس الرجل الذي كانت

---

[٨٢] نقلا عن كتاب - الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي - تأليف عبد الرحمن الرافعي - دار المعارف

[٨٣] نقلاً عن كتاب خليها علي الله للكاتب الكبير يحيي حقي - مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ - صفحة ٢٣١-٢٣٣

الثورة حرفته علي مقهى متاتيا بميدان العتبة الخضراء يبث تعاليمه في تلاميذه الذين التفوا حوله يعدون أنفاسه ، ويسجلون كل حرف يخرج من بين شفتيه وكان الرجل يصرخ في وجه تلاميذه عجبي علي هؤلاء المصريين يجري النيل في بلادهم بينما أبدانهم المتسخة تفوح برائحة العفن إنكم تعيشون عيشة البهائم بينما جلادوكم يعيشون عيشة الملوك إنه خير لكم لو توقفتم عن شق بطن الأرض لتزرعوها وتشقوا صدور أعدائكم ، ولو انتصرتم لغنمتهم كل شئ ولو خسرتم فلن تخسروا إلا البؤس والفاقة ، وكانت دائرة التلاميذ تتسع كل يوم حتي ضاق المقهى بالرجل وتلاميذه وكانوا خليطاً من أنواع شتي ، طالب الدين محمد عبده ، - - والشاعر محمود سامي البارودي ، والفلاح محمد عبد العال الصعيدي ، والصعلوك الظريف عبد الله النديم ولفتت الندوة انتباه السلطة وجذبت رائحتها جواسيس الحكومة)[٨٤] وتم القبض علي الأفغاني وإبعاده عن مصر

- إن كلمات الأفغاني فيما أعتقد كانت تعبر أبلغ تعبير عن ما يحدث في مصر ، وطالما وصلنا للحديث عن عرابي ، فقد حان الوقت للحديث عن الثورة العرابية ، فماذا لديك عنها ؟

الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي

- أعتقد أن هناك تلخيص بليغ لأحداث الثورة العرابية ورد في مقدمة كتاب عبد الرحمن الرافعي ، وهذا التلخيص قد يغنينا عن الكثير من الكلام عن هذه الثورة ، حيث كتب ما يلي : - - - للثورة العرابية كما لكل ثورة أنصار وخصوم ، فلها أنصار يتحيزون إليها ويسوغون مواقفها كلها علي السواء ، ويدافعون عن رجالها في كل ما عملوا ، كأنهم علي حق في الخطأ والصواب جميعاً ، ولها خصوم يتحاملون عليها فينكرون حسناتها ويعدون عليها السيئات ، وإنك لتلمح هذا التحامل أو ذلك التحيز فيما تطالع من مختلف المؤلفات والمذكرات عن الثورة العرابية ، ولقد بدا لي إزاء هذه الآراء المتباينة أن أدرس الثورة من غير سابق حكم عليها ، لأنتهي إلي رأي يهدي إليه البحث والتمحيص ، وهذا ما أدعو إليه كل محب للحقيقة ، وبذلك نجلي الغموض الذي يلابس كثيراً من حوادث الثورة ، ونجعل منها صفحة واضحة من عبر الماضي ، فإن التجارب خير هاد إلي ما ينفع الأمم في حياتها القومية ، وهي العلم الذي لا يعلمه إلا الزمن ، علي أني حين أخذت في دراسة الثورة قد اختلج في نفسي شعور ملازم من العطف عليها ، لأنها علي ما كان من نهايتها فإنما قامت في الأصل لغرض نبيل هو إنقاذ الأمة من مظالم الاستبداد ، وإقامة قواعد الحكم الدستوري ، وتحرير البلاد من التدخل الأجنبي ، لكن هذا الشعور لم يصرفني عن تعرف أخطائها وزلاتها ، وبخاصة أخطاء زعمائها وأقطابها ، لأن هذه الأخطاء كان لها دخل أيما دخل فيما صارت إليه من الحبوط والإخفاق ، وخلاصة ما انتهيت إليه في هذه الناحية أن للثورة مرحلتين مختلفتين ، فالمرحلة الأولي تبدأ بظهورها علي عهد وزارة رياض باشا في فبراير ١٨٨١ ذلك حين اعتقلت الحكومة أحمد عرابي وصاحبيه علي فهمي وعبد العال حلمي -- فثار

---

[٨٤] مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ١١١

زملاؤهم -- وأطلقوا سراحهم ، فاضطربت الوزارة لهذا الحادث الجلل ، واضطر الخديو توفيق باشا إلي الإذعان لمطالب الثوار ، فاستقال عثمان رفقي باشا وزير الحربية ، وعين بدله محمود باشا سامي البارودي الذي كان موضع ثقة العرابيين ، فكان ذلك أول انتصار للثورة ، وبعد فترة من الهدوء الظاهري عادت الحرب سجالاً بين الخديو – – والعرابيين فكانت الوقفة الشهيرة للثورة العرابية – – في ميدان عابدين يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، وقدموا للخديو مطالبهم – – ، وأهم هذه المطالب سقوط وزارة رياض باشا ، وتأليف مجلس النواب ، فاضطر الخديو إلي النزول علي حكمهم ، واستقالت وزارة رياض ، ثم عهد الخديو إلي شريف باشا تأليف الوزارة تحقيقاً لإرادة العرابيين ، فألف شريف وزارته الدستورية ، ودعا إلي إنشاء مجلس نيابي كامل السلطة ، فاستجاب له الخديو وأمر بإجراء الانتخابات العامة ، وانتخب مجلس النواب ،

- تم انتخاب مجلس نواب ؟
- نعم ، وافتتحه الخديو يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ فكان افتتاحه يوماً مشهوداً في تاريخ الحركة القومية ، وأخذ يضطلع بمهمته ، تتعلق به الآمال وترنو إليه الأبصار ، وعرض عليه شريف باشا الدستور الذي وضعه سنة ١٨٧٩ ليقر ما رآه في شأنه ، أي أنه جعل من المجلس جمعية تأسيسية تضع الدستور وتقره ، وبذلك نالت البلاد مجلساً نيابياً تتمثل فيه سلطتها الدستورية والتشريعية ،
- رائع
- إلي هنا سارت الأمور سيراً حسناً ، فكانت علي صراطها المستقيم ، وانتصرت الثورة علي طول الخط ، وحققت أمال البلاد ، ولكنها استهدفت لدسائس السياسة الاستعمارية التي لم تكن تنظر بعين الرضا إلي قيام النظام الدستوري في مصر ،
- بالتأكيد فالنظام الدستوري في مصر لن يكون في صالح إنجلترا وفرنسا
- فأخذت الدولتان الإنجليزية والفرنسية تلقيان العقبات والعراقيل في سبيل استقرار هذا النظام ، وتنتحلان لأنفسها التدخل في شئون البلاد ، وكان أول مظهر لهذا التدخل مذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ التي قدمتها الدولتان وقوامها أنهما حيال الحوادث الأخيرة قد أجمعتا علي تأييد سلطة الخديو ، ثم عارضتا في تخويل مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، بحجة أن تقريرها يمس حقوق الدائنين أو ينال منها ، وهي حجة واهية ظاهرة البطلان ، لما تضمنه الدستور من أن المجلس يراعي في تقرير الميزانية العهود والاتفاقات المالية التي ارتبطت بها الحكومة إزاء الدول ،
- بالتأكيد كان بقاء الميزانية في يد الخديوي من مطالب انجلترا وفرنسا ، فمن السهل السيطرة عليه ولكن من المستحيل السيطرة علي مجلس نواب منتخب يعمل لصالح البلاد
- واجهت البلاد أزمة سياسية خطيرة نشأت عن تقديم مطالب الدولتين ، وكان مجلس النواب ينظر وقتئذ في الدستور الذي عرضه عليه شريف باشا تمهيدا لإقراره ، فرأي شريف باشا ، درءاً للأزمة أن يؤجل

مجلس النواب قراره النهائي في المادة المتعلقة بالميزانية ، ويرجئها إلي حين ، حتي تنجلي الغمة ويفاوض الدولتين في مطالبهما ، والتأجيل في ذاته لم يكن مضيعاً لحقوق الأمة في الدستور ولا مخلاً به ، لأن وضع الدستور في صيغته النهائية قد يستغرق وقتا يطول أو يقصر علي حسب الأحوال والملابسات ، فكان من المستطاع اتقاء الأزمة بتأجيل البت في هذه المادة ، ولكن ظهر في الميدان عامل جديد كان له أثره في تطور الأحداث

- وما هو هذا العامل من وجهة نظر الرافعي ؟
- هو طموح محمود باشا سامي البارودي في رئاسة الوزراء ، ورغبة العرابيين في التخلص من شريف باشا ليجعلوا الوزارة مؤلفة من خاصة رجالهم ، فاتخذوا من طلبه تأجيل البت في مادة الميزانية وسيلة لتوهين مركزه ، وبدت منهم الرغبة في إقصائه عن الحكم ، – – ، مما دعاه إلي تقديم استقالته ، فقبلها الخديو وتألفت وزارة البارودي ، ومن ثم ابتدأت المرحلة الثانية للثورة
- فترة اضمحلال الثورة
- ومن رأيي أن الثورة أخذت تتعثر في سيرها منذ بدء هذه المرحلة ، وأن زعماءها أخطأوا في تنحية شريف باشا عن الحكم لأنه كان أقدر من سواه علي معالجة الأزمات وإحباط الدسائس والمؤامرات التي كانت تدبرها السياسة الاستعمارية الإنجليزية ، كانت هذه الدسائس والمؤامرات أهم العوامل في إخفاق الثورة العرابية ، إذ لا نزاع في أن الحكومة الإنجليزية قد انطوت علي نية نمت عليها الحوادث التي تعاقبت في ذلك العهد وهي خلق الأسباب والذرائع الباطلة لاحتلال البلاد ، علي أن مصر كانت تستطيع أن تحبط هذه المؤامرات وتنجو من أشراكها أو علي الأقل تخفف من عواقبها ، ولو أنها عرفت كيف تواجهها ، فإنه ما من أمة إلا وهي عرضة لمؤامرات خصومها المتربصين بها ، وليست تخلو أمة من أحداث تستهدف لها في حياتها السياسية والقومية ، وأنما يختلف مصير الأمم تبعاً لمقدرة كل منها علي مواجهة الأزمات والتغلب عليها ، وعندي أن أول ما استعانت به السياسة الإنجليزية في تدابيرها هو وقوع الانقسام بين الخديو والعرابيين ،
- الانقسام ، هذه الكلمة من أكثر الكلمات وروداً في تاريخ مصر
- إن هذا الانقسام قد فتح الثغرات لتدخل الإنجليز ، كما أنه أضعف قوة المقاومة في البلاد ، إذ انقسمت إلي معسكرين كلاهما يبغي الكيد للآخر ويضمر له ، في وقت كان الإنجليز يعدون فيه العدة للقضاء علي المعسكرين معاً
- القضاء علي المعسكرين معاً
- يضيف الرافعي : – – ولا تتسع مقدمة الكتاب للإسهاب في تفاصيل هذا الانقسام ن ولكني أذكر هنا خلاصة رأيي في هذا الصدد ، وهو أن العرابيين والخديو كلاهما لم يقدر مضار الانقسام ولم يتبين

عواقبه ، وكلاهما يتحمل تبعته ومسئوليته ، ففي الحق أن تبعاتهما من هذه الناحية تكاد تكون متعادلة متكافئة ، ولكن من الحق أيضاً أن نقول أن الموقف قد تغير منذ ضرب الإسكندرية ،

- يقصد بداية الاحتلال البريطاني لمصر ؟
- نعم – – إذ انحاز الخديو إلي الجيش الإنجليزي وساعده علي التغلغل في البلاد ، فهو المسئول عن هذا الموقف ، علي أن الذي يؤخذ علي العرابيين في مدة الحرب أنهم لم يبذلوا من المدافعة والاستبسال فيها ما يثير في الأمة روح الإقدام والتضحية مما هو أخص واجبات زعماء الثورة في ساعة الخطر ،
- وما الأسباب التي جعلت العربيين لا يوافقون علي شريف باشا ، هل كانوا بالفعل يطمعون في السلطة؟
- طموح العرابيون إلي السلطة كان رأي الرافعي ولكن هناك رأي آخر يقول : (أدركت القوي الاستعمارية مدي اتساع وعمق وقوة الثورة وكان عليها أن تناور الثورة لتطويقها وهي خطة استعمارية تقليدية ، أي أن تقبل تلك القوي المطالب الشكلية للثورة في سبيل ضرب الثورة وإلهائها عن مطالبها الجوهرية ، والمطلوب الجوهري للثورة كان تصفية النفوذ الأجنبي ، – – وما دام مد الثورة قد أصبح عالياً جداً فلابد من تقديم حكومة وطنية ولكن غير ثورية ، أي تقديم حكومة لا يرفضها الثوار ولكنها حكومة عاجزة عن إدارة الصراع مع النفوذ الأجنبي بالأسلوب الثوري أي بالأسلوب القادر علي إنهاء هذا النفوذ وهكذا جاءت وزارة شريف باشا ، شريف باشا يمثل قطاع من الوجهاء يؤمن بالحياة النيابية ويؤمن بالدستور ويحاول أن يحقق نوعاً من الاستقلال ولكن عن طريق المناورات السياسية والنضال القانوني واللعب علي التناقضات الدولية ،
- وأعتقد أن هذا أسلوب الرافعي نفسه كسياسي لذلك كان مع استمرار شريف باشا في الوزارة
- وإذا كانت القوي الاستعمارية بداهة لم ترد ولن تريد للشعوب المسلمة أو المستضعفة شيئاً من الحرية ولا الحياة النيابية فإنها في ظروف المد الثوري يمكن أن تقبل بهذه الأشياء بهدف كسب الوقت وتهدئة الثوار تمهيداً لتصفيتها فيما بعد ، وكانت وزارة شريف هي النموذج الأمثل لهذا الأمر في ذلك الوقت ، وهذا الأسلوب كان هو الشئ الوحيد المتاح لإيقاف عجلة الثورة – – – كان شريف باشا هنا هو نقطة التوازن بين جميع القوي فهو أولاً يمثل طائفة من الوجهاء والمثقفين لا ترتبط بمصالح مع الشعب الثائر وهي أيضاً أوروبية الثقافة والأساليب ، وهي ثالثاً لا تملك ولا ترغب في إثارة الجماهير ودفعها للثورة أو حتي المشاركة في الحياة السياسية وهي رابعاً بحكم ما لها من رصيد وطني أقدر علي تطويق الثورة ، ثم هي خامساً يسهل فيما بعد تصفيتها أو رشوتها بحكم ما لها من مصالح ، وهكذا نجد مثلاً أن جميع القوي رحبت بها – – والخديوي رحب بها علي أساس أنها الأقدر علي تخليصه من عرابي وقوي الثورة ، والجاليات الأجنبية وقناصل الدول رحبت بها لأنها تعرف أنها لا خطر منها)[٨٥]

[٨٥] نقلاً باختصار عن كتاب تاريخ مصر الحديث –د محمد مورو

- وقد وافق بالطبع الثوار علي شريف باشا حتي بدأ أولي مناوراته السياسية بشأن الدستور وقرروا أن يكون الحل ثوري وليس سياسي فضغطوا عليه حتي استقال
- نعم وباستقالته تأكد للإنجليز أنه لا بديل عن الحل العسكري في مواجهة الثورة
- فكيف تم ضرب الإسكندرية ؟

كيف قام الإنجليز بضرب الإسكندرية عند احتلالهم لمصر سنة ١٨٨٢

- يقول الأستاذ جمال بدوي : (---- في الساعة السابعة من صبيحة الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ أعطي الأميرال سيمور إشارة الضرب فانهالت قذائف الأسطول البريطاني علي مدينة الإسكندرية ، كانت القنابل تنطلق بدقة وإحكام ، فتصيب أهدافها إصابات مباشرة أما مدافع الحصون والطوابي المصرية ، فكانت ضعيفة خائرة متراخية فتسقط قنابلها في مياه البحر ، دون أن تصل إلي البوارج الإنجليزية واستمر إطلاق الحمم حتي قبيل غروب الشمس ، وهي فترة كانت كافية لتدمير المدينة وتحويل أحيائها الآهلة إلي أطلال تتراكم فيها الجثث وتنعق البوم بعد أن فر سكانها وهاموا علي وجوههم نحو الريف بحثاً عن مأوي بقيهم نار الجحيم ، كانت مجزرة بشرية رهيبة ، ارتكبتها بريطانيا العظمي عقاباً للشعب المصري لأنه رفض الاستسلام للنفوذ الأوروبي الذي تغلغل في أنحاء الديار المصرية وبات يشكل خطراً علي روحها وشخصيتها وأخلاقها واستقلالها الوطني ، كان حكام مصر من سلالة محمد علي قد فتحوا أبواب البلاد علي مصاريعها أمام الأجانب ومنحوهم امتيازات وحصانات جعلتهم بمنأى عن المساءلة إذا ارتكبوا أحط الجرائم ولم يكن هؤلاء الأجانب في مستوي الطبيب الشهير كلوت بك أو القائد العسكري الكولونيل سيف وإنما كان معظمهم من حثالات البشر المكدسين في الموانئ الأوربية من الأفاقين والمرابين وتجار الأعراض فلما تسامعوا عن الخير الوفير في مصر المحروسة شدوا إليها الرحال طمعاً في الثراء الرخيص وامتهنوا أحقر المهن وانتشروا في خدمة الحانات والخمارات وبيوت الدعارة فلما كثرت النقود في أيديهم وظفوها في الربا واستطاعوا تملك الأراضي الشاسعة والعقارات الثمينة - -)٨٦ ، - - - وهناك تعليق للمسيو جون نينيه السويسري عن هذه المجزرة البشعة حيث قال (ويجب أن نعترف بأن هذه مجزرة همجية لم يكن لها أي مسوغ وليس الباعث عليها سوي الشهوة الوحشية المتعطشة إلي القتل وسفك الدماء)٨٧
- دائماً يقتلون أكثر مما تستدعي الحاجة للقتل
- كما أن الأستاذ جمال بدوي علق علي موقف فرنسا من هذه المجزرة (فقد اعتبرت الحكومة الفرنسية مجزرة الإسكندرية وما تبعها من احتلال عسكري عملاً من أعمال البطولة تستحق عليه بريطانيا

---

٨٦ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٩٨ مكتبة الأسرة طبعة ١٩٩٥

[٨٧] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٩٩

التهنئة الحارة وكان جواب حكومة لندن علي التهنئة : " إن انتصارنا هو انتصار أوروبي ولو انهزم الإنجليزي لكان ذلك كارثة علي كل الدول التي تحسب حساباً للتعصب الإسلامي ")٨٨

- التعصب الإسلامي ، سبحان الله
- يضيف الأستاذ جمال بدوي في استنكار واضح (التعصب الإسلامي !! أنعم النظر في هذه العبارة الغريبة حتي يتملكك الغيظ ، بريطانيا العظمي تحرك في نفس شريكاتها النعرة الصليبية المقيتة وتري في دفاع أمة صغيرة عن حريتها واستقلالها وكرامتها مظهراً للتعصب الديني أما امتصاص دماء المصريين ونهب ثرواتهم وإذلال كرامتهم فهو عين التسامح الديني الذي تريده الدول العظمي !! ، منطق غريب جداً ولكنه منطق الذئاب الضارية مع الحمل الوديع في كل عصر)٨٩
- وتم احتلال مصر برعاية أحد أحفاد محمد علي باشا
- (لم تكن مهمة جيش الاحتلال الإنجليزي مهمة سهلة ولم يكن احتلاله لمصر نزهة عسكرية ، كانت هناك معارك حقيقية وكبيرة وكانت هناك بطولات وكان هناك جنود وضباط شجعان فعلوا كل ما في طاقتهم وكان هناك شعب عظيم قدم كل ما يمكنه من الدعم ،، كان الجيش الإنجليزي يتكون من ٥٠٦٠٠جندي مسلحين بأحدث الأسلحة وأسطول ضخم في مواجهة جيش مكون من ١٣ ألف جندي وعدد من الاستحكامات والطوابي متخلفة عن العصر في تسليحها وعدد من الخونة يعملون داخل صفوف الجيش لحساب الخديوي والإنجليز ، ومع ذلك أو قل ورغم ذلك ، صمد الجيش في حدود المستطاع ، – – – ويقول وكيل القنصل اليوناني بالإسكندرية : أنني لا أملك سوي الإعجاب بما أبداه جنود المدفعية المصرية من البطولة والبسالة والثبات في مواقعهم ، كانوا شجعان يصمدون لغارات جبارة ، وبالقرب من الإسكندرية كانت معارك صمد فيها الجيش المصري صموداً مذهلاً ، ففي واقعة الرمل بالقرب من كفر الدوار صد المصريون ثلاثة هجمات إنجليزية يصفها الرافعي بقوله : وهجم المصريون علي الإنجليز هجوماً شديداً واضطروهم إلي التقهقر إذ ولوا الأدبار منهزمين بعد أن دام القتال ثلاث ساعات ونصف ، وفي واقعة عزبة خورشيد ٧ أغسطس ١٨٨٢ صمد المصريون صموداً باسلاً ودافعوا دفاعا مجيدا ، وكانت خسائر الإنجليز أكثر عدداً من خسائر المصريين واضطر الإنجليز في النهاية إلي التقهقر بعد قتال استمر أربع ساعات ، ، وفي أيام ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ أغسطس ١٨٨٢ نجح المصريون في صد الهجمات الإنجليزية المتكررة وتكبيدهم أفدح الخسائر ويقول الرافعي معلقاً علي ذلك ، : وتعتبر معارك الميدان الغربي في جملتها فوزاً للعرابيين لأن الإنجليز ارتدوا عن خطوط الدفاع المصرية في كفر الدوار ، ، وهكذا صمد الجيش المصري أمام الغزو الإنجليزي ، بل وأنزل بقوات الغزو أفدح الخسائر مما جعل الإنجليز يفكرون في تغيير مسار الغزو ، فقرروا نقل

---

[٨٨] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ١٠٠

مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ١٠٠

المعارك إلي منطقة قناة السويس ، أي غزو مصر من الشرق ، وهو الأمر الذي لم يكن أحد يفكر فيه بفضل وجود قناة السويس ، لأن معني الغزو عن طريق القناة أن تحدث تعقيدات دولية شديدة ولكن متي كانت المعاهدات والتعهدات حائلاً أمام المستعمر فهذا المستعمر لا يرعي حرمة ولا يحترم عهوداً أو معاهدات علي أن المسألة كانت أيضاً أكبر من مجرد معاهدات دولية كانت المسألة أن الغرب كل الغرب يدعم الإحتلال الإنجليزي لمصر ، – – وهكذا لم يكن غريباً علي دليسبس الفرنسي أن يخدع عرابي ولكن الغريب أن عرابي انخدع ، كان المجلس العسكري بقيادة عرابي قد انعقد في شهر يوليو للنظر في أمر القناة واجتمع رأي المجلس علي وجوب تعطيلها بحيث لا يستطيع الجيش الإنجليزي اجتيازها والوصول إلي الشاطئ الغربي منها ولكن دليسبس أرسل إلي عرابي في أن يمتنع عن قطع القناة وأكد لها أن الإنجليز يستحيل أن يدخلوا القناة وحتي بعد أن وصلت البوارج الإنجليزية إلي بورسعيد استمر دليسبس في خداعه مؤكداً استحالة دخول الإنجليز للقناة وأنه مسئول عن ذلك شخصياً ، وإذا كان من الطبيعي أن يدعم الغرب والفرنسيين بالذات الاحتلال الإنجليزي لمصر لذبح الثورة ، وإذا كان من الطبيعي أن يساهم دليسبس الفرنسي في تحقيق ذلك عن طريق الخداع ولو علي حساب شرفه الشخصي ففي مواجهة الإسلام فالجميع مستعد لعمل أي شئ)[٩٠]

- الغريب فعلاً أن يتحد أعداء الأمس بريطانيا وفرنسا علي مصالح مشتركة
- بالفعل لقد كان هناك عداء شديد بين الدولتين ، ولكن ما حدث في الحملة الفرنسية علي مصر وما بعدها من أحداث في عهد محمد علي جعل الدولتين يتأكدان من مدي ضعف الدولة العثمانية فقررا التحالف معاً ضدها مع إفشال مشروع محمد علي حتي لا يكون بديلاً لها في المنطقة ، علي أن يقوموا بتقسيمها فيما بينهم كما سنري في اتفاقية سايكس بيكو الشهيرة
- نجح الإنجليز إذن بعد هزيمتهم في كفر الدوار في نقل المعارك إلي الشرق وهزموا الجيش المصري في التل الكبير كما هو معروف نتيجة لتعرض عرابي للخيانة
- نعم لقد كانت خطة العرابيين تعتمد علي حشد القوات في الإسكندرية وكفر الدوار ورشيد علي اعتبار أن بريطانيا ستحترم حياد القناة ، وعندما انتقل القتال إلي الشرق وقام الإنجليز باحتلال بورسعيد ثم الإسماعيلية وقعت معارك طاحنة في القصاصين والتل الكبير وقام عرابي بوضع خطة جديدة للتغلب علي الإنجليز طبقاً للأوضاع الجديدة للقوات ولكن أحد الخونة قام بتسريب الخطة للإنجليز مما كان سبباً رئيسياً في هزيمة عرابي بالإضافة للأسباب الأخري كخداع دليسبس وعدم التزام الإنجليز بحياد القناة ولا يسعنا إلا أن نقرأ ما قاله الأستاذ يحيي حقي عندما تحدث عن الجهل بالموقف الدول فقال عن عرابي : وإذا جئنا لعرابي وجدناه هو أيضاً لسوء الحظ غير ملم بالموقف الدولي الإلمام الواجب لرجل مثله يقود أمته وسط الأعاصير ليس هناك دليل قاطع علي أنه فهم سياسة إنجلترا نحو قناة

[٩٠] نقلاً باختصار عن كتاب تاريخ مصر الحديث –د محمد مورو

السويس وكيف تحولت من معارضتها إلي الطمع فيها ثم إلي اتخاذ العدة للاستيلاء عليها ، لم يمد بصره إلي أوروبا ليعرف كيف تقف من إنجلترا إذا أزمعت غزو مصر منفردة ، لم يحاول البحث عن نصير حتي لو حكم من أول الأمر أن لا نصير له - --كان ينبغي ان يكون ملما كل الإلمام بالموقف الداخلي في فرنسا ليزن بميزان صحيح قيمة وعد دي ليسبس له بأن انجلترا لن تخرق حياد القناة من أجل ذلك وقع في خطأ عسكري جسيم هو عدوله عن ردمها ، لم تجد إنجلترا في عرابي خصماً ذا دهاء يجيد المناورة ، بل رجلاً طيباً يؤمن بأن الاعتداء جريمة وبأن الشجاعة تغلب المدفع ، فلما وقعت النكبة فسرها بأنها من تصاريف القدر - - ولم يتزلزل اعتقاده في أنه قام بواجبه في الدفاع عن كرامة شعبه وحقوق بلاده ، وإذا كانت حكمته موضع درس فإن إخلاصه فوق الشبهات

- إذا كانت حكمته موضع درس فإن إخلاصه فوق الشبهات ، حقاً كم من المخلصين في التاريخ كانت تنقصهم الحكمة واعتقدوا أن كلمة الشرف لا يمكن أن تهتز وسمحوا للخبثاء بخداعهم ، وبعد كل هذا أصبحت مصر مستعمرة بريطانية برعاية حاكمها

مصر تحت الاحتلال البريطاني

- نعم وهكذا (سمح الخديوي توفيق للجيش البريطاني باحتلال مصر والقضاء علي الثورة العرابية ولم يكن يعرف أن دوره سينتهي بدخول الإنجليز وستصدر جميع القرارات بواسطة الاحتلال فلم يتحمل القهر ومات وعمره أربعين عاماً فقط وعن هذا الموضوع يقول المؤرخ الكبير جمال بدوي رحمه الله وهو يصف عودة الخديوي توفيق من الإسكندرية عاد الخديو الخائن توفيق بالقطار من الثغر المحترق إلي القاهرة المحتلة وكان في استقباله بمحطة العاصمة قادة الجيش البريطاني الذين سبقوه إلي القاهرة ومهدوا له طريق العودة وانطلق موكب الخديو إلي قصر عابدين عبر الشوارع التي خلت من الجماهير وازدحمت بجيوش الاحتلال لقد خسر الشعب معركته بفعل الخيانة وبفعل القهر المسلح وأضحي الوطنيون بين طريد تتعقبه عيون العملاء والخونة وسجين ينتظر النفي والتشريد والوطن كله ينزف دماً من جراح الهزيمة وبدأ الظلام ينشر أعلامه السوداء علي مصر المحروسة وكان علي المصريين أن يعيشوا مرحلة الضياع كالأيتام علي مأدبة اللئام لقد مضي ذلك العصر الذي جلجلت فيه صيحات النديم والأفغاني ومحمد عبده وصرخة عرابي في وقفة عابدين وانطوت تلك الصفحة المجيدة من كفاح الشعب وبدأت مرحلة الانحطاط والهبوط إلي أسفل السافلين ،بات قصر الدوبارة – مقر المعتمد البريطاني – قبلة الكبراء والوجهاء الباحثين عن الأسلاب والمغانم بين حطام المعركة ، وأصبحت مصر نهباً لكل خوان أثيم ، وبمرور الوقت تعاظم دور بريطانيا في مصر في الوقت الذي تضاءلت فيه سلطة الخديو الفعلية حتي أصبح من الملائم تتويج اللورد كرومر - - فإذا كان عهد اسماعيل هو عصر الأحلام

الوردية فإن حكم توفيق جسد الكوابيس الاستعمارية التي أفزعته أيضاً ولم يحتملها كثيراً ووافته المنية عام ١٨٩٢م عن عمر يناهز أربعين عاماً)[٩١]

- يا لها من نهاية حزينة بالفعل لكفاح شعب حاول أن ينال حريته وكرامته فضاعت حريته وأُهينت كرامته
- في الحقيقة لقد كان عرابي آخر زعيم مصري قاتل الاحتلال في معارك حربية حقيقية (كفر الدوار ثم التل الكبير)، أما بعد ذلك فكانت مقاومة شعبية وليست حروب حقيقية ، وتفرغ زعماء الشعب للمفاوضات فقط مع الاحتلال
- المشكلة ليست فقط في هزيمة عرابي واحتلال مصر بل في تشويه تاريخه وتاريخ ثورته حتي أنه كان يقال عنها هوجة عرابي علي ما أعرف
- لقد كان عرابي بالفعل زعيم مظلوم تاريخياُ لفترة كبيرة ولعل أكبر طعنة واجهته صدور تصريح من السلطان العثماني بخروج عرابي عن الطاعة ، مما كان له أثر سئ جداً في سير الأحداث ،وقد كان هذا خطأ سياسي فادح من السلطان وقد اتخذه بعد موائمات سياسية أعتقد صحتها لتفويت الفرصة علي تدخل الغرب، وهكذا وجد عرابي نفسه بين ضغط السلطان ومؤامرات الخديوي والقوات البريطانية وخداع دليسبس وسأتلو عليك بعض ما جاء في مقدمة كتاب دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي تأليف فوزي جرجس تقديم جلال السيد حيث ورد ما يلي : (رأيت أن أكتب للناس كتاباً يهتدون به إلي تلك الحقيقة المرموقة ، تمحيصاً للتاريخ من دون الأهواء الفاسدة والمفتريات الباطلة وسميته : كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية – قياماً بالواجب علي لأبناء وطني الأعزاء وتصحيحاً للتاريخ) بهذه الكلمات صدر الزعيم أحمد عرابي مذكراته التي انتهي من كتابتها عام ١٩١٠ أي قبل وفاته بعام ، وكان قد أدرك منذ عودته من المنفي إلي أرض الوطن استمرار المؤامرة علي الثورة العرابية ، فلم يكن كافياً للاحتلال البريطاني والعائلة الخديوية ما حدث من دمار وخراب لمصر ولم يأبهوا بآلاف الشهداء والضحايا ولا بآلاف المواطنين الذين قدموا للمحاكمة في أعقاب الاحتلال البريطاني ، بل كانوا يبحثون عن المسببات التي تحول بين المصريين وتطلعهم نحو الثورة ، كما حدث في الثورة العرابية ، والتي كان من بينها (التاريخ) فعملوا علي تشويه التاريخ المصري خاصة الثورة العرابية وقادتها ، وحاولوا أن يوهموا المصريين أن الفتنة والتمرد والعصيان وما قام به عرابي ورفاقه هم سبب البلاء بل بلغ الأمر بأحد كتابهم بأن حمل الزعيم أحمد عرابي جريمة الاحتلال وبلغت الدعاية مداها من كتاب الاحتلال وشعراء القصر حتي أثرت في أحد الشبان المصريين المضللين الذي ما رأي عرابي حتي بصق في وجهه
- بالتأكيد إن تشويه الأحداث التاريخية يؤدي إلي نتائج كارثية

[٩١] نقلاً عن كتاب (مصر من نافذة التاريخ) تأليف جمال بدوي صفحة ١١٢ ، وكتاب (أسرة محمد علي) تأليف (سهير حلمي) صفحة ٢٤٦

- وقد أدرك المستعمرون – منذ فترة طويلة – خطورة (التاريخ) وأهميته بالنسبة للشعوب وحركتها الجماهيرية ، فنجد أن مع جماعات الاستطلاع لغزو المنطقة العربية بدأت عمليات النهب والسرقة للآثار القديمة والمخطوطات العربية والتي مازالت في العواصم الأوروبية شاهدة علي جرائمهم وكانت تنفذ هذه العمليات طبقاً لتقارير الرحالة والمستشرقين الذين هجموا علي المنطقة منذ القرن السابع عشر ، وأصبح في جامعتي أكسفورد وكمبردج أقساماً لدراسة اللغة العربية وآدابها – منذ القرن الثامن عشر – هذا إلي جانب حركة الاستشراق في هولندا وألمانيا وغيرهما ، ونحن نعرف أن الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ لم تقتصر علي الجنود والمدافع والذخيرة ، بل كان ضمن أفرادها العلماء والمستشرقين والمهتمين بالتاريخ وهم الذين أعدوا المنشورات لنابليون ، وأنتجت هذه البعثة العلمية التي كانت ضمن الحملة الكتاب الشهير والمهم (وصف مصر) ، وفي ظل الاحتلال البريطاني دأب رجال الاحتلال علي تشويه تاريخنا من خلال ما كتبه المبشرون والتجار وعملاء المخابرات البريطانية والمعتمدين البريطانيين وكانت الثورة في رأيهم تمرد وعصيان وفتنة والجماهير تعني الغوغاء أما أبناء الشعب فهم الرعاع ولم تكن هذه النظرة قاصرة علي الاحتلال وموظفيهم بل شاركهم فيها السياسيون والكتاب والصحفيون الذين كانوا يدورون في فلكهم ، وأصبح من بينهم من يدافع عن الاحتلال – صراحة – وعن أعماله (العظيمة)
- السياسيون والكتاب والصحفيون الذين كانوا يدورون في فلك الاحتلال ، يكون تأثيرهم أسوأ من الاحتلال ، فهم بني جلدتنا ومحل ثقة الكثيرين منا ، فقد نقبل منهم ما نتحرج أن نقبله من الأعداء
- للأسف لقد أصبح هناك أجيال كاملة من هؤلاء المهزومين نفسياً أمام الغرب وأصبح يتوفر لهم منابر إعلامية وأدبية وفكرية وسياسية يبثون من خلالها سمومهم التي تدعو إلي الثقة في كل ما هو غربي واحتقار كل ما هو إسلامي وأصبحت كتبهم تنتشر في ربوع مصر تحت رعاية الاحتلال البريطاني
- لقد قرر الإنجليز طمس هويتنا وتاريخنا وزعزعة الثقة في ثوابتنا الراسخة ، وساعدهم علي ذلك بالطبع ما حدث في عهد سعيد واسماعيل وتوفيق بالتأكيد وما حدث بعد ذلك كان أسوأ بالطبع
- بالتأكيد كان أسوأ لأنهم شجعوا انتشار الرزيلة في المجتمع أما الأسوأ من الرزيلة فالأفكار المسمومة
- إن ما ذكرته لي عن معارك عرابي وأحداث الثورة العرابية والاحتلال البريطاني وما تبعه من مواقف تاريخية كل هذا تنقصه الكثير جداً من التفاصيل علي ما أعتقد ، فقد سمعت عن تفاصيل كثيرة من هنا وهناك عن هذه الفترة فلماذا لا تذكر التفاصيل أم أنها ليست متوفرة لديك ؟

لماذا لا نذكر التفاصيل ؟

- أنت محق تماماً وقد كنت منتظر أن تسأل هذا السؤال في أي لحظة وسوف أجيب طبقاً لاجتهادي الشخصي ففي النهاية كلها اجتهادات ووجهات نظر مختلفة ، وأنا أري أن لذكر التفاصيل فوائد ومزايا

عديدة كما أن لذكرها عيوب أيضاً وخاصة في هذه الأيام والأدق أن نقول أن ذكر التفاصيل يجب أن يكون لأشخاص يحسنون فهمها ودراستها فقط ولا يتم ذلك مع من لن يستفيد منها بل قد يضره ذكرها

- فما هي أولاً فوائد ومزايا ذكرها ؟
- إن التفاصيل للباحث في غاية الأهمية لأن ما تعتبره أنت حدث عادي يمر بلا تأمل قد يستخرج منه الباحث العديد من التحليلات والأفكار وقد يبني عليه تصور كامل لطبيعة العصر التاريخي الذي يتم تناوله بالبحث ولذلك فهي مفيدة جدا للباحثين والمتخصصين ،
- وليست مفيدة للقراء العاديين ؟
- في الحقيقة أعتقد أنها قد تكون ضارة للبعض ؟
- كيف ؟
- إن المؤرخ الذي يملأ كتابه بالتفاصيل المهمة والغير مهمة يجعل من كتابه مجموعة كبيرة من المجلدات الضخمة والتي قد تجعل القارئ ينفر منها حالياً فلا يقرأ منها حرفاً واحداً فأنت تري الآن المتصفحين للمواقع الالكترونية علي شبكة الانترنت لا يستكملون القراءة إذا زادت المعلومات عن عدة أسطر فهو لا يملك الوقت أو الطاقة لقراءة كل هذا في عصر يتسم بالسرعة والحركة ، وقد يفضل البعض أن يشاهد الموضوع مصوراً فيديو مثلاً
- تقصد أن التفاصيل قد تجعل العمل ضخماً فلا يقترب منه غير المتخصصين والباحثين لأنهم مضطرين لذلك من أجل الحصول علي درجات علمية مثلاً ؟
- والتفاصيل الكثيرة أيضاً قد يتوه أو يذوب الحدث الأهم داخلها إذا لم يضع الكاتب له عنوان جانبي مثلاً ليلفت نظر القارئ له ، وكم من تفاصيل غطت علي أحداث جسام في تاريخ مصر حتي أن الناس تهتم بها أكثر من الحدث نفسه حالياً مثل القباقيب في عصر شجرة الدر التي لا يذكر البعض غيرها ويتجاهل هزيمة واحدة من أقوي الدولة الأوروبية في ذلك الوقت وأسر ملكها لويس التاسع
- بالفعل قد تضيع العبر والدروس وسط الكثير من التفاصيل
- الأسوأ من ذلك هو الاختلافات التي تحدث علي هذه التفاصيل فمثلاً يقول أحدهم أن هذا الملك كان عمره في ذلك الوقت أربعين عاماً فيرد الآخر لا بل كان لم يتجاوز الثلاثين ، وتنشأ معارك كلامية وجدل عجيب حول هذه النقطة وقد ينسفون الحوار بالكامل من أجل هذا الاختلاف دون أن يعرفوا ويتأملوا ما حدث في عهد هذا الملك أو ذاك من أحداث تزخر بالعبر والدروس النافعة لمجرد اختلافهم علي عمر الملك أو الشهر الذي مات فيه أو حتي الملابس التي كان يرتديها ، إنها مأساة بالفعل
- هذا صحيح ولكن من الذي يحدد إذا كانت تفاصيل معينة مهمة أو غير مهمة أو بمعني أدق ما هو تعريف التفاصيل ؟

- إن هذا بالتاكيد يختلف من كاتب لآخر طبقاً لرؤيته للحدث وقد يري البعض أن أي أحداث لا تؤثر علي فهم القارئ للحدث الرئيس في حالة عدم ذكرها فهي تُعد من التفاصيل
- أي ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب
- هذا صحيح في هذا الرأي ، فقد لا يتضح الحدث إلا بذكر هذه التفاصيل حتي إذا كانت مملة للبعض ، وعلي أي حال فكلها اجتهادات متروكة لتقدير المؤرخ
- ولكنك ذكرت لي تفاصيل كثيرة في بعض الأحداث ولم تذكر أي تفاصيل في أحداث أخري كنت أتطلع لمعرفتها في هذا الحوار
- قد أفعل هذا لعدم توفرها عندي أو لأنها ليست مهمة بالنسبة لي أو لأنها قد تثير جدل عقيم عند ذكرها أو لأي سبب آخر ، فما الذي كنت تريد معرفته تحديداً فيما ذكرت ؟
- كنت أتمني أن تذكر المزيد من التفاصيل عن الخيانة التي تعرض لها عرابي مثلاً في معركة التل الكبير ومن يكون الخائن الذي قام بتسريب الخطة للإنجليز قبل المعركة ؟
- ما يعنيني في هزيمة عرابي هو أنه تم خيانته وخداعه والتآمر عليه من الجميع أما باقي الأحداث علي أهميتها فهي مجرد تفاصيل وأما اسم هذا الخائن فلم أذكره لأنه قد يثير الضحك أو السخرية وقد يخرجنا من تأمل هذا الحدث الجلل في تاريخ مصر
- ولكنني مصر علي معرفة اسمه
- وأنا لن أذكره لك كي تبحث عنه بنفسك في المراجع والكتب وسيكون ذلك مفيداً وهذا أيضاً من مزايا عدم ذكر التفاصيل ، فقد يدفع عدم ذكرها بعض القراء للبحث بأنفسهم عنها
- وهل حدث لك ذلك من قبل ؟
- بالتأكيد فأنا كلما قرأت كتاباً دفعني لقراءة غيره ، وغالباً يكون الكتاب الجديد مكتوب كمرجع في هامش الكتاب القديم ، وإن أكثر ما أثار فضولي لمعرفته هو ما لم يذكره الأستاذ زهير الشايب عند ترجمته لكتاب وصف مصر وتحديداً الجملة التي أساء فيها الكاتب الفرنسي للشعب المصري في نهاية الكتاب ولم يرغب المترجم في كتابتها في ترجمته مراعاة لشعور القراء ، ولكي أعرفها لابد أن أبحث عن النسخة الفرنسية من الكتاب وأحاول البحث عن ترجمتها بنفسي
- إذن فإن ذلك يحدث لك أيضاً
- نعم ولكنني أعتبر أن المسلمين حالياً في امس الحاجة لمعرفة تاريخهم والثقة في رموزهم التاريخية التي تم تشويهها عن قصد أو غير قصد وبالتالي فمعرفة التفاصيل قد تُعد في رأيي رفاهية لا نملكها ، وكما ذكرت لك إنها مجرد وجهة نظر قد تكون غير صحيحة بنسبة كبيرة
- علي أي حال دعك من التفاصيل ولتذكر لي ماذا حدث بعد أن تم احتلال مصر ؟

- مات الخديوي توفيق ولم ينعم بحكم مصر في ظل الاحتلال البريطاني الذي تسبب في حدوثه وباركه فسلب منه السلطة وقام بإهماله ، وكان موته سنة ١٨٩٢م وتولي الحكم بعده في ظل الاحتلال البريطاني الخديوي عباس حلمي الثاني ابنه

الخديوي عباس حلمي الثاني الوالي الأخير

- عباس حلمي الثاني الوالي السابع في أسرة محمد علي
- نعم ، وهو ابن الخديوي توفيق وتولي الحكم من بعده ولكن في وجود الإنجليز وكان عباس علي علاقة بمصطفي كامل الذي أسس الحزب الوطني وجريدة اللواء وقام بتعبئة الرأي االلعام ضد الاحتلال وكانت حادثة دنشواي الشهيرة من الأعمال التي فضحها وأشعل الحماس (بين الطلاب والموظفون والتجار والأفندية ذوي الياقات البيضاء أما الفلاحون والمشايخ والأعيان فكانوا علي موعد مع حزب الأمة الذي تأسس عام ١٩٠٧م وتزعمه سعد باشا زغلول وأصدر جريدة "الجريدة " التي رأس تحريرها أحمد لطفي السيد وكانت مصرية مستقلة تماماً عن الخديوي والإنجليز والباب العالي الذي كان الحزب الوطني ينظر إليه نظرة ولاء وتبعية)٩٢ ، وبدخول الإنجليز مصر ظل ظلم الشعب مستمر ولكن بصور أخري أو علي رأي شاعر النيل حافظ ابراهيم :

لقد كان فينا الظلم فوضي فهذبت حواشيه حتي بات ظلماً منظما

وقال الشاعر عن الإنجليز :

إذا شئت أن تلقي السعادة بينهم فلا تك مصريا ولا تك مسلما

- فما أهم الأحداث التي وقعت في عهد عباس حلمي الثاني ؟
- خلال فترة حكم الخديوي عباس حلمي الثاني بدأت أحداث الحرب العالمية الأولي وأعلن الجنرال ماكسويل قائد جيوش الاحتلال في مصر الأحكام العرفية وتم وضع الرقابة علي الصحف (وأصدر الجنرال ماكسويل إعلاناً آخر ، حذر فيه الآهلين من تكدير السلام العام ومساعدة أعداء انجلترا وحلفائها ، ودعاهم إلي اتباع الأوامر التي تصدرها السلطة العسكرية --)٩٣ وبدأت انجلترا تستعد للحرب وتحاول أن تضمن حياد الشعب المصري خلال هذه الحرب ، كما يعتبر ظهور الزعيم الوطني مصطفي كامل علي مسرح الأحداث وتأسيسه للحزب الوطني من أهم أحداث تلك الفترة فقد سبب هذا الحزب العديد من المتاعب للاحتلال البريطاني وانبثقت منه جمعيات سرية قاومت الاحتلال بالقوة وكان الحزب الوطني لا يعترف بأي مفاوضات مع الاحتلال ويسعي للاستقلال أولاً وجلاء القوات البريطانية عن مصر قبل أي حوار من أي نوع مع سلطات الاحتلال واستمر هذا الكفاح حتي بعد وفاة مصطفي كامل وتولي محمد فريد رئاسة الحزب ،

---

[٩٢] أسرة محمد علي (سهير حلمي) صفحة ٢٥٤

[٩٣] من كتاب ثورة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي صفحة ٢٧

- من المعروف بالطبع دور مصطفي كامل في فضح الإنجليز عالمياً بعد حادثة دنشواي الشهيرة ، ولنستكمل الحديث عن الحرب ونتأمل تأثيرها علي مصر والمصريين
- ولكن قبل أن نخوض في موضوع الحرب العالمية الأولي وماذا دار في مصر من أحداث بعد ذلك في إيجاز اسمح لي أن نترك مصر قليلاً لنتحدث عن الثورة العربية الكبرى ضد الدولة العثمانية والذي ساعد علي انهيارها واختفاءها بعد ذلك من مسرح الأحداث كآخر دولة إسلامية كبري ، ويعتبر عباس حلمي الثاني هو الوالي الآخير علي مصر
- ولماذا أطلقت عليه الوالي الأخير ؟
- ذكرنا أن مصر كجزء من الدولة العثمانية قد وقعت تحت الاحتلال البريطاني منذ عام ١٨٨٢ في عهد الخديوي توفيق ، وظل هذا الاحتلال مستمر بهذا الشكل حتي قررت بريطانيا تغيير المسميات بشكل يجعل من مصر كيان مستقل وليس جزء من دولة كبري ، وبالرغم من أن الاحتلال لم يتغير إلا أن المسمي تغير وكأنها خطوة في طريق تفتيت الدولة الكبري إلي عدة دول تحت الحماية البريطانية ،وقد يكون السبب في ذلك هو ترك هذه الدول والكيانات المستقلة عند انتهاء الاحتلال بحيث لا يتم جمعها بأي رابطة من أي نوع تحت أي مسمي بعد ذلك ، ويعتبر الخديوي عباس حلمي الثاني هو آخر والي في تاريخ مصر يتبع الخلافة الإسلامية (العثمانية آنذاك) حيث تم عزله ثم أصبح السلطان حسين كامل هو أول حاكم لمصر لا يتبع الخلافة بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٩١٤ وكانت بريطانيا قد أعلنت الحماية علي مصر في اليوم السابق لعزل الخديوي بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٩١٤ قبل الحرب العالمية الأولي ، وكان الخديوي عباس حلمي في ذلك الوقت في الآستانة عاصمة الدولة العثمانية التي أصبحت في حالة حرب مع بريطانيا ، ، وفيما يلي نص قرار عزل الخديوي عباس كما ورد في كتاب (ثورة ١٩١٩) للمؤرخ عبد الرحمن الرافعي صفحة ٣٢ : (يعلن ناظر الخارجية لدي جلالة ملك بريطانيا العظمي أنه بالنظر لإقدام سمو عباس حلمي باشا خديو مصر السابق علي الانضمام لأعداء الملك قد رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوية ، وقد عرض هذا المنصب السامي مع لقب سلطان مصر علي سمو الأمير حسين كامل باشا أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد علي فقبله) القاهرة في ١٩ديسمبر ١٩١٤
- هكذا ببساطة لم تعد مصر ولاية تابعة للخلافة وأصبح حاكمها سلطاناً
- نعم وجدير بالذكر أن أول والي تابع للخلافة الإسلامية كان عمرو بن العاص وآخر والي تابع للخلافة الإسلامية هو عباس حلمي الثاني حيث توالت الخلافة علي مصر مع اختلاف المسميات من عصر الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين إلي أن انتهت بالعثمانيين وهي آخر خلافة كانت مصر ولاية تابعة لها وكان عباس حلمي آخر والي في هذه الخلافة

- إن ما فعله الإنجليز بمصر والمصريين يفوق بمراحل ما فعلته الحملة الفرنسية ، فقد هزت كل ما له علاقة بالخلافة والأمة الإسلامية في مصر
- لقد قامت بتشجيع الزعماء الوطنيين القوميين في مصر وجعلت منهم أبطال بخبث شديد حتي أصبحوا رموزاً جديدة لقومية جديدة هي القومية المصرية كبديل للقومية الإسلامية ، كما اتبع الاحتلال البريطاني سياسة الاحتواء وذلك بإنشاء شبكة سكك حديد وكباري ومحالج ومطاحن ومشروعات بنية تحتية كبري ليشعر الشعب بفوائد الاحتلال كما حاربت الأزهر بأسلوب ماكر جداً حيث لم تهاجمه كما فعل الاحتلال الفرنسي من قبل بل تركته وشأنه وقامت بتأسيس مدارس أخري وأصبح من يتخرج منها له أفضلية التعيين في المصالح الحكومية وضمان مستقبله الوظيفي مع إهمال خريجي الأزهر مما أدي إلي إقبال الطلبة علي الدراسة بعيداً عن الأزهر ، فكانت سياسة الإنجليز تعتمد دائماً علي العمل لتحقيق أي هدف ببطء ولكن بشكل مؤكد حدوثه علي المدي الطويل وكما يقال : بطئ لكن مؤكد (Slow but sure) ولم تكن القومية المصرية فقط هي التي قامت برعايتها وتشجيعها بل شجعت أيضاً القومية العربية ضد الدولة العثمانية حتي قام العرب بثورة كبري ضد الخلافة ، ثم بعد هزيمة الدولة العثمانية قامت بتشجيع القومية التركية نفسها لتتفتت القومية الإسلامية إلي العديد من القوميات والدول بحيث يصعب تجميعهم مرة أخري والأسوأ من التيار القومي ما صاحبه من تيار علماني يكره الدين وخاصة مع وبعد نشوب الحرب العالمية الأولي
- وما مظاهر صعود التيار العلماني في مصر ومن أهم رموزه في ظل رعاية الاحتلال ؟
- يقول د يونان لبيب رزق : (أولاً بالنسبة للفكر العلماني فقد بدأ حتي قبل الحرب من الناحية السياسية بدعوة أحمد لطفي السيد برفض فكرة الجامعة الإسلامية كأساس من أسس الحركة الوطنية المصرية ، وأدان هذه الفكرة واعتبرها نوع من التخلف ،، يزداد هذا الاتجاه وضوحاً خلال الحرب بانتشار أفكار النشوء والارتقاء والنظرية الداورينية التي لعبت مجلة المتقطف كما لعب شبلي شميل دورا كبيرا في نشرها ، وعندما توفي هذا الكاتب عام ١٩١٧ أقام له المعجبون حفل تأبين كبير دل علي مدي انتشار دعوته ، وفي نفس الوقت ظهرت جرائد غير المقتطف تغلب عليها الصبغة العلمانية وتناقش الأمور بفكر متجرد من التأثيرات الغيبية بقيودها وأشهر هذه الجرائد كانت صحيفة السفور التي كتب فيها منصور فهمي عدة مقالات عن الاتجاه الجديد قال في أحدها : "إنه لا يطمئن إلا لكل عقيدة يتم الإقناع بها بواسطة المنطق " - - - كما شن الدكتور محمد حسين هيكل حملة شعواء اتهم فيها أصحاب الاتجاه الديني بالنفاق والكذب والاتجار بالدين - - - ثانياً بالنسبة للفكر الاشتراكي فقد أخذ يكتسب الأصالة كأحد تيارات الفكر المصري فقد ألف حسين المنصوري كتاباً عن الاشتراكية نشره أوائل عام ١٩١٥ تحت عنوان تاريخ المذاهب الاشتراكية)[٩٤]

---

[٩٤] نقلاً عن المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر الجزء الأول تقديم ومراجعة د يونان لبيب رزق صفحة ٤١٤

- **فماذا عن السلطان حسين وظروف توليه الحكم في مصر ؟**

السلطان حسين كامل

- **قد يردد البعض اسم السلطان حسين دون أن يعرف من هو ، واسمه بالكامل هو السلطان حسين كامل ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) باشا وقد حكم مصر كسلطان تحت الحماية البريطانية من ١٩١٤/١٢/١٩ إلي ١٩١٧/١٠/٩ حوالي ثلاث سنوات ، وبدأت القصة قبل بدء الحرب العالمية الأولي عندما أعلنت بريطانيا الحرب علي الدولة العثمانية ، فأعلن السلطان العثماني الجهاد في سبيل الله لجميع المسلمين في العالم ضد بريطانيا ، فشعرت بريطانيا بخطورة شديدة حيث ستكون حربها مع كل مسلمي العالم في وقت واحد ، فقررت فصل القوميات المختلفة داخل الدولة العثمانية وكانت أهم القوميات داخلها هي القومية التركية والقومية العربية والقومية المصرية ، فوعدت العرب بدولة عربية كبري في حالة وقوفهم في الحرب ضد الدولة العثمانية (تركيا) ، كما نجح الإنجليز في تنمية القومية المصرية لتفصلها عن القومية الإسلامية والقومية العربية ، فقررت عزل الخديو عباس حلمي الثاني الوالي الأخير المنتمي للدولة العثمانية ، وأعلنت الحماية البريطانية علي مصر كدولة مستقلة ، وعرضت منصب سلطان مصر علي أكبر أبناء أسرة محمد علي في ذلك الوقت الأمير حسين كامل فوافق علي ذلك ، والجدير بالذكر أن السلطان حسين قد توفي في أكتوبر ١٩١٧ ، عن ابن واحد هو الأمير كمال الدين حسين وقد تنازل هذا الابن عن حقوقه في تولي السلطنة فحكم مصر الملك فؤاد الأول ابن اسماعيل والشقيق الأصغر للسلطان حسين من ٩ أكتوبر ١٩١٧ إلي أن توفي في ٢٨ إبريل ١٩٣٦ (سلطان ثم ملك)**
- **قد يكون الأمير كمال الدين حسين شعر بمدي خطورة الدور الذي سيلعبه إذا وافق الإنجليز علي تحدي الخلافة وتفتيت الأمة فاعتذر عن قبول المنصب رغم وجاهته والله أعلم**
- **علي أي حال لقد سجل موقفه من الأحداث قبل أن يموت ولم يتورط في ما تورط فيه والده فالجميع قد ماتوا ولم يعرفوا ما حدث ولم يبق إلا موقف كل منهم مما حدث**
- **ولكن ماذا كان رد فعل الشارع المصري مما فعله السلطان حسين ؟**
- **بالطبع لم يمر حدث كهذا مرور الكرام فقد قوبل بالسخط والرفض من كل مسلم غيور علي وحدة الأمة وعلي الخلافة ومما أثار المصريين عموماً أن عزل الخديوي عباس حلمي الثاني وتعيين حسين كامل سلطاناً علي مصر صاحبه إعلان الحماية البريطانية علي مصر بعد زوال السيادة العثمانية ، كما تم فرض الأحكام العرفية في البلاد والرقابة علي الصحف بحجة نشوب الحرب العالمية الأولي ، وأدي انتشار القوات في أنحاء البلاد للحد من الاحتجاجات وعدم التجمهر وقد أطلق المؤرخ عبد الرحمن الرافعي علي ما حدث كلمة انقلاب لمعارضته الشديدة علي الحماية البريطانية**

- يبدو أن رفض البعض جاء بدافع إسلامي والبعض الآخر جاء بدافع قومي ، لنجاح الأفكار الأوروبية في تنمية القومية المصرية وفصلها عن القومية الإسلامية
- للأسف لقد حقق الغرب نجاحاً كبيراً في ذلك الاتجاه مع الطبقة ((المثقفة)) من الشعب المصري حتي يمكنك أن تلاحظ ذلك في مقولة مصطفي كامل الشهيرة لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً والشعارات التي تم رفعها في إطار بعيد عن إطار الأمة الإسلامية كشعار مصر للمصريين
- وهل ذكر الرافعي شيئاً عن أي مظهر من مظاهر الاحتجاج والرفض أياً كان دافعه ؟
- يمكن أن أقرأ لك بعض الأمثلة مما كتبه الرافعي عن هذا الموضوع فمثلاً كتب الرافعي تحت عنوان مظاهرة طلبة الحقوق يوم زيارة السلطان حسين ما ملخصه : (- - - اعتزم السلطان حسين كامل زيارة معاهد العلم ، وزار بعضها ، وكان من مظاهر سخط الشباب علي الحماية والانقلاب الذي استتبعه أنه لما جاء دور زيارته لمدرسة الحقوق اتفق معظم طلبتها علي الامتناع عن الحضور في اليوم المحدد لهذه الزيارة السلطانية ١٨فبراير سنة ١٩١٥ وأنفذوا عزمهم وتغيبوا عن الحضور في ذلك اليوم ، فلما جاء السلطان لوحظ فراغ كبير في صفوف الطلبة ، فكان هذا الإضراب شبه مظاهرة صامتة ضد الحماية والانقلاب وقد اهتمت الوزارة للأمر)[٩٥] وأجرت تحقيقا ووقعت عقوبات علي الطلبة المسئولين عن ما حدث وقد ذكر الرافعي أسمائهم لأنها أصبحت أسماء لامعة فيما بعد
- وستعتبر أنت أنها تفاصيل بالطبع
- إنها بالطبع تفاصيل ولكنها مهمة ، ولكنني أريد أن استكمل معك بعض ما كتبه الرافعي عن رفض الشعب لما حدث وهو يعتبر ذلك بالطبع كمؤرخ قومي أن ذلك الرفض بسبب إعلان الحماية وليس بسبب تحدي الخلافة وتمزيق الأمة ، فيقول في موضع آخر تحت عنوان الاعتداء علي السلطان حسين كامل : (تجاوز سخط الشعب علي الحماية إلي السخط علي المغفور له السلطان حسين الذي ارتضي هذا النظام ، - - ولقد كان من مظاهر هذا السخط أن أُعتدي عليه مرتين ، الأولي بالقاهرة يوم الخميس ٨أبريل سنة ١٨١٥ ، إذ أطلق عليه شاب يدعي محمد خليل تاجر خردوات من المنصورة عياراً نارياً حين مرور موكبه بشارع عابدين فأخطأه وأصاب العربة التي كانت تقله ولم يحدث بها سوي ثقوب في جلدها ، وقُبض علي الجاني وحوكم أمام مجلس عسكري بريطاني وحُكِم عليه بالإعدام شنقاً ونُفِّذ فيه الحكم يوم ٢٤أبريل سنة ١٩١٥ ، وبعد مرور شهرين علي هذا الحادث وقع اعتداء آخر لا يقل شططاً ونكراً عن الاعتداء الأول ، ففي يوم الجمعة ٩يوليو سنة ١٩١٥ بينما كان السلطان سائراً بموكبه بالإسكندرية قبيل ظهر ذلك اليوم من قصر رأس التين إلي مسجد سيدي عبد الرحمن بن هرمز لأداء فريضة الجمعة ، أُلقيت عليه قنبلة من نافذة أحد المنازل المطلة علي شارع رأس التين فسقطت القنبلة علي ظهر جواد من جوادي المركبة السلطانية ثم تدحرجت علي الأرض ولم تنفجر وقد استغرق

[٩٥] نقلاً عن كتاب ثورة ١٩١٩–عبد الرحمن الرافعي صفحة ٤٥

التحقيق في هذه الحادثة زمناً طويلاً لغموضها وصعوبة الكشف عن المتآمرين فيها وأسفر عن اتهام تسعة من الشبان بتدبير الحادث ، ثم استقر رأي النيابة علي إدانة اثنين منهم وحوكما أمام مجلس عسكري بريطاني فحكم عليهما بالإعدام شنقاً وصدق القائد العام للقوات البريطانية علي الحكم ، ولكن السلطان حسين طلب تخفيفه فأبدله القائد العام بالأشغال الشاقة المؤبدة)[٩٦]

- أليس من العجيب أن يستغرق التحقيق وقتاً طويلاً في مثل هذه القضايا ؟
- ليس بعجيب إذا كنت تريد أن تصل للفاعل الحقيقي أما إذا كنت أن تنهي القضية علي أي حال فمن السهل القبض علي بعض الأشخاص والضغط عليهم إلي أن يعترفوا بجرائم لم يرتكبوها وتنتهي القضية
- فلماذا لم يفعلوا ذلك فكل المصريين بالنسبة لهم عبيد وهمج وقتلهم لا يعني شئ ؟
- لأنهم لو فعلوا ذلك سيظل الفاعل الحقيق طليقاً وقد يعيد جريمته مرة أخري ولذلك كانوا حريصين في كل مرة علي الوصول للفاعل الحقيقي ، ويضيف الرافعي في موضع آخر من كتابه ما يلي (ويدخل في هذا السياق حادث الاعتداء علي إبراهيم فتحي باشا وزير الأوقاف ففي مساء ٤سبتمبر سنة ١٩١٥ بينما كان واقفاً علي رصيف محطة القاهرة مزمعاً السفر بقطار الوجه القبلي اعتدي علي شاب يدعي صالح عبد اللطيف وهو موظف بوزارة المالية بأن طعنه بخنجر ثلاث طعنات جرحه جروحاً بليغة في كتفه ولكنه شفي منها بعد حين وحوكم الجاني أمام مجلس عسكري بريطاني وحكم عليه بالإعدام شنقاً ونفذ فيه الحكم يوم ٣أكتوبر)
- فهل كان هناك أي تمثيل من أي نوع لنواب الشعب مثلاً أو ديوان أو خلافه ؟
- نعم كانت هناك جمعية منتخبة تسمي الجميعة التشريعية وقال الرافعي أن السياسة البريطانية رأت تعطيلها بمجرد نشوب الحرب حتي لا تتخذ قرارات قد يكون فيها معني الاحتجاج علي الانقلاب كما أسماه
- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- يؤكد الرافعي أن بريطانيا قد جعلت من مصر قاعدة حربية عامة للحلفاء في الشرق الأوسط ولذلك كثر تدفق الجيوش من مختلف أنحاء الإمبراطورية علي مصر ويؤكد الرافعي أن هذا الإجراء قد أفاد الحلفاء في القتال نظراً لموقع مصر الفريد الذي يتيح التدخل في عدة جبهات قريبة كالشام وغيرها ، وقد استنكر الرافعي تصرفات الجنود الذين وفدوا علي مصر لكثرة الاعتداءات التي وقعت منهم علي الناس في أموالهم وأرزاقهم التي وصلت أحياناً للضرب والقتل ، فكره الناس الاحتلال والحماية البريطانية بشدة ،، ومما زاد الطين بله قيام الإنجليز بتشكيل ما سموه بفيالق العمال المصرية أثناء الحرب والتي تم استغلالها أسوأ استغلال وكانت تتعرض للأخطار بنفس الدرجة التي يتعرض لها المقاتلون
- وما المواجهات الحربية التي تمت علي أرض مصر ؟

---

[٩٦] نقلاً عن كتاب ثورة ١٩١٩-عبد الرحمن الرافعي صفحة ٤٨

- لقد حاولت بالطبع الدولة العثمانية الهجوم علي القوات البريطانية كما أكد الرافعي ولكن تصدي لها الجيش البريطاني بمعاونة كتيبة من الجيش المصري بقيادة الملازم أول أحمد أفندي حلمي علي حد تعبير الرافعي وقد ذكر الرافعي مواقع أخري حدثت بها اشتباكات بل إن المسلمين في ليبيا والسودان استجابوا لدعوة الجهاد من السلطان العثماني وجاءت حملة السنوسي من ليبيا لقتال الإنجليز وحدث أيضاً قتال في دارفور ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل أمام القوات البريطانية والجيش المصري والأعجب من كل هذا أن الملك جورج الخامس ملك بريطانيا في ذلك الوقت أرسل رسالة تهنئة جاء فيها (– – تناولت بمزيد الارتياح الأنباء السارة عن احتلال جنود الجيش المصري الفاشر عاصمة دارفور بقيادة اللفتننت كولونيل كلي فأهنئ جميع صفوف الجيش علي نجاح حركاتهم رغم المصاعب والمشقات التي حالت في سبيلهم)[٩٧]
- إنها لمأساة أن يساعد الجيش المصري الجيش البريطاني في مواجهة الجيش العثماني
- الأسوأ من ذلك هو هجوم القوات العربية علي الجيش العثماني بعد تحالفهم مع الإنجليز
- فكيف تواصل الغرب مع العرب ؟ وكيف قاموا بتنمية القومية العربية ودعمها ؟
- في الحقيقة موضوع القومية العربية موضوع كبيروقد يستغرق وقتاً طويلاً نسبياً في هذا الحوار ، لأن القومية العربية الحديثة كانت صناعة غربية بامتياز
- وكيف حدث ذلك ؟

القومية العربية الحديثة هل هي صناعة غربية ؟

- تحدثنا معاً عن العرب وكيف تراجع دورهم في إطار الدولة الإسلامية الكبري إلي أن ضاعت منهم الخلافة نفسها ، وأصبحت الدولة العثمانية هي الدولة المسئولة عن العالم الإسلامي كله بما فيه من جنسيات مختلفة ومنهم بالطبع العرب وكانت الدولة العثمانية هي آخر دولة إسلامية ذات سيادة علي المستوي العالمي وكانت آخر دولة إسلامية مرهوبة الجانب ويعمل لها العالم ألف حساب إلي أن قرر الغرب القضاء عليها باستخدام العرب أنفسهم كأحد وسائل الضغط عليها وبالتالي قام الغرب بتنمية القومية العربية لتواجه الدولة العثمانية وتكون طعنة في ظهرها أثناء الحرب
- مستغلة بالطبع أن حكم الأتراك في ذلك الوقت كان قاسياً ولا يُرضي الشعوب العربية
- بالتأكيد وكانت الشعوب العربية لا تدرك طبيعة المخطط لها
- وهو ببساطة شديدة استبدال حكم الدولة العثمانية باحتلال إنجليزي وفرنسي للدول العربية التابعة لها
- بالطبع ، وقد أدركت الدولة العثمانية هذا المخطط وعملت علي إجهاضه وتعاملت بكل حسم مع جميع الأنشطة التي تدعو للقومية العربية والتي ستؤدي إلي انقسام الأمة الإسلامية ، وكانت الدولة العثمانية علي دراية تامة بأنها في حالة التنازل عن الأراضي العربية فإن العرب لن يتمكنوا من إيقاف الزحف

---

[٩٧] نقلاً عن كتاب ثورة ١٩١٩ –عبد الرحمن الرافعي صفحة ٥٣

الاستعماري الذي يستهدف بلادهم وبالتالي عملت الدولة العثمانية علي وقف هذه المحاولات بكل قوة ولكن للأسف كان العرب قد تأثروا بالفعل بهذه المحاولات حتي قاموا بثورة ضد الدولة العثمانية

- ثم سقطوا بعد ذلك في مستنقع الاحتلال الغربي
- بالفعل وقد قام هذا الاستعمار بالتعامل معهم بشكل مختلف تماماً عن الدولة العثمانية ويقول الدكتور طه حسين عن هذا الموضوع (---- ثم جاء المستعمرون فوجدوا كل شئ قد مهد للاستعمار . ففتحوا واستعمروا ، وفتحوا أبواباً من الآمال الكاذبة أمام هذه الشعوب البائسة ، حتي إذا استقرت لهم الأمور تبين اليائسون البائسون أنهم لم يخرجوا من بؤسهم ذاك إلا ليفرض عليهم بؤس أشد منه ، وأي بؤس أشد نكراً من أن يتحكم الأجنبي في حياة الناس وأرزاقهم ومصالحهم ، وفي آمالهم ومستقبلهم ، كان " يحكمهم " قوم يمتون لهم ببعض الأسباب ، فأصبح " يحكمهم " قوم ليسوا منهم في قليل ولا كثير ، يختلفون عنهم في كل شئ ولا يقاربونهم في شئ)[٩٨]
- ربما كان يقصد الدكتور طه حسين هنا الرابطة الإسلامية التي كانت تربط العثمانيين بالعرب ، ثم لم تعد هناك أي رابطة من أي نوع بين الاحتلال الغربي والعرب .فما الذي حدث في تلك الفترة ، وكيف قامت فكرة إحياء القومية العربية وكيف تم تغيير كلمة "الدولة العثمانية" (آخر دولة إسلامية ذات وزن في العالم) واستبدالها بكلمة "الاحتلال التركي" ؟

بداية فكرة القومية العربية

- قامت الإرساليات التبشيرية المسيحية بالإضافة إلي عملها في نشر الديانة المسيحية في القرن التاسع عشر في الشام بعمل آخر يهدف إلي الوقيعة بين العرب والدولة العثمانية (وقد بدأت الإرسالية الأمريكية عملها في الشام قبيل فتح محمد علي له ، ثم استكملت عملها أثناء الحكم المصري للشام (١٨٣٢-١٨٤٠) --- وقد وضعت نصب عينيها – إلي جانب نشر البروتستانتية – هدفاً كان له مغزى عميق ، وهو إحياء اللغة العربية ،
- إحياء اللغة العربية ؟
- نعم – – – وتنمية الشعور القومي لدي العرب ، بهدف إضعاف الرابطة العربية التركية ، وقد أنشأت الإرسالية الأمريكية العديد من المدارس في الشام كانت اللغة العربية هي لغة التدريس فيها ، وكان من أهمها علي الإطلاق "الكلية الإنجيلية السورية" التي عرفت فيما بعد باسم "الجامعة الأمريكية ببيروت" والتي ساهمت في تخريج جيل من رواد القومية العربية كان لهم أثر لا يُنكر في خلق فكرة القومية العربية بمفهومها السياسي الحديث . وقد أدي النشاط الكبير للإرسالية الأمريكية البروتستانتية إلي غيرة شديدة في الإرساليات الكاثوليكية وبصفة خاصة الجزويت فبدأ التنافس بين الفريقين علي إنشاء المدارس – – فأنشأ الجزويت مدارس في بيروت ودمشق وحلب وزحلة ، ثم أنشأوا لمنافسة الكلية

---

[٩٨] " مرآة الإسلام " طه حسين صفحة ٣٠٤ – دار المعارف – طبعة ١٩٥٩

السورية البروتستانتية " جامعة سان جوزيف" وبذلك أتيح للمسيحيين فرصة الإطلاع والتنقيب في تاريخ العرب وآدابهم ولغتهم)٩٩ ،

- **يبدو أن الموضوع أكبر وأخطر مما كنت أتخيل ، فهل وقف السلطان العثماني مكتوف الأيدي ؟ وبالمناسبة هل يمكن إلقاء الضوء علي شخصية الخليفة العثماني الأخير ؟**

السلطان عبد الحميد الثاني١٠٠ (الخليفة الأخير)١٠١

- **يعتبر السلطان عبد الحميد الثاني (مجازاً) هو آخر الخلفاء الحقيقيين في الدولة العثمانية وقد بذل جهوداً ضخمة في سبيل الحفاظ علي تماسك الأمة الإسلامية وقد واجه العديد من المشاكل داخل وخارج الدولة ، ففي داخل الدولة كان هناك من يرمي نفسه في أحضان الغرب ويعمل علي نشر كل ما هو غربي في الدولة العثمانية وتحويلها إلي دولة علمانية ذات قوانين وضعية غربية ونشر الثقافة الغربية وكذلك جعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية في الدولة ومحو اللغة العربية التي هي لغة القرآن والعالم الإسلامي ،بينما كان السلطان عبد الحميد يسعي إلي التعريب لوعيه بأهمية اللغة في الحفاظ علي تراث وكيان الأمة كما كان حريص علي تطبيق الشريعة الإسلامية وقاوم كافة الاتجاهات الغربية المخالفة للحضارة الإسلامية ،**
- **فما نوعية المشاكل التي كانت تواجهه ؟**
- **يقول الكاتب التركي الأستاذ نجيب فضل : (----" ولخلو الإمبراطورية العثمانية طيلة ثلاثة قرون أو أربعة قرون من زعيم فكري أو مصلح اجتماعي كبير وأصيل ، فقد ترك المجال للدبلوماسيين السطحيين المنبهرين بالغرب والمقلدين له ، وكانت النتيجة فقدان الروح ، وضمور العقل وذبول الإرادة وعموم الشلل" ---- ، وقد انتشرت أفكار الغزو الفكري بين الجمهور الأعظم من ساسة الترك وولاتهم وركبوا متن التفرنج والتحلل من الدين)١٠٢ ، وهكذا نجد أن السلطان عبد الحميد قد واجه مشاكل بالجملة من الداخل وكذلك محاولات فصل القوميات المختلفة الموجودة داخل الدولة العثمانية ومن بينها القومية المصرية والقومية العربية ، وكان الأتراك الذين يريدون تقليد الغرب في كل شئ يسمون أنفسهم بالإصلاحيين**
- **الإصلاح ، كم من الجرائم ترتكب باسمك**

---

[٩٩] "الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ" – د عماد أحمد هلال – صفحة ٥٨ – الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[١٠٠] (هو السلطان الرابع والثلاثين من سلاطين الدولة العثمانية وهو من مواليد ١٨٤٢)الدولة العثمانية –د علي الصلابي صفحة٤٦٩

[١٠١] لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني آخر خليفة في الدولة العثمانية ولكن بعد أن تعرض لمؤامرات أدت إلي خلعه من السلطنة والخلافة (تولي السلطنة والخلافة بعد السلطان عبد الحميد الثاني أخوه محمد رشاد ، إلا أنه في الحقيقة لم يملك أي سلطة فعلية ، وإنما السلطة أصبحت بيد جمعية الاتحاد والترقي ، وغدت الحكومة العثمانية تركية في مضمونها ، قومية في عصبيتها ، بينما كانت من قبل عثمانية في مضمونها وإسلامية في رابطتها) الدولة العثمانية– د علي الصلابي صفحة ٥٤٣

[١٠٢] الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٤٤٨

- ويقول عن ذلك السلطان عبد الحميد في مذكراته (التجديد الذي يطالبون به تحت اسم الإصلاح سيكون سبب في اضمحلالنا ، تُري لماذا يوصي أعداؤنا الذين عاهدوا الشيطان بهذه الوصية بالذات ، لا شك أنهم يعلمون علم اليقين أن الإصلاح هو الداء وليس الدواء ، وأنه كفيل بالقضاء علي هذه الإمبراطورية ، إذا أردنا أن نتبنى بعض الإصلاحات ، فعلينا أن نأخذ بالحسبان الظروف السائدة في البلاد ، وألا نقيس الأوضاع علي أساس المستوي الفكري لحفنة قليلة من الموظفين ، ويجب أن يكون في الحسبان شكوك طبقة العلماء في كل ما هو أوروبي ، الأوروبيون يتوهمون أن السبيل الوحيد في الخلاص هو الأخذ بحضارتهم جملة وتفصيلاً ، لاشك أن طراز التطور عندنا هو غير ما عند الأوروبيين ، علينا أن نتطور تحت ظروف طبيعية ، ومن تلقاء أنفسنا ، وأن نستفيد من الظروف الخارجية في حالات خاصة[١٠٣] ، ومن الظلم الفادح أن نتهم بمعاداة كل شئ يأتي من الغرب)[١٠٤]
- إنه يقصد علي ما أعتقد أن الحل في التحديث لا التغريب الذي تحدثنا عنه من قبل
- ومن المواقف التي حدثت أيضاً أن زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية تيودر هرتزل كان يحاول الحصول من السلطان عبد الحميد علي فلسطين لليهود وبذل عدة محاولات لإغراء السلطان بالمال الوفير والمساعدات الدبلوماسية المختلفة التي يمكن لليهود أن يقدموها للدولة العثمانية ولكن كان إصرار السلطان علي عدم الموافقة (وقام السلطان عبد الحميد بإرسال رسالة إلي هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها :" انصح صديقك هرتزل ألا يتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع ، لأني لا أستطيع التنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة ، لأنها ليست ملكي ، بل هي ملك شعبي ، وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض ، ورووها بدمائهم ، فليحتفظ اليهود بملايينهم ، إذا مزقت دولتي من الممكن الحصول علي فلسطين بدون مقابل ، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً بجثتنا ، ولكن لا أوافق علي تشريح جثتي وأنا علي قيد الحياة ")[١٠٥] ،
- نتيجة لهذا الموقف من السلطان كان من الطبيعي أن يعمل اليهود علي الإطاحة بالسلطان أولاً كخطوة مهمة في تحقيق هدفهم وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك
- (ويعزز هذا القول هرتزل عندما قال:" إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين ، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة ، مادام السلطان عبد الحميد قائماً في الحكم ، مستمراً فيه")[١٠٦]
- فما الذي قام به السلطان من إجراءات ؟

[١٠٣] الحالات الخاصة قد يكون مقصود بها التقدم العلمي في مجال الكيمياء والفيزياء والهندسة وما إلي ذلك وليس فلسفة ومنهج الحياة نفسها

[١٠٤] الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٤٥١

[١٠٥] الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٥٢١

[١٠٦] الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٥٢٦

- كانت الدعوة للجامعة الإسلامية من الأهداف التي يتمني السلطان عبد الحميد الثاني تحقيقها لدعم ترابط العالم الإسلامي قبل أن تذهب به القوميات المختلفة المنتشرة في الدولة العثمانية ومن بينها القومية العربية إلي تفكك يؤدي إلي الضعف والاضمحلال وبالتالي التعرض لهجمة استعمارية شرسة ، و(بالرغم من أن حركة الجامعة الإسلامية كانت تهدف – ضمن ما تهدف – إلي إضعاف فكرة القومية العربية ، إلا أن فشل المشروع الإسلامي كان من عوامل قوة الفكرة العربية واستمرارها ، بل وتحولها إلي حركة سياسية لها برامج وأحزاب وجمعيات)[١٠٧] ، (--- وبالرغم من أن الأفغاني ومحمد عبده كانا يعلمان أن الدولة العثمانية[١٠٨] في حالة من الضعف تجعلها غير مؤهلة لقيادة الجامعة الإسلامية إلا أنهما وجدا فيها أفضل ما هو موجود علي الساحة الإسلامية ، يظهر ذلك من قول محمد عبده :" إن العرب أهل للاستقلال عن الترك ، ولكن الترك لا يمكنونهم منه ، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عند العرب ، فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم ، حتي إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبا الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا علي الفريقين ، أو علي أضعفهما ، وهذان الشعبان هما أقوي شعوب الإسلام ، فتكون العاقبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق علي حياته)[١٠٩]
- حتي إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبا الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا علي الفريقين ، ألا تذكرك هذه المقولة بمواقف تاريخية أخري ، فماذا كان موقف الغرب من الجامعة الإسلامية ؟
- (إن الاستعمار قد عمل بكل قوة لمنع هذه الحركة الإسلامية من الظهور والنجاح ، حيث وجد فيها الإنجليز خطراً شديداً علي إمبراطوريتهم التي تمتد إلي الهند وتسيطر علي ما يقرب من خمسين مليون مسلم لو اتحدوا لأطاحوا بالجيوش البريطانية إلي المحيط الهندي ، وقد وجد الإنجليز والفرنسيون أيضاً في فكرة القومية العربية قطباً مضاداً لحركة الجامعة الإسلامية[١١٠] ، فتبنوها وشجعوها وغذوها بالمال والأفكار والتأييد مما جعلها تقوي وتنشط بعد أن كادت أن تختفي في مواجهة التيار الإسلامي الجارف)[١١١]
- {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ}(٤٢) سورة إبراهيم

---

[١٠٧] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٥٩– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[١٠٨] (بالمناسبة عندما سألوا فؤاد باشا الصدر الأعظم في الدولة العثمانية أثناء زيارته لأحد الدول الأوروبية قبل أن يتمكنوا من هزيمة الدولة العثمانية بعد وقالوا له : ما هي أقوي دولة في العالم الآن ، فرد قائلاً : أقوي دولة الآن هي الدولة العثمانية ، ذلك لأنكم تهدمونها من الخارج ، ونحن نهدمها من الداخل ، ولم يستطع كلانا هدمها) الدولة العثمانية د علي الصلابي صفحة ٤٧١

[١٠٩] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٦٢-٦٣– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[١١٠] (يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي " إن السلطان عبد الحميد ، كان يهدف من سياسته الإسلامية ، تجميع مسلمي العالم تحت راية واحدة ، وهذا لا يعني إلا هجمة مضادة ، يقوم بها المسلمون ضد هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين) الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٤٩١

[١١١] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٦٤– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

- وحدث أن (تم إنشاء جمعية بيروت السرية عام ١٨٧٥ ، علي يد خمسة شبان من خريجي الكلية السورية البروتستانتية هم : فارس نمر ، ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس ، وإبراهيم اليازجي وإبراهيم الحوراني وكان بينهم وليم فاندايك ، مما يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه من دور الإرساليات التبشيرية في هذه المرحلة ، وقد تبنت جمعية بيروت السرية حركة قومية عربية في نطاق ضيق هو سوريا ولبنان فقط ، متأثرة في ذلك بكتابات بطرس البستاني التي كانت تسعي إلي إيجاد صيغة من التعايش بين مسلمي ومسيحي الشام في إطار دولة عربية مستقلة عن حكم الترك ولها طابع علماني)[١١٢] ، وهكذا توالت الجمعيات وإليك بعد الأمثلة علي هذه الجمعيات ليس علي سبيل الحصر (تشكلت في باريس جامعة الوطن العربي ١٩٠٤ من خلال تجمع المنفيين العرب تحت زعامة نجيب عازوري)[١١٣] ، (الجمعية القحطانية سنة ١٩٠٩) ، (جمعية العربية الفتاة سنة ١٩١١) ، (جمعية اللامركزية سنة ١٩١٢) (جمعية العهد سنة ١٩١٤) وكان لكل جمعية منهم أهدافها فمنها ما كان يطالب بالحكم الذاتي للعرب في ظل الدولة العثمانية ومنها من كان يطالب باستقلال العرب في إطار ضوابط محددة ولكنها جميعاً كانت تنادي بالقومية العربية .

بريطانيا تبحث عن رمز إسلامي بديل للخليفة لتحقيق أهدافها

- فماذا كان موقف بريطانيا من الدعوة للجهاد التي أطلقها الخليفة العثماني ؟
- عندما دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولي وأعلنت الجهاد في سبيل الله لجميع المسلمين في العالم (وجدت إنجلترا أن في الأمر خطورة قد تهددها بدخول حرب واسعة ضد المسلمين في جميع أرجاء المعمورة ، خاصة وأن هناك نحو خمسين مليون مسلم تحت حكم إنجلترا في الهند فقط ، أضف إلي ذلك مسلمي مصر والسودان والخليج العربي وغيرها من البلدان التي تحت سيطرتها ، ولذلك أخذ الإنجليز الأمر علي محمل الجد ، وبعد بحث وتدقيق وجد الإنجليز أنه من الممكن إبطال مفعول تلك الفتوى المتضمنة إعلان الجهاد من سلطان ومفتي تركيا عن طريق الحصول علي فتوى معارضة من شخصية إسلامية يكن لها العالم الإسلامي كل الاحترام والتقدير ، وقد وجد الإنجليز ضالتهم في شريف مكة الحسين بن علي ، كما وجدوا أن تشجيع العرب علي الثورة ضد الأتراك سوف يؤدي إلي نفس النتائج)[١١٤]
- وأين كان الشريف حسين من قبل ؟
- كانت هناك شخصيات معينة في الدولة العثمانية تقلق الخليفة ويشعر بأنهم لا يدينون للدولة العثمانية بأي ولاء ولذلك كان يجعلهم يقيمون بجواره في عاصمة الدولة ولا يسمح لهم بمغادرتها حتي يأمنهم

---

[١١٢] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٧٨– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[١١٣] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٩١– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[١١٤] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٢٣– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

ومن هؤلاء شريف مكة الحسين بن علي (وقد عبر السلطان عبد الحميد عن رأيه في الشريف حسين أثناء حديثه مع الصدر الأعظم فريد باشا ، قال السلطان :" إن الشريف حسين لا يحبنا ، إنه الآن هادئ وساكن ، ولكن الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشريف غداً " - - لذلك تأخر قيام الثورة العربية بقيادة الشريف حسين إلي ما بعد خلع الاتحاديين للسلطان عبد الحميد ، فلما حكم حزب الاتحاد والترقي الماسوني ، أعاد الشريف حسين إلي مكة ، واستطاع بعد ذلك أن يتحالف مع الإنجليز) ١١٥

الاتصالات بين الإنجليز والشريف حسين

- وكيف تواصل الإنجليز مع الشريف حسين ؟
- قام وزير الحربية البريطاني كتشنر بإرسال عرض للشريف حسين للتعاون معاً كحلف ضد الدولة العثمانية (--- وقد وصله عرض كتشنر في ٣١ أكتوبر ١٩١٤ عن طريق المندوب السامي البريطاني في مصر آرثر هنري مكماهون ، الذي حثه علي الخروج عن سلطة الأتراك ، وعلي الإبقاء علي سلامة الحج للرعايا المسلمين التابعين للحلفاء وذلك بتقديم المعونة له ، وبضمانة استقلاله وسيادته في المستقبل)١١٦ وعندما طلبت منه الدولة العثمانية تحديد موقفه من إعلان الجهاد استطاع الشريف حسين المماطلة حتي يعيد ترتيب أوضاعه ويستعد للثورة (ولما أحس القوميون العرب بمماطلة الحسين للأتراك وتيقنوا عدم نيته دخول الحرب إلي جانبهم ، سارعت جمعية العربية الفتاة بدعوته للتنسيق معها من أجل القيام بثورة عربية مستغلين انشغال تركيا في الحرب ، وقد وصلته الرسالة بالفعل في الأسبوع الأخير من يناير ١٩١٥ ---- والحقيقة أن الرسالة قد لفتت نظر الحسين إلي محور مهم يعطي موقفه ثقلاً كبيراً عند التفاوض مع مكماهون ولذلك قرر الاتصال بالقوميين العرب في الشام والعراق قبل أن يرد علي رسالة مكماهون)١١٧
- فكيف تواصل الشريف حسين مع القوميين العرب ؟
- قام الأمير فيصل بن الحسين بالتنسيق مع القوميين العرب حيث قاموا بإعداد مخطط باسم بروتوكول دمشق وتم فيه توضيح حدود الدولة العربية التي يجب أن تعترف بها إنجلترا خلال المفاوضات (وفي ١٤ يوليو ١٩١٥ أرسل الشريف حسين رسالته الأول إلي مكماهون - - والتي جاء فيها المطالبة باعتراف بريطانيا بدولة عربية بالحدود المذكورة في بروتوكول دمشق ، والموافقة علي إعلان خليفة عربي للمسلمين ، مقابل أن تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية بريطانيا في كل المشروعات الاقتصادية في البلاد العربية) وكانت في هذه الفترة انجلترا وفرنسا لم تصل إلي اتفاق نهائي بعد حول

---

[١١٥] الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٥٠٩

[١١٦] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٢٧– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[١١٧] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٢٩– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

تقسيم الدول العربية بينهما (وبذلك وجد مكماهون أنه لا يستطيع تقديم وعود للحسين قبل أن تتضح الصورة في المفاوضات التي كانت لا تزال مستمرة بين انجلترا وفرنسا)[118] وبالتالي قام مكماهون برد غير حاسم وبوعود تشجيعية ولكنها غير محددة ، وقد أصر الحسين في رسالة بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩١٥ إلي مكماهون علي أن مسألة الحدود لا تحتمل المراوغة مما اضطر مكماهون إلي أن يكذب عليه ويعده في ١٥ أكتوبر ١٩١٥ بالاعتراف باستقلال العرب طبقا للحدود الواردة في رسالة الحسين مع بعض التعديلات البسيطة وبعض قليل من المفاوضات بخصوص حدود الدولة العربية التي كان يحلم بها الحسين تمت الموافقة بين الطرفين (وعلي هذا الأساس دخل العرب الحرب العالمية الأولي ، عندما أعلن الشريف الحسين بن علي الثورة في ١٠ يونيو ١٩١٦)[119]

- **إذن فقد نجحت بريطانيا في الإيقاع بين العرب والدولة العثمانية**
- **وكانت إنجلترا وفرنسا قد وقعتا اتفاقية سايكس–بيكو[120] التي قسمت فيها الدولة العثمانية فيما بينها**
- **بدون علم الشريف حسين**
- **وهكذا أوقع الإنجليز بين العرب والترك الذين كانا يمثلان معاً الدولة الإسلامية الكبري في ذلك الوقت ، ويمكننا الآن إعادة تأمل ما قاله الشيخ محمد عبده : (حتي إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبا الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا علي الفريقين ، أو علي أضعفهما)**

الثورة العربية ضد الدولة العثمانية

- **وما الذي قام به العرب بعد ذلك ؟**
- **(هاجمت القوات العربية ثكنات الجيش التركي في كل مدن الحجاز وفي أقل من ثلاثة أشهر نجح الجيش العربي في الاستيلاء علي مدن الحجاز جميعها ، ما عدا المدينة المنورة التي استماتت الحامية التركية في الدفاع عنها ---- وبعد أن تمت السيطرة علي معظم المدن الرئيسية في الحجاز تدعم الجيش العربي نتيجة لفرار كثير من الضباط العرب من الجيش العثماني وانضمامهم إلي الجيش العربي ، ونجحوا في إعادة تنظيمه علي أسس الجيوش النظامية ، كما أمدتهم إنجلترا بالأسلحة والمعدات ، وفي يناير ١٩١٧ بدأت القوات العربية تتقدم شمالاً نحو الشام ---- وبعد أن تأكدت إنجلترا من اشتراك العرب في الثورة ومن تورط الشريف حسين في الحرب ضد الأتراك بحيث انقطع عليه خط الرجعة ، سارعت بتوجيه الطعنة الثانية – بعد سايكس بيكو – إلي العرب فأصدرت في ٢ نوفمبر ١٩١٧ تصريح بالفور الذي ينص علي إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين)[121] والجدير بالذكر**

---

[118] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٣٣– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[119] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٣٦– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[120] نسبة إلي أسماء المفاوضين : الإنجليزي مارك سايكس والفرنسي جورج بيكو

[121] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٣

أن بريطانيا قامت بإرسال ضابط مخابرات لتنسيق تحركات العرب الحربية لتخدم معارك الجيش الإنجليزي وكان يرتدي زي العرب وأطلقوا عليه لورانس العرب

- يا لها من أحداث مؤثرة بالفعل
- واستمرت الحرب وكان القائد العثماني في الشام يُدعي جمال باشا وقد حاول جمال باشا أن يوضح للعرب الخدعة التي قام بها الإنجليز ضدهم ولكن دون جدوى (حيث وجد نفسه معرضاً لخطر مواجهة جيشين في وقت واحد : الجيش العربي يقوده فيصل بن الحسين ويتقدم من شرق الأردن نحو دمشق ، والجيش البريطاني يقوده الجنرال اللنبي ويتقدم من القدس –بعد أن نجح في احتلالها – فأرسل جمال باشا إلي فيصل برسالة في ١٢ ديسمبر ١٩١٧ تحتوي علي نص اتفاقية سايكس بيكو التي نشرت في الصحف الروسية ، ويوضح له أن التعاون مع الحلفاء لن يؤدي إلي استقلال العرب كما يعرض عليه عقد الصلح بين العرب والأتراك ، لمواجهة أطماع الحلفاء التي أصبحت مكشوفة للعيان ويطلب من فيصل الحضور إلي دمشق للتفاوض علي أساس منح الولايات العربية حكماً ذاتياً كاملاً تتحقق به جميع أمانيهم القومية)١٢٢
- وبالتأكيد كانت هذه الرسالة صدمة لفيصل
- بالطبع ، فقام بإرسالها إلي والده الحسين فقام الحسين بإرسال هذه الرسائل إلي المندوب السامي البريطاني في مصر في ذلك الوقت ريجنالد وينجت يطلب منه تفسير لها
- يطلب تفسير من الإنجليز ، ما هذا التصرف العجيب ؟
- وقد شكره وينجت علي أنه أطلعه علي هذه الرسائل وأكد له أنها كانت مجرد محادثات مؤقتة لم تتم وأن جمال باشا قام بتعديلها فلا تجعله يخدعك
- لا تجعله يخدعك فهذه مهمتنا نحن فقط
- (وتقبل الملك حسين الرسالة والمذكرة علي ظاهرهما وقعد مستريح البال لأن إيمانه بالمعاملة النظيفة في مقاييس الخلق الإنجليزي لم يكن قد تزعزع بعد)١٢٣ وكما حدث مع سايكس بيكو حدث بعد ذلك عندما علم الحسين بوعد بالفور لليهود وقام أيضاً بالاستعلام عن حقيقة الأمر من الحكومة البريطانية (وقد أرسلت الحكومة البريطانية القائد هوجارث ليقابل الملك حسين في جدة ويشرح له الهدف من التصريح ، وقابله بالفعل مرتين في يناير ١٩١٨ ، وأكد له باسم الحكومة البريطانية أن الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يكون مسموحاً به إلا بقدر ما يتفق ذلك مع حرية السكان العرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ، وعلي هذا الأساس وافق الحسين علي أن يهيئ لليهود في فلسطين

---

[١٢٢] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٤

[١٢٣] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٦

ملجأ آمناً من الاضطهاد ، ولكنه أكد علي أن مسألة التنازل عن مطالب السيادة للعرب لن تكون موضع بحث أبداً)[١٢٤]

- إلي هذا الحد تلاعب الإنجليز بالعرب ؟
- وبالمصريين أيضاً فقد تم احتلال القدس بواسطة ما يسمي بالتجريدة المصرية بقيادة اللورد اللنبي
- لابد أن نعود إن شاء الله لهذا الموضوع وما حدث في مصر أثناء ذلك ولكن بعد أن ننتهي من الحديث عن المواجهات التي حدثت بين العرب والدولة العثمانية
- علي أي حال (لم تشهد البلدان العربية الأفريقية تغييراً كبيراً عما كان عليه الحال قبل الحرب ، فقد احتفظت فرنسا بتونس والجزائر ومراكش واحتفظت أسبانيا بالريف ، أما إيطاليا فاحتفظت بالساحل الليبي ، في حين ظلت داخلية ليبيا تحت حكم السنوسيين ، ومصر والسودان تحت الاحتلال البريطاني المباشر ، ولم يكن للحركة العربية صدي كبير في تلك البلدان ، فقد كانت ميول معظم العرب الأفارقة مع الدولة العثمانية ، حيث كان هدفهم التخلص من الاستعمار الأوروبي عن طريق التمسك بفكرة الجامعة الإسلامية ، كما سعي السنوسيون إلي التحالف مع الأتراك وهاجموا مصر من ناحية الغرب وشغلوا جزءاً كبيراً من جهد وتركيز القوات البريطانية في مصر حينما كان الأتراك يهاجمون قناة السويس ، وفي مصر نفسها ، كانت قلوب المصريين مع الأتراك ، بينما كانت أجسادهم مع الإنجليز ، فقد نجح الإنجليز في حشد فيالق العمال والجنود المصريين للمشاركة بجهودهم في ميادين القتال المختلفة خاصة في حملة الدردنيل ، وحملة اللنبي علي الشام ، وفي بداية الحرب نجح الإنجليز في تنمية العامل الوطني المصري ، ليلعب دوراً مضاداً للحركتين الإسلامية والعربية ، فأزاحوا الخديو عباس حلمي عن أريكة الخديوية لميوله العثمانية وأعلنوا مصر محمية بريطانية ، ونصبوا عليها حسين كامل سلطاناً ، وتتالت وعودهم للمصريين – كما كان الحال للعرب – بحصولهم علي حق تقرير المصير بعد الحرب – وبعد الحرب ونتيجة لهزيمة الدولة العثمانية ، ثم اختفائها من الوجود بعد قليل ، توارت فكرة التحالف مع الدولة العثمانية ، وظهر التيار الوطني يطالب باستقلال مصر ، لا عودتها إلي تركيا ، ولا اندماجها في وحدة مع البلاد العربية الأسيوية التي كانت الحركة العربية فيها في ذروة نشاطها ، – – – ولكن تيار الوطنية المصرية كان هو الآخر في ذروة نشاطه متمثلاً في ثورة ١٩١٩)[١٢٥]
- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- لن أشغل بالك بتفاصيل ما تم لوعود الإنجليز للعرب بعد انتهاء الحرب فقد حصلوا علي لا شئ باختصار شديد وحتي لا أجرح مشاعرك بأحداث مثيرة للأعصاب وخصوصا تفاصيل طرد فيصل بن

---

[١٢٤] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٧

[١٢٥] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٥٢

الحسين من دمشق بشكل مهين بواسطة القوات الفرنسية ، وبشكل عام أصبحت سوريا ولبنان من نصيب فرنسا وفلسطين والعراق من نصيب إنجلترا (وفي فبراير ١٩٢١ ظهر في شرق الأردن فجأة الأمير عبد الله بن الحسين الذي أخذ يحشد قواته في عمان ويجمع القبائل التي حولها لمهاجمة دمشق والانتقام لطرد أخيه فيصل ، وقد اتصلت به الحكومة البريطانية وشجعته علي البقاء في عمان والاعتراف به حاكماً علي شرق الأردن علي أن تقدم له مساعدات مادية ويخضع للرقابة والمشورة البريطانية من خلال مندوب بريطاني يقيم في عمان وتم الاتفاق علي ذلك فعلاً في لقاء عقد في القدس بين الأمير عبد الله ووزير الخارجية البريطاني في ذلك الوقت ونستون تشرشل)[١٢٦]

- لقد استطاع الأمير عبد الله الحصول علي عرش الأردن عندما أظهر لهم بعض القوة ، وقد أصبح ملكاً تحت رقابة بريطانيا ولكن أفضل من لاشئ

تقسيم الدولة العثمانية[١٢٧]

- الدولة الإسلامية أصبحت مستعمرات أوروبية وأصبح بينها لأول مرة حدود مرسومة بالمسطرة علي خرائط سايكس بيكو للأسف إلي الآن
- الأسوأ من ذلك هو أن الغرب قد عمل علي ما يضمن عدم توحيدها مرة أخري تحت أي مسمي فقد (فرض الاستعمار علي العالم العربي نوعا من التجزئة الأرضية لا تقبل الوحدة ، وعمل علي إقامة الحواجز بين العرب ومنع الاتصال وتبادل الأفكار ، فقامت فرنسا بفصل لبنان عن سوريا وضم جبل لبنان إليه ليصبح لبنان الكبير بحدوده الحالية ، ثم عمدت إلي سوريا فقسمتها إلي أربعة دويلات : دمشق وحلب والدروز والعلويين وقامت بريطانيا بفصل شرق الأردن عن فلسطين ، وسعت لخلق دولة صهيونية في فلسطين ، وكان من أهم أهداف التجزئة فصل المناطق الداخلية من العالم العربي عن سواحلها ، ثم الاستيلاء علي النقاط الإستراتيجية المهمة في تلك السواحل ، فقامت إنجلترا بفصل عدن وحضرموت والمحميات عن قلب الجزيرة العربية ، كما حرمت الجزيرة من ساحلها الشرقي بتمسكهم بحماية إمارات الخليج مثل الكويت والبحرين وقطر وعمان وكذلك حرموا شرق الأردن من ساحلها علي البحر المتوسط بفصلها عن فلسطين ، كما حرمت سوريا من جزء كبير من ساحلها بفصل لبنان ، كما تم فصل إقليم الريف ومنحه لأسبانيا ليصبح معزولاً عن بقية المغرب وحتي ساحل الصومال كانت تتقاسمه ثلاث دول أوروبية هي : إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ، وعندما عجز الاستعمار عن إيجاد حدود طبيعية لتمزيق أوصال الوطن العربي لجأ إلي الحدود المصطنعة أو الفلكية التي لا وجود لها علي

---

[١٢٦] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٢

[١٢٧] الدولة الإسلامية كانت قبل الاستعمار رقعة واحدة بلا حدود علي الإطلاق ولا قوميات ولا جنسيات

الطبيعة ، فالحد الفاصل بين مصر وليبيا هو مجرد خط مرسوم علي الخريطة يتماشي مع خط طول ٢٥ شرقاً وكذلك خط الحدود بين مصر والسودان يتماشي مع دائرة عرض ٢٢ شمالاً)١٢٨

- الأرض المجزئة يمكن أن تعود مرة أخري بطريقة أو بأخرى ولذلك لجأ الاستعمار إلي طريقة أكثر خبثاً ومكراً لتمزيق الدولة الإسلامية العربية وذلك بإدخال العامل البشري في الموضوع بحيث يجعل علي كل منطقة منهم ملك له عرش وبالتالي عندما يقترح أي شخص أن تتم الوحدة فسيتساءل الجميع من من الملوك سوف يكون ملكا علي الجميع ؟
- بالفعل إنها خطة خبيثة ومحكمة وعن هذا الموضوع يقول الدكتور عماد أحمد هلال مدرس التاريخ الحديث والمعاصر بكلية التربية جامعة قناة السويس في كتابه الممتع "الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ " والذي قام بفضح جميع المخططات الاستعمارية ضد العرب : (لم يكتف الاستعمار بتجزئة العالم العربي إلي دويلات منفصلة ، وإنما عمل علي خلق أسر حاكمة لتلك الدويلات ، وإلهائها بعروش وهمية ، وتشجيع روح التنافس والعداء بين تلك الأسر ، فمن ذلك أن إنجلترا – – – عملت علي خداع الشعب العراقي باستدعاء فيصل بن الحسين الذي كان قد طرد من سوريا وجعلته ملكا علي العراق تحت وصايتها ، فكان مجرد ألعوبة في أيدي البريطانيين ، كما جعلت من أخيه عبد الله ملكا علي شرق الأردن ، وعملت علي استحكام العداء بين الهاشميين " أبناء الشريف حسين" وبين السعوديين ، وشجعت عبد العزيز بن سعود علي الهجوم علي الحجاز وطرد الملك حسين منها – – – وفي هذا الإطار اشتعلت روح التنافس بين الأسرة السعودية والأسرة العلوية في مصر ، وهي منافسات قديمة ترجع إلي عصر محمد علي الذي قضي علي الدولة السعودية الأولي ، ولكنها تجددت بفعل رفض السعوديين العادات المصرية في الحج والتي كانت تتمثل في المحمل والصرة وما كان يأتي معهما من موسيقي واحتفالات ، وقد أدي ذلك إلي قطع العلاقات السياسية بين مصر والسعودية)١٢٩
- وهكذا استطاع الاستعمار أو ما يمكن أن نسميه الاستخراب تقطيع أوصال الأمة بعد أن كانت قطعة واحدة بحاكم واحد فأصبحت قطع كثيرة بحكام متنافرين
- ومما فعله الغرب أيضاً إثارة النعرات الطائفية :(لم يترك الاستعمار تلك الوحدات المجزأة لتعيش في سلام ، بل عمل علي خلق المشكلات لها ، من خلال إثارة النعرات الطائفية واستثارة الأقليات الموجودة في داخل الوطن العربي ، ففي العراق لعب البريطانيون دوراً كبيراً في إثارة المشكلة الكردية وتجسيدها لتظل شوكة في جانب الوحدة القومية لسكان العراق ، والأكراد – – – ولقد ظل سلاح الأقليات من أقوي الأسلحة التي كانت بريطانيا تشهرها في وجه الوطنية العراقية ، فهناك إلي جانب الأكراد أقليات أخري كثيرة كانت بريطانيا تدعمها مثل الإيرانيين والأتراك والأشوريين والتركمان واليهود وغيرهم – – –

---

[١٢٨] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٣– ١٧٤

[١٢٩] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٤–١٧٥

وإذا كان الإنجليز قد نجحوا في إعاقة الحركة الوطنية العراقية – – بورقة الأقليات ، فإنهم قد فشلوا في اللعب بتلك الورقة في مصر ، حيث باءت محاولتهم الإيقاع بين المسلمين والمسيحيين بالفشل الذريع – – وقد اتخذ المصريون من الهلال والصليب شعاراً لثورتهم في عام ١٩١٩ – – وفي السودان سعي الإنجليز إلي عزل الجنوب ، وأغلقوا حدوده ومنعوا التجار الشماليين من السفر إلي الجنوب أو تجار الجنوب من السفر إلي الشمال إلا بتصريح خاص ، وأحاطوا المنطقة بسياج من العزلة لمنع توغل التأثيرات الإسلامية والعربية إلي الجنوب ، ثم تركوها مجالاً مفتوحاً للإرساليات التبشيرية الأوروبية ، فكانت النتيجة أن خلقت بريطانيا للسودان مشكلة عاني منها كثيراً ولا يزال يعاني وتحولت السودان إلي دولتين حالياً منفصلتين تماماً ، وأصبح الجنوب دولة مسيحية خالصة)[١٣٠]

- وماذا حدث للقومية العربية بعد ذلك ؟
- قام الغرب بتنمية الروح القومية عند العرب وأثاروا النعرة العربية والقومية العربية إلي أن قامت بتحقيق أهدافها والمساعدة الضخمة في القضاء علي آخر دولة إسلامية في تاريخ الإسلام وهي الدولة العثمانية ، وبهذا انتهي دور القومية العربية وحان الوقت للقضاء علي الهوية الثقافية العربية (عملت القوي الاستعمارية المختلفة علي القضاء علي الهوية الثقافية العربية وطمسها ، لمحو واحد من أهم أسس القومية العربية عن طريق التهجم علي التراث الثقافي العربي ، وقطع الصلة بين العرب وماضيهم والتقليل من إضافات العرب إلي التراث الإنساني ، فحاولوا رد الحضارة العربية " الإسلامية" إلي أصول يونانية وفارسية وهندية ، وأخذت الدوائر التعليمية المتأثرة بالاستعمار تروج لهذه الفكرة ، وتابع الاستعمار هجومه علي الأدب العربي – – وانقض المستعمرون علي اللغة العربية كأداة اتصال وتفاهم بين العرب ووعاء لفظ تراثهم الثقافي ، فنادي دعاة الاستعمار باستخدام الحروف اللاتينية في الكتابة العربية مثلما حدث في تركيا ، كما ارتفعت أصوات تطالب بنبذ العربية الفصحى وجعل اللهجة العامية لغة التعليم والصحافة ، محاولين بذلك قطع الصلة بين العرب وتراثهم ، وفي نفس الوقت حاربوا التعليم وحددوا مناهجه ، وقصروه علي فئة قليلة ، كما سيطروا علي وسائل الثقافة العامة كالصحافة والطباعة والإذاعة ، وظهرت دعوات لإحياء ثقافات ماتت وانقرضت ، فبث المستعمر الدعوة إلي الفرعونية في مصر والفينيقية في الشام والآشورية في العراق)[١٣١]
- وبعد كل هذا يزعم البعض أنه لا وجود لنظرية المؤامرة علي العالم الإسلامي ،
- أما بالنسبة للغة وأهميتها في توحيد أي أمة فيقول الدكتور عماد هلال (اللغة هي الروح بالنسبة للأمة ، فهي وسيلتها للحفاظ علي تراثها ، وأداة التواصل بين الأجيال ، كما تدعم الديمقراطية في المجتمع بفضل وحدة أداة التعبير ولذلك كان المستعمر يسعي دائماً لمحاربة اللغة وفرض لغته علي الأمم التي

---

[١٣٠] مقتطفات من صفحتي ١٧٦ ، ١٧٧ من كتاب (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال

[١٣١] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٨-١٧٩

يفرض سيطرته عليها ، فقد عمل الإنجليز ذلك في الهند ، والهولنديون في اندونيسيا ، والفرنسيون في الجزائر والإيطاليون في ليبيا ، وهكذا كل دولة استعمارية كان أول همها الهجوم علي القلعة الأولي في كيان أي قومية من القوميات الخاضعة لنفوذها ، وهي اللغة ، بهدف إضعاف الوحدة الفكرية بين أبناء القومية الواحدة وربطهم فكريا وثقافيا بالمستعمر)[١٣٢]

- فماذا كانت علاقة مصر بالقومية العربية في ذلك الوقت؟
- يقول الدكتور عماد هلال : (لا توجد أية شواهد تؤكد أن مصر كان لها دور إيجابي ملموس في الحركة القومية العربية في مراحلها الأولي ، فلم تظهر جمعيات مصرية سرية أو علنية ذات طابع قومي عربي – – واقتصر دور مصر علي استضافة الزعماء العرب المنفيين والهاربين من بطش الأتراك ، ولم تكن مصر تفعل ذلك بدافع من العروبة أو القومية العربية ، وإنما كانت تفعل ذلك بتوجيه من سلطات الاحتلال البريطاني الذي كان يحتضن الجمعيات العربية بهدف ضرب تركيا ، وقد أدي ذلك إلي معارضة كثير من المصريين للحركة القومية العربية التي كانت تنادي بالانفصال عن تركيا ، خاصة وأن مصر كانت تعقد حبال الأمل علي الدولة العثمانية لتخلصها من نير الاحتلال البريطاني ، وفي هذا الطريق سار مصطفي كامل ومن بعده محمد فريد ، وبالتالي كان صدي نداء الجهاد الذي أعلنه السلطان العثماني أكثر تأثيراً في المصريين من نداء الثورة العربية التي أعلنها الشريف حسين ، كما نظر المصريون إلي الزعماء العرب اللاجئين إلي مصر نظرة ريب وتشكيك ، باعتبارهم متمردين علي دولة الخلافة وعملاء للاستعمار ، ويعيشون في حمايته ، خاصة وأن بعض هؤلاء الزعماء اضطروا إلي منافقة سلطات الاحتلال البريطاني التي تأويهم وتوفر لهم مجال العمل بحرية ضد الأتراك ، وخير مثال علي ذلك جمعية بيروت السرية الذين هربوا إلي مصر وأسسوا فيها جريدة المقطم التي كانت لسان حال الاحتلال البريطاني في مصر لسنوات عديدة ، ولكن هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولي ، ومن ثم انتهت نظرة المصريين لها كمخلص من الاحتلال البريطاني ، ثم نجاح الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ في تحقيق ذلك الهدف بجهود أبناء مصر ، عندما اضطرت إنجلترا إلي إصدار تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، الذي منحت مصر بمقتضاه استقلالاً مشروطاً ، ومن ثم تولي دفة الحكم وزارات مصرية منتخبة ، ثم تدعيم ذلك الاستقلال باعتراف انجلترا باستقلال مصر وتوقيع معاهدة صداقة وتحالف معها في عام ١٩٣٦)[١٣٣]

كيف قام الإنجليز بالسيطرة علي الجيش المصري واستخدامه في الحرب العالمية الأولي لصالحهم؟

[١٣٢] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٢٤– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[١٣٣] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٨٦–١٨٧– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

- أعتذر للمقاطعة ولكن هناك سؤال يحيرني ولا أستطيع أن أتفهمه وأرجو أن تحاول الإجابة عليه ، مما لديك من كتب ومراجع ، وهو كيف سيطر الإنجليز بعد احتلال مصر علي الجيش المصري لهذا الحد الذي لاحظته خلال حديثك عن الحرب العالمية الأولي لدرجة قيامه بأعمال قتالية ناجحة ضد الدولة العثمانية ؟ ألم يكن يقاتلهم مع عرابي ؟
- أنا أفهم سر حيرتك تماماً ، فلقد عرفنا كيف تشكلت الطبقة المثقفة في مصر علي الطريقة الأوروبية وطبقاً لأفكارها حتي أنها فقدت هويتها الإسلامية واهتزت ثوابتها ، أما الجيش نفسه فلم يكن معرضاً لما تعرضت له هذه النخبة المثقفة فكيف تم استخدام هذا الجيش ضد دولة الخلافة ؟ أليس هذا تحديداً ما تقصده من سؤالك ؟
- بالضبط ، لقد قمت بإعادة السؤال بشكل دقيق وواضح
- حسناً ، سوف أتلو عليك بعض ما جاء عن هذا الموضوع بالمرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر الجزء الأول تقديم ومراجعة د يونان لبيب رزق صفحة ٣٧٥ حيث ورد تحت عنوان سياسة الاحتلال الداخلية ما يلي : (في أعقاب سيطرة القوات البريطانية علي البلاد أرسلت حكومة لندن اللورد دفرن DUFFRIN السفير البريطاني في استانبول إلي مصر في نوفمبر من نفس السنة لدراسة أحوالها وتقديم الاقتراحات اللازمة لإدارة الشئون المصرية في المستقبل ،
- الدراسة قبل اتخاذ القرار
- وأغلب ما تقدم به اللورد دفرن من مقترحات هو الذي تحول بعد ذلك إلي ما عُرِف بالقانون الأساسي الصادر في أول مايو عام ١٨٨٣ والذي نظم الإدارة المصرية خلال سنوات طويلة في أعقاب الاحتلال ، ، ولا شك أن أول مهمة رأي دفرن وجوب علاجها هي مهمة إعادة الاستقرار والأمن إلي البلاد وهي المهمة الأساسية التي تواجه أية سلطة تتولي شئون بلد خرج مؤخراً من أحداث ثورة عارمة ومن هذا الفهم جاءت أولي توصيات اللورد بإعادة تكوين الجيش المصري بعد أن تم تسريح الجيش القديم الذي قام بالدور الأساسي في الثورة العرابية وذلك بمقتضي مرسوم خديوي
- تم تسريح جيش عرابي ، لقد فهمت الآن ، فما حاجتهم لجيش مصري جديد ؟
- وبالطبع روعي في تكوين الجيش الجديد توافر مقتضيات الأمن بالنسبة لمنشئيه ومن ثم اتخذ اتخذ أكثر من قرار في هذا الشأن ، أول هذه القرارت وأهمها أن تتركز قيادة هذا الجيش في أيدي ضباط من البريطانيين ، وقد عني بذلك أن هذه القيادات إنما تكون في النهاية حاجزاً يمنع الرابطة العضوية التي يجب أن تتوفر في العلاقة بين أي شعب وجيشه ، كما أنها في نفس الوقت تمنع تنفيذ أي قرارات قد تصدر من السلطة المصرية العليا –وإن كان هذا الاحتمال يكاد يكون معدوماً في ظل الوجود الاحتلالي في البلاد– إنما من الوجهة النظرية علي الأقل فإن وجود هذه القيادات يمنع تنفيذ أي قرارات قد تتنافي مع سياسة الاحتلال العامة ، ، ملاحظة أخري تتعلق بتركيب الجيش المصري الجديد ، فالوظائف

الصغيرة التي يشغلها ضباط جيش مصريون اشترط لشغلهم إياها أن يكونوا متخرجين في مدرسة الدولة ، وإذا قارنا هذا أيضاً بما كان قائماً بالفعل قبل الاحتلال من ترقية الجنود إلي رتب الضباط ، فيما كان معروفاً بالترقية من تحت السلاح ، لخرجنا بنتيجة مهمة وهي أن الضباط المصريين في جيش ما قبل الاحتلال قد أتوا من الطبقات الفقيرة وفي كثير من الأحوال من أبناء الفلاحين الذين دخلوا سلك الجندية أما الضباط المصريون في الجيش الجديد فقد كانت لهم من البداية انتماءات طبقية واضحة وخصصواً وأنه قد فرضت مصروفات عالية علي طلبة المدرسة الحربية التي لم يكن الالتحاق بها إلا لمن يقدرون علي أداء مثل هذه المصروفات ، ، ترتب علي ذلك أن نبعت القيادات المصرية في هذا الجيش أساساً من أبناء الأعيان المصريين ويتضح ذلك من أنه حتي قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ كانت تتم تحريات واسعة عن كل من يرغب في الالتحاق بالكليات العسكرية وكان الهدف من وراء ذلك التثبت من المكانة الطبقية لكل من هؤلاء المتقدمين والتي كان يقبل الطالب أو لا يقبل بناء علي نتائج هذه التحريات ،، فضلا عما سعت إليه سلطات الاحتلال من تناقض التركيب الطبقي داخل الجيش المصري الجديد وما يترتب علي ذلك من استحالة التحام الضباط بجنودهم فقد راعت هذه السلطات أيضاً – – ذلك أنه في الوقت الذي تشكلت فيه فرق بأكملها من المصريين تشكلت فرق بأكملها من السودانيين)[١٣٤]

- كل هذا واضح ومفهوم ولكن ما لا أستطيع استيعابه هو أن يخرج جيش من مصر لاحتلال القدس التي كانت مصر علي مر التاريخ المدافع الأول عنها ضد الصليبيين وخاصة أيام الأيوبيين والمماليك
- بالفعل إنها مأساة بالفعل أن يشترك المصريون في حملة مع الإنجليز لاحتلال فلسطين وقد سميت هذه الحملة التجريدة المصرية وكانت بقيادة اللورد اللنبي

التجريدة المصرية في فلسطين

- فما معلوماتك عن اللورد اللنبي وعن هذه التجريدة ؟
- أعتقد أن أفضل ما يمكن أن أقوله لك عن هذا الموضوع هو ما قاله الفلسطينون أنفسهم عنه فقد ورد في أحد المواقع الالكترونية الفلسطينية ما يلي : – – – اللنبي هو ذلك الجنرال الانجليزى الذى قاد قوات الجيش المصري لحرب العثمانيين فى فلسطين وقام بهزيمتهم فى الحرب العالمية الاولى وقام باحتلال فلسطين.في معركة غزة واسمه بالكامل هو ادموند هنري هاينمان إلنبي (٢٣ ابريل ١٨٦١ – ١٤ مايو ١٩٣٦) وقد أرسلته بريطانيا ليكون القائد الأعلى لقوة التجريدة المصرية في ٢٧ يونيو ١٩١٧ ، ليحل محل السير أرشيبولد ماري. و بعد اعادة هيكلة قواته النظامية استطاع اللنبي أن يهزم القوات التركية في معركة غزة الثالثة (٣١ أكتوبر – ٧ نوفمبر ١٩١٧) و ذلك بمفاجأة المدافعين عنها بهجمة على بير سبع ، و حالت إرادة الله ثم شجاعة الخطوط الخلفية للجيش العثماني دون تدمير كامل الجيش المدافع .في التاسع من ديسمبر سنة ١٩١٧ دخلت الجيوش الإنجليزية مدينة بيت

[١٣٤] نقلاً عن المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر الجزء الأول تقديم ومراجعة د يونان لبيب رزق صفحة ٣٧٥

المقدس بعد انسحاب العثمانيون منها .. و لم يستطع الجنرال اللنبي الذي كان على رأس الجيش الإنجليزي أن يخفي مشاعره فقال قولته الشهيرة التي تنم عن التعصب و الغرور و الجهل: اليوم انتهت الحروب الصليبية .

- الجملة واضحة جداً ولا تحتاج إلي شرح أو تعليق
- وهكذا انتصرت التجريدة ((التي للأسف تسمي مصرية)) بقيادة اللنبي على العثمانيين في معركة مجدو[١٣٥] في سبتمبر ١٩١٨. وكان الانتصار قاصماً للعثمانيين وحاسماً للجبهة الجنوبية في الحرب العالمية الأولى. وكان هذا الإنتصار هو القوة العسكرية التي مكنت إنجلترا من إهداء الأراضي الفلسطينية لليهود بما يسمى "وعد بلفور" عقب هزيمة العثمانيين بشهر واحد وايام قلائل .وكان الشعب المصري وظل رافضا لخوض بلاده هذه الحرب، بل لا يختلف المؤرخون في أن السخط الذي عمّ مصر بعد هذه الحرب كان من أسباب ثورة ١٩١٩، وأنه لم يكن أحد ليجادل وقتها في هذا الرفض حتى أن بريطانيا –دولة الاحتلال– لم تكن تطمع في أكثر من بقاء هذا الاعتراض "سلميا" بل إن القائد العام الإنجليزي وقتها، الجنرال ماكسويل، ختم إعلانه الرسمي للحرب مع العثمانيين بهذه الفقرة" :ولعلم بريطانيا العظمى بما للسلطان (العثماني) بصفته الدينية من الاحترام والاعتبار عند مسلمي القطر المصري فقد أخذت بريطانيا العظمى على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب بدون أن تطلب من الشعب المصري أية مساعدة، ولكنها مقابل ذلك تنتظر من الأهالي وتطلب إليهم الامتناع عن أي عمل من شأنه عرقلة حركات جيوشها الحربية أو أداء أي مساعدة لأعدائها."وجاء في بيان إعلان الحماية (الاحتلال) الإنجليزية على مصر "تاريخ مصر السابق يدل في الواقع على إن إخلاص المسلمين المصريين للخلافة لا علاقة له البتة بالروابط السياسية التي بين مصر والآستانة" ولذلك كان أمل الاحتلال من المصريين "منع كل عون للعدو"وقد جرت محاولتي اغتيال للسلطان حسين كامل الذي جاء به الإنجليز ليحكم مصر بعدما خلعوا الخديو عباس حلمي، ولبعض الوزراء وحُكِم على مرتكبيها بالإعدام رحمهم الله وقد عطل الإنجليز انعقاد الجمعية التشريعية (البرلمان) خشية من أي مقاومة سياسية للاحتلال، برغم أن برلمان ذلك الزمان كان مقصوص الجناحين، (فالمحتلون وعملاؤهم لا يحبون الهيئات المنتخبة!!) وظل معطلا لعشر سنوات فيما بعد .أن المصريين كانوا يُجْمَعون بالإكراه للمشاركة في هذا المجهود الحربي، ولم يكن هذا برضاهم، بل إن العُمَد ومشايخ القرى والمحافظين كانوا ينتهزونها وسيلة للدفع بأعدائهم عبر التجنيد في هذه الحرب، وكان المصريون يدفعون الرشاوى للخلاص من هذا التجنيد لهؤلاء العمد والمشايخ وحكام الإدارات أن المصريين لم ينظروا إلى اشتراك الجيش المصري في ذلك الوقت إلا على أنه خيانة بريطانية لتعهدها السابق بأنها ستحمل العبء كاملا، ولا يرى أحد من المؤرخين –فيما أعلم– أن الهجوم العثماني كان على مصر، بل حتى أرباب

[١٣٥] هو نفس الموقع الذي شهد الانتصار الساحق للملك تحتمس الثالث في العصر الفرعوني

المدرسة الوطنية كالرافعي، يُحمِّلون الإنجليز مسؤولية تقدم القوات التركية نحو مصر، وأنها لم تكن موجهة إلى مصر أو المصريين بل كانت ضد القوات الإنجليزية .ومثل هذا كان تقدم الشريف أحمد السنوسي الكبير من الغرب.وأما "النصر" الذي حققه الجيش المصري في دارفور، فكان ذلك ضد ثورة من سلطان دارفور ضد حكومة السودان (والسودان تحت الاحتلال الإنجليزي) فاستُعْمِل الجيش المصري للقضاء على هذه الثورة، وفعلها بأسلوب قذر، وهو السيطرة على آبار المياه، وتلقى السلطان حسين كامل تهنئة من الملك جورج الخامس وأن هذه الحرب لم تكلف مصر رجالا فقط (نحو مليون ونصف مصري أجبروا على العمل في المجهود الحربي) بل وثروات، فقد استولى الإنجليز على ما شاءوا من الجمال والبغال والخيول والحمير بأبخس الأثمان وبالمصادرات حتى لم يبق للمصريين إلا ما لا يصلح لقتال لمرض أو ضعف أو عيب، وأنقصوا المساحات المزروعة من القطن (الذهب المصري الذي كان يساوي أهمية النيل بالنسبة للزراعة) لزراعة الحبوب لتغطية أغذية الجنود، بل وقطعت ما لا يحصى من الأشجار لاستعمال الخشب.. حتى بلغ الشعب درجة منهكة من الفقر والعوز والحاجة[١٣٦]

- من الواضح أن الذي كتب ما سبق يحترم تماماً الشعب المصري وينفي عنه ما حدث في هذه التجريدة ، وينسب كل ذلك للورد اللنبي ، ولكن هل من الممكن أن نترك الحديث عن كل هذا ونبدأ الحوار عن ثورة سنة ١٩١٩ وكيف بدأت أحداثها ومقدماتها ؟
- لا مانع بالطبع فثورة ١٩١٩ من أهم الأحداث التي وقعت في مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولي حيث قرر المنتصرون في هذه الحرب عقد مؤتمر دولي لتقنين وترتيب الأوضاع العالمية بعد انتهاء الحرب والاتفاق علي توزيع المكاسب طبقاً لما حققه كل منهم من انتصارات وقد ذكرنا ما حدث للعرب من بريطانيا وفرنسا وتداعيات تطبيق اتفاقية سايكس بيكو ، وقد حاول المصريون أن يكون لهم دور أو حتي وجود في هذا المؤتمر لعرض قضيتهم والحصول علي الاستقلال

مقدمات ثورة ١٩١٩ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولي

- وكيف تمت هذه المحاولة بعد انتهاء الحرب ومن الذي قام بها من المصريين ؟
- يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه عن ثورة ١٩١٩ ما يلي : لا شك في أن مصر وعالم العرب كانا قبل سنة ١٩١٩م يختلفان كل الاختلاف عن مصر وعالم العرب بعدها ، قبل ١٩١٩ كان الاستعمار والذل والاستسلام ، والمحاولات الضعيفة للخروج من قبضة اليأس المحتوم كالقدر ، وبعد ١٩١٩ يبدأ السير الحثيث الواعي في طريق النهوض والأمل – – – ويجرؤ الناس علي الاحتلال الإنجليزي بعد أن تحدوه في قوة – – – –والذي حدث أن ثلاثة من أهل مصر – سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي – توجهوا إلي دار المعتمد البريطاني السير ريجينالد وينجت في صباح ١٣ نوفمبر ١٩١٨ وقالوا له إن الأوان قد آن للبحث في مصير مصر – – – وفهم الرجل أنهم يطلبون الاستقلال لوطنهم

[١٣٦] نقلاً عن صفحة التراث الفلسطين بموقع التواصل الاجتماعي فيس بوك

وأنهم يريدون أن يسافروا إلي أوروبا لعرض قضية بلادهم علي مؤتمرات الصلح التي كان الاستعداد لها يجري علي قدم وساق – بعد انتهاء الحرب العالمية الأولي – وكان يري ان مصير مصر مسألة تخص الإمبراطورية البريطانية وحدها فهي بلد تحت الحماية الإنجليزية أي جزء من أملاكها وأراضيها

- ولهذا رفض السماح لهم بالسفر وقال إنه ليس لهم الحق في الكلام باسم مصر – – – فسارع الثلاثة إلي أخذ توكيل من الشعب ليتكلموا باسمه وسارع الشعب فأعطاهم التوكيل بالإجماع واعتبرهم – وفداً – موكلاً منه للكلام باسمه والمطالبة بحريته – – – وفي ٦ مارس ١٩١٩ تلقي الوفد إنذاراً من المعتمد البريطاني يطلب إلي رجاله أن يكفوا عن سعيهم للاستقلال – – وفي ٨ مارس اعتقل الإنجليز سعداً وثلاثة من صحبه – – – وفي اليوم التالي أرسلوهم منفيين إلي مالطة ، وما إن علم الشعب باعتقال رجاله حتي انفجر بركان الثورة في ٩ مارس ١٩١٩م ، وبدأ الإنجليز في التراجع فأفرجوا عن سعد وأصحابه يوم ٧ ابريل ١٩١٩ ، وبدأ الكفاح المرير في سبيل الحرية ، كفاح شاق حافل بالتضحيات ولكنه كفاح رجال يشحذ الهمم ويقوي النفوس ويزيد العيون بصراً والقلوب وعياً . وهذه أهمية ثورة ١٩١٩ وذلك هو دورها في تاريخنا ، فقبل ثورة ١٩١٩ كانت مصر وأمة العرب تسيران سيراً بطيئاً هادئاً نحو الموت ، وبعد ثورة ١٩١٩ انفتح أمام مصر ثم أمة العرب طريق الحياة وهو طريق طويل عسير حافل بالنكبات والمآسي ، ، مآسي تنفع وتعلم وإن كانت تؤلم وتعطل المسير ،، قبل ١٩١٩ كنا نجاهد لكي نوجد ، كانت إنجلترا صاحبة السيادة علي بلادنا ، تقول أننا غير موجودين منذ الاحتلال البريطاني في سبتمبر ١٨٨٢ ، وكانت مشكلة المعتمدين البريطانيين هي : كيف يمكن الاحتفاظ بمصر بدون المصريين ؟ ، بعد موت مصطفي كامل سنة ١٩٠٨ وخروج محمد فريد من مصر واضطراره إلي حياة النفي في أوروبا بعيداً عن وطنه وعقاباً له علي حبه إياه ، خيل إلي الإنجليز أنهم نجحوا أخيراً في إخراج المصريين من الميدان حتي كان يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ والحديث التاريخي الذي دار بين ممثلي مصر وممثل الاحتلال البريطاني في البلاد ، لقد كانت دهشة السير وينجت كبيرة وهو يصغي إلي سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي وهم يتحدثون إليه عن مصر وحقوقها ، وتستوقف النظر في ذلك الحديث السطور التالية : علي شعراوي : إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر لا صداقة العبد للحر ، ––––وينجت :إذن فأنتم تطلبون الاستقلال ؟ ––––سعد :ونحن أهل له ، وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال مثل باقي الأمم المستقلة ؟ –––– وينجت : ولكن الطفل إذا أعطي من الغذاء أزيد مما يلزمه أصيب بالتخمة ، ،،،، هنا – في هذه السطور القليلة من الحوار ، نري الفرق الهائل بين مصر كما كان يريدها الإنجليز ومصر كما أرادها أهلها ، هذه السطور تعين لنا نقطة النهاية لقرون طويلة من ضياع مصر والمصريين ، ونقطة البداية لوجودها ووجودهم[١٣٧]

---

[١٣٧] نقلاً باختصار عن كتاب – دراسات في ثورة ١٩١٩ – للدكتور حسين مؤنس – دار الرشاد– الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٥

- إن هذا الكلام إذا تأملناه سنشعر بمدي تأثر جيل سعد زغلول ورفاقه بالأفكار الأوروبية وانبهارهم بها حتي يمكنك أن تلاحظ شعورهم بالدونية أمام من يتحدثون معه ونسوا أنهم ينتمون إلي الأمة الإسلامية التي هي أفضل الأمم علي الأرض

كتب التاريخ بعد ثورة ١٩١٩ تتناول تاريخ مصر أم تاريخ الأمة الإسلامية ؟

- بالفعل يؤسفني أن أقول لك أن تاريخ مصر سينحصر بعد ذلك في ما يخص مصر فقط في معظم المراجع وستصبح القضية الوطنية هي كيف تستقل مصر وتتخلص من الاحتلال البريطاني ، وستصبح ثورة ١٩١٩ هي مفترق الطرق بين تاريخ مصر كجزء من الأمة الإسلامية وتاريخ مصر كدولة لها هويتها الخاصة وكيانها المستقل وتيارها القومي الذي لا يعبأ بأخبار أي مسلم طالما أنه ليس مصرياً
- إن ما تقول للأسف مستمر حتي الآن فالأمة الإسلامية التي كانت تتسم بالسيولة السياسية كما تحدث عنها د جمال حمدان ومفهوم الاستقلال في المصطلح الإسلامي الذي تحدث عنه د محمود الحويري فأصبحت مقسمة إلي قوميات مختلفة فأنا مصري وهذا ليبي وهذا مغربي وهذا سوري وهذا يمني إلخ فلا يهتم أحد بما يحدث للآخرين
- هذا صحيح بل إن الرابطة العربية التي حاول البعض أن يجمع بها العرب تحت مظلة واحدة قد فشلت فشل ذريع ولم تنجح في توحيد أهدافهم
- لا توجد مثل الرابطة الإسلامية مهما حاولوا أن يستبدلوها برابطة أخري
- لقد استبدلوها بالفعل ولقد ذكرت لك هذه النقطة كي تعذرني عندما أتلو عليك تاريخ مصر من الكتب والمراجع من بعد هذه الثورة فلن تجدني أشير من قريب أو بعيد لما يحدث في العالم الإسلامي كما كنا نفعل قبل هذه الثورة فليس هناك دولة عثمانية أو مملوكية أو أيوبية ولا حتي دولة محمد علي كي تجمع المسلمين تحت قيادة واحدة ، وكل ما هنالك مصر فقط منفصلة معزولة عن العالم الإسلامي ألم يقولوا مصر للمصريين
- المدهش فيما تقول أنهم نجحوا في تفتيت العالم الإسلامي ووضعوا فيما بينه الحدود وأصبح لكل دولة إسلامية وزارة خارجية وعملة خاصة وتأشيرات دخول فيما بينها ورحم الله الرحالة ابن بطوطة الذي تجول في العالم الإسلامي كله بلا حرج ، وبعد أن نجحوا في تفتيتنا أقاموا لديهم الاتحاد الأوروبي حيث عملة واحدة وسياسة خارجية واحدة وحرية حركة بلا تأشيرات فيما بينهم كما لو كانوا أمة كالأمة الإسلامية التي دمروها
- الغريب حقاً أنهم نجحوا في ذلك رغم تعدد اللغات التي يتحدثون بها وتعدد عاداتهم وتقاليدهم وتواريخهم ، أما نحن فأولي بكل هذا منهم فنحن لغة واحدة وتاريخ واحد ودين واحد ولا حول ولا قوة إلا بالله

- علي أي حال لقد وصلت رسالتك وأنا متفهم تماماً لما ستقوله عن تاريخ مصر القومي الذي كتبه مؤرخون قوميون ، ومع ذلك لن يخلو الأمر من الحديث عن أي حدث علي مستوي المسلمين بشكل عام إذا توفر لديك
- بالتأكيد ، ولنستكمل الحديث عن ثورة سنة ١٩١٩ إذا لم يكن لديك مانع
- كلي آذان صاغية

الإنجليز يفضلون التعامل مع زعماء للشعب أكثر مرونة من مصطفي كامل ومحمد فريد

- (كانت سلطات الاحتلال تدرك تماماً أن الثورة الشاملة ستنفجر حتماً وخاصة بعد انتهاء الحرب وإعادة ترتيب مناطق النفوذ في العالم وتطلع الشعوب المختلفة إلي انتزاع استقلالها وكانت تدرك أنها طالما أصرت علي استمرارها في احتلال مصر وفرض الحماية عليها وإلغاء حق السيادة الشكلية التركية عليها ، فإن ذلك كله سيجعل الشعب المصري يلجأ إلي الطريق الوحيد المتاح أمامه لانتزاع استقلاله وهو طريق الثورة بعد نفاذ صبره وضياع أمله في أن يمنحه مؤتمر الصلح هذا الاستقلال ، كانت سلطات الاحتلال تدرك أن التراكمات الثورية الطويلة التي زرعها مصطفي كامل ومحمد فريد وغيرهما لابد ستنفجر يوماً وحان هذا اليوم بعد الحرب العالمية الأولي ، وتجاهل مطالب مصر في مؤتمر الصلح وكان لابد من تطويق هذا الأمر ومحاولة احتواء الثورة المرتقبة أو استنفاذها في متاهات وروافد جانبية وهكذا كان لابد من قوة جديدة تكون بديلة للحزب الوطني الذي هو القيادة الطبيعية والصلبة للجماهير والتي لم تعرف التنازل عن مطالبها يوماً وكانت تلك القوة الجديدة هو ظهور حزب الوفد بحيث تكون قيادته من المعروفين بموالاة الاحتلال أو مداهنته أو عدم الصبر الطويل علي النضال الجماهيري ضد الاحتلال وعلي أساس أن يرفع هذا الحزب مطلب الجلاء بشرط استبعاد الحزب الوطني من المسألة ثم الوصول مع حزب الوفد إلي حلول جزئية وجانبية ،، إذا كانت الثورة كانت مسألة حتمية بفعل الجهاد الطويل والتراكم الثوري الذي تركه الحزب الوطني في الواقع المصري وبفعل وصول الشعب المصري إلي قناعة أنه لا أمل في الاستقلال عن طريق مؤتمر الصلح فإن ذلك كله كان ومع نهاية الحرب العالمية الأولي قد وجد أسباباً أخري ، كان هناك إعلان الحماية البريطانية علي مصر وإلغاء السيادة التركية الاسمية عليها وكان هناك خلع الخديوي عباس وتعيين السلطان حسين ، وأياً كان الرأي في هذا الخديوي أو ذاك السلطان ، فإن مجرد التلاعب بالعرش وجعل أمره في يد الإنجليز يعني إهدار كامل لقيمة الشعب وهيئاته التشريعية مهما كانت ضعيفة أو شكلية ،، وكان هناك توريط مصر في الحرب علي الرغم من قناعتها الدينية والمصلحية التي تحتم وقوفها مع تركيا أو علي الأقل عدم الوقوف ضدها ، ولكن الإنجليز زجوا بمصر ومرافقها وشعبها لدعم المجهود الحربي للحلفاء وساعدهم علي ذلك سلطان ضعيف وحكومة خائنة "حكومة حسين رشدي" حيث تركت للإنجليز إجبار المصريين علي العمل في بلاد الحلفاء أو في معسكراتهم ، بل وساهمت في الحرب بثلاثة ملايين جنيه

تبرعت بها لصالح إنجلترا بدعوي أن إنجلترا تحمي مصر ، بل وصل الأمر إلي حد جمع الدواب وبيعها بثمن بخس للإنجليز لدعم المجهود الحربي للحلفاء ، ووصل الأمر أيضاً إلي حد الزج بالجيش المصري لقتال الأتراك في سيناء والقناة والسنوسيين علي حدود مصر الغربية ، مساعدة الإنجليز علي السيطرة علي السودان ، وكانت هناك المظالم الإدارية التي مارستها السلطات لحساب الإنجليز والتي تعسفت في قهر الشعب سواء بالأحكام العرفية ، أو تعطيل الجمعية التشريعية أو إلغاء وزارة الخارجية أو وضع الرقابة علي الصحف أو باعتقال الأهالي بسبب أو بدون سبب أو ممارسة أقسي أنواع الظلم في جمع الرديف أو العمال المطلوبين لخدمة المجهود الحربي للحلفاء ،، وكانت هناك عمليات مصادرة الأرزاق والحاصلات الزراعية والمواشي والدواب مما جعل حياة الأهالي عسيرة جدا وأصيبوا بالفقر والجوع وعانوا من الغلاء ،، – – وكان المخطط الاستعماري الإنجليزي الخبيث يدرك أنه لن يستطيع منع انفجار الثورة وبالتالي عمل علي تطويقها قبل أن تبدأ ، ووضع علي رأسها بالخداع والقسر والإجراءات زعامات يمكن لها أن تتفاهم مع الإنجليز ، وأن تلتف حول الجماهير وتلهيها بمكاسب جزئية مؤقتة

- وهذا ما لن يقبل به الحزب الوطني بالطبع
- وكانت سلطات الاحتلال تعمل منذ وقت مبكر وكانت تدرك أن التراث السياسي والمبدئي للحزب الوطني والخبرة التاريخية التي امتلكها ستجعله متمسك بالمبادئ الجوهرية للشعب في الجلاء العاجل والدستور وبالتالي فلابد من إزاحة هذا الحزب جانباً والتخلص من قيادات الحركة الوطنية التي ترفض الحلول الوسط والمفاوضات والمناورات وهكذا وجدنا سلطات الاحتلال تحرص علي ضرب الحزب الوطني ضربات متلاحقة وعنيفة وصلت إلي حد القضاء علي صحافته تماماً والتخلص من شخصيات الحزب المخلصة والثورية فتم اعتقال البعض وتم نفي البعض الآخر ، كما مارست سلطات الاحتلال أقصي قدر من القمع والاعتقال والمطاردة والتفتيش لكوادر الحزب ومنظماته العلنية والسرية ،، وفي نفس الوقت عملت سلطات الاحتلال علي التفاهم والمناقشة مع قطاع من الأعيان المصريين وخاصة الوزراء الحاليين والسابقين حول ما يسمي بالمسألة المصرية ومن الطبيعي أن هذا القطاع من الأعيان والوجهاء كان يسعي لانتزاع استقلال مصر ولكن في إطار السيطرة الإنجليزية علي الأماكن الحيوية في مصر مثل قناة السويس ، وفي إطار السعي لدي مؤتمر الصلح أو مناشدة الضمير الإنجليزي أو غيرها من الوسائل التي لم ولن تجدي نفعاً
- بالتأكيد لن تجدي نفعاً طالما أنها ليست في إطار ثوري ، فهل معني هذا أن سعد زغلول ورفاقه أقروا في لقاء ١٣نوفمبر ١٩١٨ مع السير ونجت أحقية بريطانيا في السيطرة علي القناة ؟
- لقد طلب هؤلاء الثلاثة استقلال مصر في مقابل ضمانات لإنجلترا بأن تكون صاحبة وضع خاص في مصر وأن يكون من حقها احتلال قناة السويس عند الإقتضاء ، وقارن بين هذا وبين المطلب التقليدي والدائم للحزب الوطني في الجلاء التام دون قيد أو شرط ،، اعترف الثلاثة أن للإنجليز فضل كبير علي

مصر وأن المطالبة المصرية يجب أن تكون محل مداولة بين مصر وأنجلترا مباشرة دون إشراك غيرها في هذا الأمر وفي هذا اعتراف ضمني بشرعية الاحتلال ، هاجم المستر ونجت الحزب الوطني ومحمد فريد واصفاً إياه بالتطرف ، وقد نفي الثلاثة صلتهم بالحزب الوطني وأعلنوا عدم تطرفهم واستعدادهم حتي للقبول بمستشار انجليزي دائم للمالية لتطمئن أصحاب الديون ،، أصر المستر ونجت علي أن تلك المحادثات ودية وليست ذات صفة رسمية كما ألمح للثلاثة عن عدم حقهم بالحديث باسم مصر وبالطبع لم يكن المستر ونجت يلهو أو يلعب وهو الخبير بالشئون المصرية ، وقد قبل الحديث مع هؤلاء الثلاثة ليحقق أكثر من هدف ، وهو الذي يعرف جيداً أن جميع الأحوال في مصر تبشر بانفجار الثورة ، وكان ونجت يستهدف تخدير الجماهير بمثل تلك المحادثات ويهدف أيضاً إلي إظهار زعامة أخري للجماهير غير زعامة الحزب الوطني المتشددة والمتطرفة من وجهة نظره طبعاً ، أي أن الهدف هو منع انفجار الثورة أو وضع زعامة فوق رأسها تكون أكثر استعدادا للتفاهم ،، علي كل حال ابتلع الثلاثة الطعم إلي آخره ، أو قل حاولوا تبليعه للشعب المصري

- لذلك لم تكن الثورة دموية عنيفة وكانت سلمية وتحت السيطرة ويمكن تهدئتها أو إشعالها طبقاً للمخطط
- فاتفق سعد زغلول مع حسين رشدي باشا علي تأليف هيئة تسمي الوفد المصري وأن تحصل هذه الهيئة علي توكيلات من الأمة تخولها هذه الصفة أي ظهور قوة شعبية أخري كبديل عن الحزب الوطني)[١٣٨]
- معني هذا أن نواة حزب الوفد كانت من رحم هذا الاتفاق الذي يقبل بالحلول الوسط وبالمسارات التفاوضية والقانونية ويعتمد علي الخلق الإنجليزي الرفيع من وجهة نظرهم
- بالتأكيد لأن حسين رشدي باشا عمل في الوزارة مدة طويلة في ظل الاحتلال البريطاني كوزير وكرئيس وزراء وكانت سياساته كلها تخدم مصالح بريطانيا والحلفاء وهو محل ثقة الإنجليز (– – أما سعد زغلول فهو وزير المعارف في حكومة مصطفي فهمي منذ ١٩٠٦ وقد وقف من خلال ذلك المنصب موقفاً مريباً وقمعياً من الحركة الطلابية وشهد الطلبة علي يديه كثير من الاضطهاد والعنت ، ووقف سعد زغلول ضد اقتراح الجمعية العمومية بجعل التعليم في المدارس الأميرية باللغة العربية بدلاً من الإنجليزية "مارس١٩٠٧" وقد كتب مصطفي كامل تعليقاً علي هذا الأمر :"إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون من قبل لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الوزراء مصطفي فهمي باشا الأمين علي وحيه الخادم لسياسته وفهمت الناس الآن أن سعد زغلول شديد الميل إلي السلطة " – – – ووقف سعد زغلول مع وزارة بطرس غالي ضد الأمة المطالبة

[١٣٨] نقلاً باختصار عن كتاب تاريخ مصر الحديث –د محمد مورو

للدستور بدعوي أن الأمة لم تنضج بعد لهذا الأمر ، كما دافع عن مشروع مد امتياز القناة – – وكان سعد زغلول لا ينكر علاقته الودية باللورد كرومر)[١٣٩]

- إن ما ذكرته عن سعد باشا زغلول يعتبر سباحة ضد التيار لذلك يذكرني بما ورد في مقدمة كتاب كنت محتفظ به كتبته الكاتبة سهير حلمي واسمه أسرة محمد علي حيث كتبت ما يلي (– – – فالمعضلة التي تواجه أي كاتب يتطرق للكتابة عن الشخصيات التاريخية ، أن شبح الكتابة الأولي يظل يطارده بعد أن تكون الشخصية قد وصمت بوشم يدخلها بحيرة التاريخ الراكدة ، وتكون الكتابة عنها بعد ذلك من وجهة نظر مخالفة ، نوعاً من السباحة ضد التيار ، والسباحة ضد التيار ترسو بصاحبها إلي بر الأمان في تعب وإعياء لكنها لا تغير اتجاه التيار ، إلا لمن أراد أن يبذل مجهوداً خاصاً لكي يصل إلي قناعة ذاتية ترضيه ، من هذا المنطلق طالت إقامتي بين الموسوعات والوثائق والدراسات التاريخية لكبار مؤرخينا ، حتي كدت أصاب بداء التاريخ الذي تحدث عنه نيتشه)[١٤٠] ، ولنعود للحديث عن أحداث الثورة التي من الواضح أنها كانت سلمية أو هكذا بدأت علي الأقل ثم تطورت فيما بعد
- هذا صحيح فأهم ما يلفت النظر في أحداث هذه الثورة أنها بدأت كمظاهرات سلمية وحاول المتظاهرون أن تظل الثورة محتفظة بسلميتها ولذلك قاموا بتشكيل ما نسميه اليوم لجان شعبية للمحافظة علي النظام
- بالطبع سنتكلم عن أهم أحداث الثورة ولكنني أحتاج أن أعرف ما حدث يوم ١٣ نوفمبر وما دار من حديث بين السير ونجت وسعد زغلول ورفاقه من كتاب الرافعي عن الثورة لأنني مع الاعتذار الشديد لا يطمئن قلبي لما ذكره الكتاب الآخر عن موافقة سعد زغلول علي احتلال بريطانيا لمصر عند الحاجة ، فإذا قرأت هذا الكلام من كتاب الرافعي سيكون أكثر إقناعا بأنه حدث
- ولكنني قد ذكرت لك أهم ما دار في ذلك اللقاء وإذا ذكرته مرة أخري سيكون تكرار ممل
- لا بل سيكون تكرار محمود كما يقال وخاصة أن النقطة التي أريد معرفتها لم تذكرها فيما ذكرت عند حديثك عن هذا اللقاء
- لا مانع علي الإطلاق وسأتلو عليك إن شاء الله ما ورد عن هذا اللقاء في كتاب الرافعي وسنتوقف عندما تأتي النقطة التي تنتظرها الخاصة بموافقة سعد ورفاقه علي إعادة احتلال بريطانيا لمصر ثم بعد ذلك سوف نستعرض فقرات أخري من كتاب الرافعي
- كلي آذان صاغية

جانب من حوار ١٣ نوفمبر من كتاب ثورة سنة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي

[١٣٩] نقلاً باختصار عن كتاب تاريخ مصر الحديث –د محمد مورو

[١٤٠] من مقدمة كتاب أسرة محمد علي – تأليف سهير حلمي – باختصار

- يقول الرافعي في كتابه[141] : بدأ السير ونجت الحديث بقوله : إن الصلح اقترب موعده ، وإن العالم يفيق بعد غمرات الحرب التي شغلته زمناً طويلاً ، وإن مصر سينالها خير كثير ، وإن الله مع الصابرين ، وإن المصريين هم أقل الأمم تألماً من أضرار الحرب ، وإنهم مع ذلك استفادوا منها أمولاً طائلة ، وإن عليهم أن يشكروا دولة بريطانيا العظمي التي كانت سبباً في قلة ضررهم وكثرة فائدتهم ،، فأجابه سعد باشا : ما تكون إنجلترا فعلته خيراً لمصر فإن المصريين بالبداهة يذكرونه لها مع الشكر ، وخرج من ذلك إلي القول بأن الحرب كانت كحريق انطفأ ولم يبق إلا تنظيف آثاره وأنه يظن أن لا محل لدوام الأحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات ، وأن الناس ينتظرون بفروغ الصبر زوال هذه المراقبة كي ينفسوا عن أنفسهم ويخففوا عن صدورهم الضيق الذي تولاهم أكثر من أربع سنين ،، فقال السير ونجت : حقاً أنه ميال لإزالة المراقبة المذكورة ، وأنه تخابر فعلاً مع القائد العام للجيوش البريطانية في هذا الصدد ، ولما كانت هذه المسألة عسكرية فإنه بعد تمام المخابرة والاتفاق مع القائد سيكتب للحكومة البريطانية ، ويأمل الوصول إلي ما يرضي ، ثم استمر قائلاً : يجب علي المصريين أن يطمئنوا ويصبروا ويعلموا أنه منذ فرغت إنجلترا من مؤتمر الصلح فإنها تلتفت لمصر وما يلزمها ولن يكون الأمر إلا خيراً ،، فقال سعد باشا : إن الهدنة قد عقدت ، والمصريون لهم الحق أن يكونوا قلقين علي مستقبلهم ، ولا مانع يمنع الآن من أن يعرفوا ما هو الخير الذي تريده إنجلترا لهم ،، فقال : يجب ألا تتعجلوا وأن تكونوا متبصرين في سلوككم ، فإن المصريين في الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة ،، فقال سعد باشا : إن هذه العبارة مبهمة المعني ، ولا أفهم المراد منها ،، فقال : أريد أن أقول إن المصريين ليس لهم رأي عام بعيد النظر ،، فقال سعد باشا :لا أستطيع الموافقة علي ذلك فإني إن وافقت أنكرت صفتي ، فإنني منتخب في الجمعية التشريعية عن قسمين من أقسام القاهرة ، وكان انتخابي بمحض إرادة الرأي العام مع معارضة الحكومة واللورد كتشنر في انتخابي ، وكذلك كان الأمر مع زميلي علي شعراوي باشا وعبد العزيز بك فهمي ،، فقال السير ونجت :إنه قبل الحرب كثيراً ما حصل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله من الحزب الوطني ، وكان ذلك بلا تعقل ولا روية ، فأضرت مصر ولم تنفعها فما هي أغراض المصريين ؟ ،، فقال علي شعراوي باشا :إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر لا العبد للحر ،، فقال السير ونجت : إذاً أنتم تطلبون الاستقلال ؟ ،، فقال سعد باشا :ونحن له أهل ، وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال كباقي الأمم المستقلة ؟ ،، فقال السير ونجت :ولكن الطفل إذا أعطي من الغذاء أزيد مما يلزم تخم ،، فقال عبد العزيز بك فهمي :نحن نطلب الاستقلال التام وقد ذكرتم جنابكم إن الحزب الوطني أتي من الحركات والكتابات بما أضر ولم يفد ، فأقول لجنابكم إن الحزب الوطني كان يطلب الاستقلال ، وكل البلد كانت تطلب الاستقلال ، وغاية الأمر إن طريقة الطلب التي سار عليها الحزب الوطني في تنفيذ مبدئه الأساسي الذي هو مبدأ كل

[141] نقلاً عن كتاب ثورة ١٩١٩ –عبد الرحمن الرافعي = دار المعارف=الطبعة الرابعة–من صفحة ١١١ وما بعدها

الأمم ، وهو الاستقلال التام ، قام جماعة من الشيوخ الذين لا يظن فيهم التطرف في الإجراءات وأسسوا حزب الأمة وأنشأوا صحيفة "الجريدة" وكان مقصدهم هم أيضاً الاستقلال التام ، وطريقتهم أخف في الحدة من طريقة الحزب الوطني ، وذلك معروف عند الجميع ، والغرض منه خدمة نفس المبدأ المشترك بطريقة تمنع الاعتراض ، ونحن في طلبنا الاستقلال التام لسنا مبالغين فيه فإن أمتنا أرقي من البلغار والصرب والجبل الأسود وغيرها ممن نالوا الاستقلال قديماً وحديثاً ،، فقال السير ونجت : ولكن نسبة الأميين في مصر كبيرة لا كما في البلاد التي ذكرتها إلا الجبل الأسود والألبان علي ما أظن ،، فقال عبد العزيز بك فهمي :إن هذه النسبة مسألة ثانوية فيما يتعلق باستقلال الأمم ، فإن لمصر تاريخاً قديماً باهراً وسوابق في الاستقلال التام وهي قائمة بذاتها وسكانها عنصر واحد ذو لغة واحدة وهم كثيرو العدد وبلادهم غنية ، وبالجملة فشروط الاستقلال التام متوفرة في مصر ، ومن جهة نسبة الأميين للمتعلمين ، فهذه مسألة لا دخل لها في الاستقلال كما قدمت ، لأن الذين يقودون البلاد في كل الأمم أفراد قلائل ، فإني أعرف أن لإنجلترا وهي بلاد العظمة والحرية عند أهلها ثقة كبري بحكومتها فأرباب الحكومة وهم أفراد قلائل هم الذين يقودونها وهي تتبعهم بلا مناقشة في كثير من الأحوال لشدة ثقتها بهم وتسليمها لهم ، ولذلك فمجلس نوابها ليس كل أفرادهم العاملين ، وإنما العامل منهم فئة قليلة ، فبلاد مصر يكفي أن يكون فيها ألف متعلم ليقوموا بإدارتها كما ينبغي ، وهي مستقلة استقلالاً تاماً – ونحن عندنا كثير من المتعلمين ، بدليل أن أولي الحل والعقد نسمع منهم في كثير من الأحيان أن التعليم زاد في البلد حتي صار طائفة من المتعلمين العاطلين ، وأما من جهة تشبيهنا بالطفل يتخم إذا غذي بأزيد من اللازم فاسمحوا لي أن أقول إن حالنا ليست مما ينطبق عليها هذا الشبه ، بل الواقع أننا كالمريض مهما أتيت له من نطس الأطباء استحال عليهم أن يعرفوا من أنفسهم موقع دائه ، بل هو نفسه الذي يحس بألم الداء ويرشد إليه ، فالمصري وحده هو الذي يشعر بما ينقصه من أنواع المعارف وما يفيده في الأشغال العمومية وفي القضاء وغير ذلك ، فالاستقلال التام ضروري لرقينا ،، فقال السير ونجت :أتظنون أن بلاد العرب وقد أخذت استقلالها ستعرف كيف تسير بنفسها ؟ ،، فقال عبد العزيز بك :إن معرفة ذلك راجع إلي المستقبل ، ومع ذلك فإذا كانت بلاد العرب وهي دون مصر بمراحل أخذت استقلالها فمصر أجدر بذلك ،، فقال السير ونجت :قد كانت مصر عبداً لتركيا ، أفتكون أحط منها لو كانت عبداً لإنجلترا ؟فقال شعراوي باشا :قد أكون عبداً لرجل من الجعليين وقد أكون عبداً للسير ونجت الذي لا مناسبة بينه وبين الرجل الجعلي ، ومع ذلك لا تسرني كلتا الحالتين ، لأن العبودية لا أرضاها ولا تحب نفسي أن تبقي تحت ذلها ، ونحن كما قدمت نريد أن نكون أصدقاء لإنجلترا صداقة الأحرار لا صداقة العبيد ،،فقال السير ونجت :ولكن مركز مصر حربياً وجغرافياً يجعلها عرضة لاستيلاء كل دولة قوية عليها وقد تكون غير إنجلترا ،، فقال سعد باشا :متي ساعدتنا إنجلترا علي استقلالنا التام ، فإننا نعطيها ضمانة معقولة علي عدم تمكين أي دولة من استقلالنا والمساس

بمصلحة إنجلترا فنعطيها ضمانة في طريقها للهند وهي قناة السويس ، بأن نجعل لها دون غيرها حق احتلالها عند الاقتضاء ، بل نحالفها علي غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ما تستلزمه المحالفة من جنود – – -- – -- -- وبقية الحديث بكتاب ثورة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي – دار المعارف

- لم أكن أتخيل أن هذا الحديث قد دار علي هذا النحو ، وأعتقد أن التعليق الوحيد الذي يناسبه هو أن الإنجليز قد نجحوا في تكوين عقليات مصرية قد فقدت اعتزازها بقوميتها الإسلامية وتستجدي حقوقها من دولة تعتقد أنها عظمي وقد فقدوا شعورهم بأنهم كانوا جزء من كيان إسلامي ضخم ساد العالم لفترة طويلة ، إنه حقاً حوار يحمل من المهانة والذل ما يحمل
- الأهم من كل هذا أن الإنجليز نجحوا في تكوين زعامة شعبية غير ثورية وتشعر بالدونية تجاههم وتتمسك بالقانون البريطاني والمناورات السياسية التي لا تجدي مع أمثال هؤلاء لتحصل علي حقوق الشعب المصري وسوف يكتشف سعد زغلول فيما بعد كما سنري أن المؤامرات الاستعمارية أقوي من مبادئ الديموقراطية التي تدعي بريطانيا أنها ترفع رايتها في العالم
- إن بريطانيا بالفعل ترفع راية الديموقراطية ولكن ليس في عالمنا نحن فنحن بالنسبة لهم كائنات علي هيئة بشر وليس لنا أي حقوق من حقوق الإنسان ، علي أي حال دعنا نعود لما قد ذكرته عن ما يسمي لجان شعبية خلال هذه الثورة للمحافظة علي سلميتها طبقا لما يريده قادة الثورة ، السلميون السياسيون الذين يرفضون استخدام العنف

لجان شعبية أثناء ثورة ١٩١٩ للمحافظة علي سلميتها

- يقول الرافعي عن هذا الموضوع : ألف المتظاهرون جماعة منهم يتولون حفظ النظام في أثناء سير المظاهرات وفي الاجتماعات التي كانت تعقد لسماع الخطب أو لتنظيم المظاهرات ، سميت (الشرطة الوطنية) جعل لأفرادها شارات خاصة تميزهم عن سواهم ، وهي شريط من القماش الأحمر يحيط بالذراع الأيسر ، وقد كتب عليه بالقماش الأبيض (بوليس وطني) وكانوا يحملون العصي ليقصوا عن المتظاهرين من يندس فيهم من الغوغاء ، ومنهم من كان يحمل القرب وقلل الماء لسقيا من يظمأ من المتظاهرين ، وكان الجمهور يستجيب لنداء الشرطة الوطنية ، ويعمل بإرشاداتهم عن طواعية واختيار ، فكان لهذه الجماعة فضل كبير في تنظيم المظاهرات والبعد بها عن الاعتداء علي الممتلكات والأنفس ، وقد أسندت رئاستها إلي الشيخ مصطفي القاياتي ، وكان يصدر تعليماته إلي أفرادها من منزله بالسكرية ، وبالرغم من أن هذه الجماعة قد أفادت في حفظ النظام ومنع اندساس الغوغاء في المظاهرات فإن السلطة العسكرية البريطانية أصدرت أمراً في ١٨ إبريل سنة ١٩١٩ بمنعها ، وتوعدت من ينتمي إليها بالاعتقال والمحاكمة[١٤٢] وهو ما ورد في كتاب ثورة ١٩١٩ للرافعي
- فهل استمرت الثورة سلمية بالفعل إلي النهاية أم حدثت تجاوزات ؟

---

[١٤٢] نقلاً عن كتاب (ثورة ١٩١٩) لعبد الرحمن الرافعي – صفحة ٢٣٥

- بالتأكيد قد حدثت تجاوزات ، فلا يمكنك السيطرة علي حراك شعبي ضخم قد تجاوز حدود العاصمة إلي سائر مدن مصر فكان من الطبيعي أن يقوم المتحمسون من الشباب بأعمال عنف وقطع للسكة الحديد والأعتداء علي بعض الممتلكات العامة وخاصة بعد أن استخدم الإنجليز القوة المفرطة في فض المظاهرات وسقوط شهداء وجرحي فهو رد فعل طبيعي
- أي أن الثورة قد تطورت رغما عن الجميع وحدثت أعمال عنف ، وسقط شهداء وجرحي ، ولن أسألك عن رد فعل قوات الاحتلال البريطاني لأنه سيكون سؤال ساذج ومعروف إجابته مسبقاً ، ولكن ماذا كان رد فعل قادة الثورة وزعماء الشعب لإحتواء هذه الأحداث والذين كانوا يفضلون السلمية بالطبع ؟

نداء إلي الشعب خلال ثورة ١٩١٩ للالتزام بالسلمية

- كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي عن هذا الموضوع ما يلي : اجتمع أعضاء الوفد وكبار العلماء وبعض الوزراء السابقين والأعيان واتفقوا علي إصدار نداء إلي الأمة يدعونها فيه إلي الإخلاد للهدوء والسكينة ، قالوا : أصدرت السلطة العسكرية – البريطانية – إنذاراً بأنها ستتخذ أقسي ما يكون من الوسائل الحربية عقاباً علي ما يقع من الاعتداء علي طرق المواصلات والأملاك العمومية ، ولا يخفي علي أحد أن الاعتداء سواء كان علي الأنفس أو علي الأملاك محرم بالشرائع الإلهية والقوانين الوضعية ، وإن قطع طرق المواصلات يضر أهل البلاد ضرراً واضحاً إذ هو يحول بينهم وبين مباشرة مصالحهم ، ويوقف حركة نقل المحاصيل والأرزاق ، ويعطل المعاملات والأخذ والعطاء ، ويسبب العسر وسوء الحال ، علي أن العقاب عليه يعرض بعض القري للتخريب ويعرض الأنفس البريئة إلي أن تؤخذ بما لم ترتكب من الذنوب ، وينبغي أن يلاحظ أن مثل هذا الاعتداء يضيع علي المصريين ما ينتظرونه من العطف عليهم بما يسبب من رواج إشاعات السوء عنهم ، من أجل ذلك رأي الموقعون علي هذا من أقدس الواجبات الوطنية أن يناشدوا الشعب المصري باسم مصلحة الوطن أن يتجنب كل اعتداء وأن لا يخرج أحد في أعماله عن حدود القوانين حتي لا يسد الطريق في وجه كل الذين يخدمون الوطن بالطرق المشروعة ، كما أننا ندعو أعيان البلاد وأرباب النفوذ فيها أن يقوموا بالواجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيسارعوا إلي اتخاذ جميع ما لديهم من من الوسائل لمنع وقوع كل ما ينجم عنه ضرر للبلاد وإنا شديدو الرجاء في أن الأمة المصرية بما عرفت به من التعقل والروية تصغي إلي هذا النداء ، وتلزم طريق الحكمة في سلوكها ، والله الهادي إلي سواء السبيل ، ٢٤ من مارس سنة ١٩١٩ [١٤٣]

---

[١٤٣] من كتاب (ثورة ١٩١٩ – تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلي سنة ١٩٢١) تأليف عبد الرحمن الرافعي – صفحة ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ – الطبعة الرابعة ١٩٨٧– دار المعارف

- لا أدري لماذا يذكرني هذا النداء بالمنشور الذي وزعته الحملة الفرنسية علي الشعب المصري أثناء الثورة آنذاك وأدعت أنه علي لسان المشايخ وكانوا يستعيذون فيه من الفتن ما ظهر منها وما بطن ويطلبون من الناس أن يهتموا بأسباب معيشتهم ويكفوا عن مقاومة الحملة الفرنسية
- بالفعل هناك شبه بين النداء والمنشور الذي تذكرته والفرق هو أن المنشور جاء علي لسان المشايخ الذين هم كانوا بطبيعة الحال زعماء الشعب ، أما النداء الذي نحن بصدد الحديث عنه فقد جاء علي لسان زعماء الأمة علي أختلاف توجهاتهم ودياناتهم فمنهم رجل الدين المسلم ومنهم أيضاً رجل الدين المسيحي وكذلك منهم سياسيين مسلمين ومسيحيين
- فهل ذكر الرافعي أسماء من قام بالتوقيع علي هذا النداء ؟
- بالتأكيد فهو كمؤرخ أمين يذكر أي حدث بجميع التفاصيل المتيسرة لديه
- فهل ممكن أن تقرأ بعض الأسماء الموقعة علي هذا النداء ؟
- بالتأكيد ولكن أريد قبل ذلك أن أوضح نقطة مهمة ذكرها الرافعي عن استبدال السير ونجت بشخص آخر رأت بريطانيا أنه أكثر شكيمة منه لقمع هذه الثورة وهو اللورد اللنبي
- هذا الجنرال الذي قاد التجريدة المصرية لاحتلال فلسطين ؟
- نعم ، وقد ذكر الرافعي عن هذا الموضوع ما يلي : أسلفنا القول بأن الحكومة الإنجليزية استدعت السير ونجت إلي لندن لتقف منه علي تطور الأحداث في مصر ، فلما تفاقمت الحوادث بعد رحيله وشبت الثورة رأت أن تستبدل به مندوباً آخر أكثر شكيمة وأقوي بأساً ، وأقدر علي مواجهة الثورة وقمعها ،، بتعيين الجنرال اللنبي مندوباً سامياً فوق العادة في مصر والسودان ، أما أسماء الموقعون علي النداء فكان منهم : شيخ الجامع الأزهر محمد أبو الفضل الجيزاوي ، مفتي الديار المصرية محمد بخيب ، بطريرك الأقباط كيرلس ، شيخ مشايخ الطرق الصوفية عبد الحميد البكري ، رئيس المحكمة الشرعية العليا محمد ناجي ، نقيب الأشراف عمر مكرم[١٤٤] ، حسين رشدي باشا ، عدلي يكن باشا ، أحمد مظلوم باشا ، إسماعيل سري باشا ، يوسف وهبه باشا ، عبد الخالق ثروت باشا ، أحمد حلمي باشا ، يوسف سابا باشا ، أحمد زيور باشا ، نجيب بطرس غالي باشا ، علي شعراوي باشا ، عبد العزيز فهمي بك ، أحمد لطفي السيد بك ، جورج خياط بك ، سينوت حنا بك ، وغيرهم ، وقد ذكر الرافعي أسمائهم بالكامل في كتابه بعد أن أورد نص النداء
- واضح من هذه الأسماء أنهم ينتمون إلي طبقة مختلفة عن عموم الشعب المصري فيما أظن ، فهل لديك معلومات أكثر تفصيلاً عنهم أو عن بعضهم
- هناك كتاب طريف اسمه (في المرآة) كتبه الشيخ عبد العزيز البشري وكان يتناول كل أسبوع شخصية عامة في جريدة السياسة الأسبوعية بأسلوب ساخر وقد ذكر بعض المذكورة أسمائهم كعدلي يكن وعبد

---

[١٤٤] لاحظ وجود تشابه أسماء بين نقيب الأشراف والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف في عهد محمد علي باشا

الخالق ثروت وأحمد زيور والشيخ أبو الفضل الجيزاوي وأحمد مظلوم باشا وغيرهم بالإضافة إلي سعد زغلول بالطبع

- وهل متوفر لديك الآن هذا الكتاب لتقرأ منه ؟
- بالتأكيد ولكن هذا سيأخذنا بعيداً عن موضوعنا وعن سرد أحداث الثورة
- لا توجد مشكلة بل بالعكس فإن إلقاء الضوء علي بعض شخصيات ذلك العصر سيوضح الكثير

بعض ما ورد في كتاب(في المرآة) لعبد العزيز البشري عن شخصيات ذلك العصر

- لا مانع ولنبدأ مثلاً بالشيخ أبو الفضل الجيزاوي أول الموقعين علي هذا النداء حيث كتب عن الشيخ البشري ما يلي : ألا من شاء أن يقدر مبلغ التطور الذي دخل علي رجال الدين عندنا ، ويعرف مدي الطفرة العظيمة التي طفروها فليسمع القصة التالية : كان في الأزهر من ستين أو سبعين سنة عالم جليل المقدار يُدعي الشيخ الاسماعيلي ، وكان يسكن الجامع المؤيد وله تلميذ خاص علي عادة كبار العلماء في ذلك الزمان يقرأ بين يديه درسه إذا أقبل علي حلقته ويتلوه عليه إذا خلا لمذاكرته ويعينه إذا سعي ويصب له ماء وضوئه - - إلخ ، وهذا التلميذ كان يُدعي الشيخ حسناً ، وكان الشيخ الاسماعيلي رجلاً شديد الزهد في الدنيا قوي الرغبة عنها ، لا يتعلق منها بسبب إلا ما كان من شأن دينه وتعليم طلبته ، وكانت وظيفته كل يوم بضعة رُغفان يتبلغ بها وتلميذه ، وفي كل شهر ثلاثين قرشاً يأتَدِم بها وصاحبه ، ويتجمل بما فضل منها لسائر حاجاتهما ، ويدعو أحد التجار ذلك الشيخ ليتغدي عنده التماساَ لبركته فيأبي الشيخ ويعتذر ، ويلح الرجل في الدعوة فيلح الشيخ في إبائه واعتذاره ، فلما أيس الرجل من إسلاس الشيخ ، طلب وجه الحيلة في الأمر فاختلي بالشيخ حسن وقال له : إذا رُضتَ لي نفس الشيخ وقدته إلي داري ليفطر عندي في رمضان ، وقد أصبحوا من رمضان علي أيام ، اجتعلت لك علي هذا نِحيين من السمن ، وغِرارتين من القمح ، وأربعة أعدال من السكر والصابون والشمع والبن ، فجمع الشيخ حسن كل عزمه وانصب علي شيخه يقبل يديه ورجليه ويسأله ألا يخيّب رجاء داعيه ، إذ الشيخ ما يزال في نفوره وإبائه ، والشيخ يلح في الاعتذار محتجاَ بأنه ما زال في خزانته خبز كثير ، ولما طال إلحاح التلميذ فطن الأستاذ إلي أن في الأمر شيئاً فقال له : هل اجتعل لك الرجل علي هذا جُعلاً ؟ فقال : بلي يا مولاي لقد جعل لي كيت وكيت ، وأنا رجل كما تعلم ذو زوجة وأولاد ، وإني أرجو أن أعود بهذا علي شملي وأوسع في النفقة دهراً علي عيالي ،، وحينئذ طابت نفس الشيخ الأكبر بإجابة الدعوة رحمةً بعيال الشيخ الأصغر ، وعيَّن يوماً من أيام رمضان ليفطر فيه عند ذلك التاجر ، ويطير عم الشيخ حسن إليه يبشره بقبول الشيخ ، ويحتفل الرجل للأمر فيدعو بأجود الطهاة ويتقدم إليهم بطهي أزكي الأطعمة ، كما يدعو لليوم المعين أعيان التجار والسراة وكل ذي خطر في الحي لينعموا بطلعة الشيخ ويتشرفوا بمؤاكلته ، حتي إذا كان عصر ذلك اليوم لاحظ الشيخ حسن علي أستاذه فتوراَ وإغضاء وتربُّد وجه وانقباضاً عن الحديث حتي إذا تهيأت الشمس للنزول قال

لصاحبه : هلم بنا ، وانطلقا يطلبان حي الجمالية مثوي الداعي وما كادا يتشرفان علي حارته حتي أبصرا علائم الزينة من بنود خافقة وثريات آلقة ترتجف أثناء ذلك بطاطيخ الزجاج في ألوانها ، ورأيا كبار الأعيان وهم ميممون دار الداعي علي أُتُنهم وبراذينهم الفارهة ، فجمد الشيخ واصفر وجهه وتهدلت شفته وأرعشت يداه وصاح في تلميذه : كم اجتعل لك الرجل يا شيخ ؟ فقال : جعل لي كيت وكيت ، قال : فكم يبلغ ثمنها ؟ قال : حول الأثني عشر جنيهاً ، قال : فقسِّطها عليَّ كل شهر ثلاثين شهراً ، ودار علي محوره وجري طلقاً إلي مثواه في جامع المؤيد حيث يبسُط خِوانه مما ادخر من الخبز في خزانته ، وفينا اليوم علماء كبار ، ولنا اليوم شيخ إسلام جليل المقدار ، لم يمنعهم علمهم ولا دينهم ولا شدة ورعهم عن أن يفقهوا الدنيا ويجاوروها في مظاهر حضارتها حتي لا يطلقوا فينا القالة ولا يبعثوا الألسن بتنقُّص الدين والقول بأنه يدعو إلي الجمود ، وذكرت مرجع ذلك الشيخ الجامد وهربه من تناول طعام لعله قد دخله ما لا يحل ، والشيخ أبو الفضل الجيزاوي رجل عصامي حقاً فقد خرج من بلدته الورَّاق من أعمال مركز إنبابة إلي الأزهر وجد في طلب العلم وكدح في ذلك كدحاً عنيفاً قام عنده مقام شدة الذكاء وقوة الاستعداد ، وانتهي أمره لا أدري بأية وسيلة إلي المرحوم الشيخ العباسي المهدي الذي كره له لقبه فدعاه (أبا الفضل) فذهب له هذا اللقب من ذلك اليوم ولما استوي عالما مدرسا كان المرحوم العباسي يعتمد عليه في بعض وسائل امتحان العالمية في الأزهر ، ورأي الشيخ أبو الفضل أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا كما يعمل لآخرته كأنه يموت غدا ، فحرص علي جمع المال ، وكم واسي به عاتيا وكم فرج به كربة محتاج ، علي أن الله تعالي قد أنعم عليه وجازاه فيما أعطي أضعافاً مضاعفة ، وظل الشيخ مدرساً في الأزهر معروفاً بشدة الاجتهاد والمطاولة في الدرس وقوة الصبر علي التفهم علي عادة الأكثرين من علماء الأزهر في عهده فكان درسه من أحفل الدروس بطلبة هذا النوع من التعليم ، وهو رجل معروف بحب القرآن وتلاوة القرآن فلم يتبطر وهو عالم كبير علي أن يلي مقرأة السلطان الحنفي لقاء ريال في كل شهر وعشرين رغيفا في كل أسبوع ، ثم ولي مشيخة معهد الإسكندرية وظل فيها إلي أن أفضت إلي مشيخة الإسلام في سنة ١٩١٦ أو ١٩١٧ م ، ويأبي الله إلا أن يفسح له في الخير ويبسط له في الرزق - - - إلي ما أضيف إلي ذلك من وظائف عدة تجري علي مولانا الشيخ الأكبر في كل شهر مكافأة علي حضور مجلس إدارة مدرسة القضاء الشرعي وأخري لمدرسة دار العلوم ، وثالثة علي حضور مجلس الأوقاف الأعلي ، ورابعة لمجلس البلاط وخامسة وسادسة ،، ، إلي تلك الأوقاف الواسعة التي دخلت علي مشيخة الأزهر والتي لا يعلم حسابها إلا الله تعالي وما شاء الله كان ، وقد أصبح من المرض وتزاحم السنين أشبه بمومياء حتي لو قد استدرجته إلي يوماً إلي دار الآثار ما استطعت أن تستخرجه منها إلا بعد جدال وجهد في الإثبات[١٤٥] ،

[١٤٥] نقلاً باختصار عن كتاب في المرآة تأليف الشيخ عبد العزيز البشري رحمه الله ورحم الله كل من أدرجهم في مرآته وجميع موتي

- واضح أن أسلوب الشيخ عبد العزيز البشري أسلوب رشيق وممتع فمن أيضاً من الموقعون علي النداء يمكن أن تقرأ لي عنه من هذا الكتاب لأن هذا الكتاب لا يلقي الضوء فقط علي الشخصية المقصودة ولكنه يوضح الكثير عن طبيعة المجتمع في ذلك الوقت
- يمكن أن تناول شخصية أحمد مظلوم باشا فقط ، علي الأقل الآن ثم إذا تطرق الحديث لشخصية أخري أثناء الحوار قد نلجأ لهذا الكتاب لتوضيح المزيد من المعلومات عنها ، ولكن تذكر أنه كتاب ساخر وبه الكثير من المبالغة
- أتفهم بالطبع ، فماذا ورد عن أحمد مظلوم باشا ؟
- يقول الشيخ البشري عن أحمد مظلوم باشا ما يلي : لعمري لو وقفت علي عُنُق[١٤٦] من الناس فحاجيتهم : ما أطول الحظوظ في أطول الأعمار في أطول الأجسام ؟ لأجابوك في نفس واحد : (مظلوم) ،،، وجه طويل علي علي عنق طويل علي جسم طويل ، ولو رأيته يمشي ولم تكن بعد عرفته لخُيِّل لك أنه (زفة بهلوان) وقف فيها رجل علي كتفي رجل ، وفي الحق لو قدّر –لا سمح الله– وأُزيل عنقه وما فوقه عن كتفيه وما دونهما لتمثّل منهما رجلان أشبه ما يكون كل منهما بخلق مظلوم ، وإني لأخشي أن ينكشف الزمن ولو بعد حين عن أن مظلوماً هذا رجلان إقتصاديان اتصلا بحيلة لطيفة حتي خرجا للناس في صورة رجل واحد توسلاً بهذا إلي ألا يدفعا عند السفر إلا ثمن تذكرة واحدة وفي الفندق إلا أجر سرير واحد وفي المطعم إلا عشاء رجل واحد وللخياط إلا ثمن بدلة واحدة ، وحدثتك بأنه طويل الحظ فقد خاض به حظه أهل الكفايات وأصحاب العلم والاختبار في عصره فتخطي به رقابهم إلي الوزارة ، ويظل وزيراً أو (ناظراً) للمالية في عهد اللورد كرومر قرابة ثلاث عشرة سنة إلي أن دالت الأيام لعهد السير غورست ، وانحرف وجه السياسة فهدت تلك الوزارة هداً ، ومظلوم أكفأ الإنس والجن لأن يظل ناظراً للمالية ثلاث عشرة سنة لا يلي أمراً . ولا يُراجَع في مسألة ولايُبدي رأياً ولا يقرأ سطراً ولا يكتب كلمة ، ولا ينطق بحرف ، حتي يقال له خذ متاعك لقد سقطت الوزارة ، فلا يجد ما يحمله معه إلا أنفه وإلا يديه ورجليه ، أستغفر الله ، وإلا الختم ، فنحن إذا أردنا أن نترجم لمظلوم باشا في حياته الوزارية فإنما نترجم عن الختم ، والله يعلم ما تعب إلا الختم ولا جَهِد إلا الختم ولا استحق المعاش الكامل في الواقع إلا هذا الختم ، فطالما دار في غفلة مولاه وبَرَم ، وطالما نقش وبصم ، وبدَّل من أحوال الدولة أحوالاً ، وبدَّد أعلاقاً وأموالاً ، وبسط للشركات الأجنبية في أرضها بسطاً ، وأخرج عنها جلائل أملاكها قسطاً فقسطاً ، فإذا حملتم للباشا أيها المصريون علي هذا حمداً أو لوماً فاصرفوه كله إلي هذا الختم وحده ، فإن الباشا –والله– لكإسمه مظلوم ، ويُدسَّي بعد هذا في المعاش وقد نيَّف علي السبعين ، وينقطع عن الناس خبره فلا يدرون أيكتبونه في جريدة الأحياء أم يدرجونه في سجل الأموات ، ولكن

المسلمين ورحم الله الشيخ أبو الفضل الجيزاوي وغفر لهم أجمعين

[١٤٦] أي جماعة منهم

يأبي له حظه الكبير إلا أن يبعثه بعد هذا بعثاً كبيراً فيتولي صهره ووارثه محمد سعيد باشا رياسة الوزراء ويستقيل المغفور له الأمير حسين كامل من رياسة الجمعية التشريعية فيجئ لها سعيد بصهره ومورثه (بعد ٥٠٠سنة) إن شاء الله مظلوم ، فيزيد في الإرث بمقدار ثلاثة آلاف جنيه في العام مرتب رياسة الجمعية ، من فوقها خمسمائة بدل ولائم ، وسعيد كان أكيس من أن يظن أن مظلوماً (يقل عقله) ويصنع في عمره لأيٍّ كان وليمة واحدة ، وتدخل الحرب العامة وتقف الجمعية التشريعية ويظل مظلوم يحزُّ علي الحكومة ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه كل عام حتي يأذن الله ويُعلَن حلها في آخر عام ١٩٢٤ من حيث بدأت حياة البرلمان ، علي أن حظ مظلوم لم ينحل بانحلال الجمعية التشريعية فقد انزلق أيضاً إلي مجلس النواب بل أضحي له رئيساً ثم صار وزيراً للأوقاف أيضاً يقتضي من الراتب ما يقتضي الوزراء ، ومظلوم باشا غني فظيع الغني يجري وراء الدنيا والدنيا تجري وراءه حتي لم تجد بين أولئك الملايين الذين يحرزون سندات بلدية باريز عائلاً مسكيناً محتاجاً تحبوه نمرتها الرابحة ١٠٠٠٠ جنيه إلا أحمد مظلوم ، وله عمارات هائلة وأطيان تعيي مصلحة المساحة وأوراق مالية يخطئها العد ، ونقود في المصارف لا تكاد تحيط بها الأرقام ، إذ هو في كل هذا يتيم فرد لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت ولا ولد ، ولكنه رجل شديد البر بأهله من أولاد الإخوة وأولاد الأخوات ، فإنه ليضن علي نفسه بالدانق والسحتوت ويقمع نفسه عن التطلع إلي شئ مما تتطلع إليه أنفس الناس من ملاذ الدنيا ومتعها إيثاراً لهؤلاء فهل رأيت براً أعظم من هذا البر وإيثارا أبلغ من هذا الإيثار ، وكان له بيت يسكنه في محطة (مظلوم) بالرمل ، فلاحظ أحد أصدقائه أنه اتخذ لجلوسه غرفة لا تصلح لهذا في حين قد امتلأ البيت بأحاسن الغرف ، فراجعه في هذا حتي فطن إلي أن الباشا إنما اتخذ هذه الغرفة لمجلسه لأن مصباح الشارع يقوم بإزائها فلا تجشمه نفقة المصباح - - - وبعد فما أعرف أحد أمتن صبراً ولا أطول بالاً من هؤلاء المساكين ورثة مظلوم فقد انتظروا أدهارا والأعمار تتصرم والأنفس تتخرم والباشا –أحياه الله الحياة الطيبة– لا يزداد علي الأيام إلا قوة ولا يكسبه طول السن إلا شبابا وفتوة[١٤٧]

- لقد كان ذلك رائعاً وممتعاً حقاً وقد خفف كثيراً من جدية الحوار ، ولنعود مرة أخري للحديث عن الثورة
- إن الموضوع باختصار شديد أن الثورة استمرت في جميع أنحاء مصر إلي أن قام الإنجليز بمهادنتها والسماح للوفد المصري أن يتوجه إلي مؤتمر الصلح في باريس حيث أعادوا سعد زغلول ورفاقه من منفاهم وسمحوا لهم بالسفر ولحق بهم باقي أعضاء الوفد من مصر
- فماذا حدث للوفد المصري في أوروبا ؟
- اكتشف سعد زغلول في أوروبا أن المؤامرات الاستعمارية أقوي من مبادئ الديموقراطية كما ذكرت لك من قبل ولقد أعرب سعد زغلول عن خيبة الأمل في السياسة الأوروبية في رسالة بعث بها إلي محمود باشا سليمان رئيس حزب الأمة ووكيل الوفد يقول فيها : منذ وصولنا باريس وجدنا جميع الأبواب

[١٤٧] نقلاً باختصار عن كتاب في المرآة تأليف الشيخ عبد العزيز البشري رحمه الله ورحم كل من أدرجهم في مرآته ورحم أحمد مظلوم باشا وغفر لهم أجمعين

موصدة في وجوهنا وكل الجهود والمساعي لم تؤد إلي نتيجة ، إن مهمة الوفد قد انتهت ولم يبق أمل في الحصول علي الاستقلال التام ، وإن كل قول عدا ذلك يعد مغالطة وأن عمل الوفد الآن ما هو إلا تنظيم للهزيمة

- **فماذا حدث بعد ذلك ؟**
- **عاد الوفد إلي مصر وقام الشعب باستقبال سعد باشا زغلول استقبال وصفه الأستاذ العقاد وصفاً بليغاً**
- **فكيف وصف العقاد استقبال الشعب لسعد زغلول عند عودته من أوروبا ؟**
- **كيف وصف العقاد استقبال الشعب لسعد زغلول عند عودته من أوروبا بعد فشل الوفد في مفاوضات الاستقلال**

استقبال سعد زغلول عند عودته بعد فشل الوفد في مفاوضات الاستقلال

- **يقول العقاد : – – – ملك سعد ناصية الموقف من ساعة وصوله إلي شاطئ الإسكندرية ، وثبت في عالم العيان لمن كان في شك من الأمر إن هذا الرجل أقوي قوة في سياسة مصر القومية وأن كل اتفاق بين مصر وانجلترا يتم علي الرغم من هذا الرجل أو مع إغفال شأنه وتهوين خطره مستحيل ، لقد كان اليوم الرابع من إبريل –يوم وصوله إلي الإسكندرية– يوم الجيل بأسره في العالم بأسره ولك أن تقول وأنت آمن من الغلو أن استقبال سعد في ذلك اليوم وفي اليوم الذي بعده كان أفخم استقبال لرجل من الرجال في أوائل القرن العشرين ، فقد انتظمت مصر موكباً واحداً للحفاوة به من شاطئ البحر بل من مدخل الميناء إلي عاصمة الديار المصرية وارتفعت الزينات وأقواس النصر من سلم الباخرة إلي حجرته في فندق كلاردج الذي نزل فيه وكان الناظر لا يري في كل مكان إلا صورة سعد ولا يسمع إلا الهتاف باسمه وأناشيد المترنمين بذكره ، وانقضي اسبوع قبل وصوله والوفود تتزاحم علي الاسكندرية من أقصي القطر إلي أقصاه حتي تعذر المبيت في الفنادق ولجأ الناس إلي البيوت يسألون أصحابها أن يؤوهم إلي مكان يسكنون إليه ريثما يحين اليوم الموعود ، ولم تبق شرفة في الطريق إلا غالي المستأجرون بثمن الوقفة فيها بضع ساعات حتي نيفت أجرة الشرفة علي أجرة البيت ، وضاقت الطرقات عن مسير المركبات وأوشكت أن تضيق عن مسير الأقدام من مجاز إلي مجاز ، ولما استقل القطار من الإسكندرية إلي القاهرة تلاحقت الجموع علي طول الطريق تأبي إلا أن تستوقفه مرات في غير مواضع الوقوف ومنهم من كانوا يترامون علي القضبان في بعض القري الصغيرة ليغتنموا لحظة من الوقت يقف فيها القطار ويطل فيها الزعيم علي المستقبلين ، وخرج كل مستطيع الخروج في مدينة القاهرة إلي الطريق ما بين باب الحديد إلي بيت الأمة يترقبون من الصباح ساعة قدوم الرئيس في نحو الخامسة من المساء فلما لاح لهم في سيارته نسوا أنفسهم أفراداً وذكروا أنفسهم قوماً واحداً لا اختلاف فيه بين صوت وصوت ولا بين دعاء ودعاء ، وبلغ من نسيان النفس وغلبة الوجدان علي الإرادة أن أناساً كانوا يتسلقون الأشجار والأسوار أرسلوا أيديهم ليصفقوا وهم لا يدرون أنهم معتصمون بتلك**

الأيدي من خطر الوقوع ، ولا خطر في الحقيقة من الوقوع حيث لا أرض في طول الطريق إلا وقد غشاها ألوف الواقفين ، وتمشت السيارة الهوينا وهي تكاد تزحف من بطء المشية بين الصفوف ، وسعد واقف عليها بقامته المديدة وطلعته المهيبة ومحضره المأنوس يحيي المحيين بكلتا يديه وتسترسل الدموع من عينيه ، وتلك طبيعة فيه إذا جاشت نفسه بالشعور واهتزت أريحيته بهزة الجمهور ، ولا نطيل في سرد أسماء المستقبلين ووصف معالم الاستقبال فإنما أردنا الأثر الطبيعي المفاجئ الذي كان لاستقبال سعد في ضمير الأمة مما له دلالة قومية ، ولم نرد المراسم والأشكال التي قد تتكرر في كل يوم بغير دلالة ، ويكفي أن نقول ان مصر لم تتمثل تمثلاً في موكب الاحتفال بعودة زعيمها الراجع إليها ولكنها كانت كلها موكب احتفال واحد لم يتخلف عنه مصري واحد قادر علي حضوره أو المشاركه فيه ، وانقضي يوم الوصول إلي الإسكندرية ويوم الوصول إلي القاهرة ولم يحدث في المدينتين الحافلتين بألوف الألوف من أهلهما والوافدين إليهما ولا في طول الطريق بينهما حادث واحد مما يسجله الموكلون بالأمن في سائر الأيام ، كأنما غاب الأفراد في غمار (أمة واحدة) فلم يبق بينهم ما يكون بين الأفراد من نزاع واعتداء - - - - - فلم يخرج الشعب لفرجة - - ولكنها قوة أحسها الشعب فانبعث بها إلي حيث تتلاقي أفواجه وتتزخر أمواجه ، وذلك الرجل هو عنوان تلك القوة أو لسان تلك القوة أو مناط الأمل المرجو من تلك القوة ، وإذا وجدت الشعوب نفوسها واهتدت إلي سريرتها فإنما تجدها وتهتدي إليه في لحظة من لحظات النشوة الوطنية كتلك اللحظة التي استثارها فيها حب الزعيم والشوق إلي مرآه[١٤٨]

- إن هذا الاستقبال يؤكد بما لا يدع مجالا للشك نجاح الإنجليز في صناعة زعيم شعبي علي أعلي مستوي ليكون بديلاً رائعاً للحزب الوطني المتشدد كما يقولون ، فهو رجل سياسة وليس رجل حرب كعرابي وهو يفضل المفاوضات وليس المواجهات كمصطفي كامل ولا مانع من أن يتولي الوزارة ويسيطر علي مصر نيابة عنهم بل ويحملونه مسئولية تأمين قواتهم ومنشآتهم ورعاياهم دون أن يسبب لهم أي مشاكل من أي نوع فهو زعيم قومي وليس إسلامي وبيته أصبح هو بيت الأمة وزوجته أصبحت أم المصريين وليس معني هذا أنه لا يريد الاستقلال أو لا يعمل لصالح مصر بل إنه يبذل أقصي مجهود لتحقيق مصالح الشعب المصري وللحصول علي الاستقلال ولكن بأسلوب غير مزعج
- أعتقد أنك قد وقفت علي المخطط البريطاني لترويض الشعب المصري وإفقاده لهويته الإسلامية ودعم قوميته المصرية كما فعلوا مع القومية العربية والقومية التركية
- يبدو أن ثورة ١٩١٩ كانت بالفعل نقطة تحول في تاريخ الشعب المصري حيث جعلته يهتم بقضاياه الوطنية أكثر من أي شئ آخر في العالم الإسلامي وفصلته عنه بشكل كبير ، فأصبح له زعماءه ورموزه وقوميته الخاصة ، فماذا حدث بعد ذلك ؟

[١٤٨] نقلاً عن كتاب سعد زغلول سيرة وتحية لعباس محمود العقاد

- استمرت مقاومة الاحتلال البريطاني رغم كل جهود رجال السياسة في مصر لاستبدال العنف بالمفاوضات ، مما أزعج الإنجليز
- إن الذين قاوموا الاحتلال البريطاني بعيداً عن المناورات والمفاوضات السياسية كانوا فيما أعتقد يفهمون طبيعة التعامل مع الإنجليز بالأسلوب الذي يليق بهم فهو الأسلوب الوحيد الذي يمكنه تغيير الموقف في مصر ، فالمستعمرون لا يفهمون إلا لغة القوة فهل لديك معلومات عن الانقسام التاريخي الشهير الذي حدث بين سعد زغلول وعدلي يكن ؟
- كان قد حدث انقسام بين صفوف الشعب واختلاف علي من سيقوم بتمثيل الشعب في المفاوضات بعد ذلك هل سعد زغلول الزعيم الشعبي أم عدلي يكن الذي تولي رئاسة الوزارة ؟ وكل هذه الأحداث بالطبع تمت في عهد تولي السلطان فؤاد الأول عرش مصر بعد وفاة السلطان حسين كامل
- فهل لديك معلومات عن هذا الانقسام ؟

انقسام الشعب بين عدلي وسعد سنة ١٩٢١

- كان عدلي باشا يكن يتولي رئاسة الوزراء وقام بتشكيل وفد رسمي لاستئناف المفاوضات مع الاحتلال الإنجليزي وعرض علي سعد باشا زغلول ومن معه المشاركة فيه ليصبح الوفد الشعبي جزء من الوفد الرسمي مما أغضب سعد زغلول ومؤيديه والذي كان يرأس الوفد الشعبي الذي سافر إلي أوروبا من قبل بعد ثورة ١٩١٩ وسدت جميع الأبواب في وجهه ، فانقسمت البلاد بين مؤيد للوفد الرسمي ومؤيد للوفد الشعبي ، ثم تطورت إلي أحداث مؤسفة
- فماذا كتب الرافعي عن هذا الانقسام ؟
- إليك بعض مما كتبه عبد الرحمن الرافعي عن هذا الموضوع : - - - وقد زادت المظاهرات عنفاً بعد تأليف الوفد الرسمي سواء في القاهرة أو الاسكندرية وفي كثير من المدن الأخري واتخذت طابع العداء لكل من خالف سعداً في رأيه ، والنداء بسقوطهم والاعتداء علي منازلهم بالطوب والحجارة ، وكان هذا من الظواهر الأليمة للانقسام ، ومن الأسلحة الممقوتة في الخصومة السياسية لأن النضال السياسي بين المختلفين في الرأي من أبناء الأمة يجب أن يكون مقصوراً علي نضال الآراء ومقارعة الحجة بالحجة وبذلك ينضج الشعب وترقي أفكاره ومداركه ، أما تحريض الجماهير علي الخصوم السياسيين واتخاذ الاعتداء وسيلة لإكراههم علي تغيير آرائهم فهو وسيلة تفسد الحياة السياسية وتهدم حرية الرأي والعقيدة ، ولقد نشر الأمير عمر طوسون نداءً بتاريخ ٢١مايو سنة ١٩٢١ يستنكر فيه هذا الاعتداء قال فيه : (يا أبناء بلدي الأعزاء ، بلغني مع أشد الأسف ما حدث من بعض أشخاص غير مسئولين في أثناء المظاهرات السلمية مثل مهاجمة بيوت بعض المخالفين لكم في الرأي والتقاذف بالأحجار في الشوارع الأمر الذي ما كنا ننتظر صدوره من أي مصري ونحن قوم نريد الاستقلال ونطلب الحرية وأساس هذا المبدأ احترام كل فريق رأي الآخر وعدم الحظر علي أحد وإن شذ في رأيه ، وإذا لم نحترم

هذا المبدأ فلماذا نشكو من ضغط الإنجليز علي حريتنا ومصادرتهم لنا في آرائنا وكيف بعد هذا تريد طائفة منا إرغام مخالفيها علي اتباع رأيها بالقوة ؟ ، فأرجوكم أشد الرجاء الإقلاع عن هذه الخطة التي تضر قضيتنا المقدسة أكبر ضرر وتشين سمعتنا وتحط من كرامتنا ، وأناشد كل مخلص لوطنه محب لبلاده أن يجتهد في منع ما يثير شبه الأجانب فينا ويبعد عطفهم ويخلق التهم بالباطلة لنا ، إنني لأقول هذا لا انحيازاً إلي جانب الوزارة لأني غير موافق علي خطتها كما أظهرت في اقتراحي ولكن الواجب هو الذي دفعني أن أبين لكم الخطر الذي ينجم عن سلوك طائفة منا غير المسلك القويم ، هدانا الله جميعاً إلي الصواب)

- إن أكثر ما لفت انتباهي في بيان الأمير عمر طوسون هو جملة (ما يثير شبه الأجانب فينا يبعد عطفهم) فإلي هذا الحد كان النظر إلي رأي ألد الأعداء والخوف من اتهاماتهم لنا واستدرار عطفهم وهم من يريدون لنا الشر دائماً ، والأعجب من كل هذا أنهم السبب في كل ما أحدثوه في مصر من أفكار هدامة أبعدت الشعب عن الترابط والاعتصام بحبل الله ، وجعلتهم يفهمون الديموقراطية فهم خاطئ
- هذا صحيح فالغرب لا يريد لنا النجاح والنهوض لا بثوابتنا الإسلامية ولا حتي بتطبيق النموذج الغربي كما يدعون ، فهم يريدون لنا الضياع في اليم بين النموذجين دون الوصول إلي بر الأمان بحيث لا نصل إلي البر الخاص بهم ولا نتمكن من العودة إلي البر الخاص بنا
- فماذا حدث لبيان الأمير ؟
- يضيف الرافعي : ولكن هذا النداء الحكيم ذهب عبثاً في تيار الفتنة التي فرقت بين الناس وألقت بينهم العداوة والبغضاء وازدادت المظاهرات عنفاً في الاسكندرية ، واشتبك المتظاهرون يوم الأحد ٢٢ مايو سنة ١٩٢١ مع بعض الأجانب من الطبقات المتأخرة في حي الهماميل وتبادل الفريقان إطلاق الرصاص واشتعلت النار في عدة منازل ونهبت بعض المحال التجارية الأجنبية ، وبالجملة تحولت هذه المظاهرات إلي اضطرابات ألقت الفزع في النفوس ، وقد تدخل البوليس ثم الجيش المصري لقمعها ، ولم يعد النظام إلا في نحو الساعة الثالثة صباحاً ، واستمرت الاضطرابات الدامية يوم الاثنين ٢٣ مايو وتبودلت العيارات النارية من جديد بين الوطنيين والأجانب ، فتدخل جيش الاحتلال وتولي قومندان القوة البريطانية المرابطة في الاسكندرية قيادة المدينة ، وأصدر أمراً عسكرياً بمنع المرور في الشوارع بين الساعة التاسعة والنصف مساءاً إلي الساعة الرابعة صباحاً ما لم يكن بيد الشخص إذن بالمرور ، وبغلق جميع المحال العمومية في الساعة التاسعة مساء ، وقد عاد الهدوء إلي المدينة منذ مساء ذلك اليوم
- من الملفت أن يدفع الإنجليز أولاً بقوات الأمن المصرية فإذا فشلت في السيطرة علي الأمور يقومون بالمهمة بأنفسهم ، وعلي أي حال إنها أحداث مؤسفة بالفعل ، والسياسيون المصريون يتحملون مع الإنجليز مسئولية ما حدث ، لقد كان يجب علي أي سياسي وطني كما يدعي أن يوضح للشعب أن

هناك انقسامات عديدة تحدث في جميع بلاد العالم وتلجأ الشعوب المتحضرة كما يدعون إلي الصناديق لحسم هذه الانقسامات ، أما في الشعوب المتخلفة التي فقدت هويتها وثقتها بنفسها فتتحول الانقسامات إلي اضطرابات وقد تصل إلي حروب أهلية ، فكم بلغ عدد الضحايا في هذه الأحداث ؟

- يقول الرافعي : بلغ عدد ضحايا تلك الاضطرابات الممقوتة ٤٣ قتيلاً و ١٢٩ جريحاً من المصريين و ١٥ قتيلاً و ٧١ جريحاً من الأوروبيين فكان لهذه المأساة وقع أليم في النفوس ورأي سعد أن المظاهرات قد تعدت إلي الأجانب وتحولت إلي اضطرابات هي أبعد ما تكون عن التظاهر وأدرك خطورة العواقب السيئة التي نجمت عنها فنشر نداء ٢٤مايو بالحث علي الهدوء والسكينة وحسن معاملة الأجانب[١٤٩] ، وجدير بالذكر ان مفاوضات الوفد الرسمي برئاسة عدلي باشا يكن قد باءت بالفشل أيضاً كمفاوضات الوفد الشعبي برئاسة سعد زغلول ثم استقالت الوزارة ، وعندما أدرك الإنجليز عدم جدوي المفاوضات قاموا بإعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ من جانب واحد وفرضوا فيه ما رفضه المصريون في المفاوضات وهو وجود قاعدة عسكرية بريطانية في مصر وإعلان الاستقلال وقيام حكومة دستورية في البلاد مع وجود مندوب لبريطانيا يتمتع بنفوذ خاص

<u>إعلان بريطانيا تصريح ٢٨فبراير ١٩٢٢ من جانب واحد</u>

- بالطبع لن يقبل أي مفاوض مصري بما جاء بهذا التصريح فاضطر الإنجليز لإعلانه من جانب واحد ، وهل صدق المصريون أن هذا التصريح قد أعطي لمصر الاستقلال ؟
- علي أي حال لقد تم وضع التصريح موضع التنفيذ وعمل علي تفعيله رئيس الوزراء عبد الخالق ثروت باشا الذي كان يرفض قبول الوزارة إلا بعد تم صدور هذا التصريح وقام السلطان فؤاد بإصدار أوامره للحكومة بإعداد الدستور وقانون للانتخابات لبدء حياة سياسية جديدة ، ومنذ ذلك الحين أصبح فؤاد ملكاً علي البلاد بدل من لقب سلطان ، وأصبح لمصر وزير للخارجية بعد أن كانت شأن من شئون بريطانيا ، وأهم ما يميز هذا التصريح أن الإنجليز قد حملوا الحكومة المصرية مسئولية تأمين الجيش البريطاني والرعايا الأجانب بدلاً منهم ، أي جعل المصريين يواجهون بعضهم بعضاً
- فما أبرز أحداث المقاومة التي تمت ضد الاحتلال البريطاني ؟
- حدثت هذه الاعتداءات في عهد اللورد أللنبي ووزارة عبد الخالق ثروت باشا وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي ما ملخصه :وتعددت حوادث اغتيال الموظفين البريطانيين ولم يعرف الفاعلون في معظمها وتحرج لها موقف الوزارة ، ففي مارس ١٩٢٢ أطلق مجهولان الرصاص علي المستر مكنتوش بك مدير قسم القطارات بالسكك الحديدية بالقرب من منزله بالزيتون فأصيب بإصابات بليغة وفي مايو أطلق مجهول الرصاص علي البكباشي كيف مساعد حكمدار فرقة ب بشارع الفلكي فمات من جراء إصابته ، وبلغت هذه الحوادث سبعاً ولم تهتد الحكومة إلي الجناة فيها ، وتم احتجاج

---

[١٤٩] نقلاً عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

الحكومة البريطانية علي حوادث الاغتيال فقد أدي تكرار هذه الحوادث وعدم ظهور الفاعلين فيها إلي انزعاج الحكومة البريطانية فاحتجت رسمياً لدي الحكومة المصرية ، وأبلغ هذا الاحتجاج كتابة إلي ثروت باشا رئيس الوزراء في مايو سنة ١٩٢٢ علي يد اللورد اللنبي المندوب السامي البريطاني وقد جاء فيه :" إن عدم الاهتداء إلي مرتكبي تلك الجرائم وبقاءهم بعيداً عن طائلة القانون يدل اوضح الدلالة علي عدم كفاية التدابير التي اتخذت لمنع وقوع تلك الاعتداءات ، وإن الحكومة البريطانية تجد نفسها تلقاء هذه الحالة مضطرة لأن تعتبر الحكومة المصرية مسئولة عن تعويض من يقع عليه اعتداء من الأجانب أو تعويض ورثته إن أدركته الوفاة ، كما أنها تحتفظ بحق تقدير كفاية التعويض الذي تمنحه الحكومة المصرية أو عدم كفايته" ، ورد ثروت باشا علي هذا الاحتجاج بأن الحكومة المصرية أول من يأسف لوقوع تلك الاعتداءات التي تنكرها وينكرها الشعب المصري ، وأنها اتخذت التدابير الأدبية والمادية لمنع وقوعها وهي لا تتأخر عن التشديد علي جهات البوليس بمضاعفة اليقظة والانتباه مبالغة في العمل علي زيادة تأثير التدابير التي سبق اتخاذها ، وأما عن التعويض فمع أن الحكومة لا تري بأنها مسئولة بأكثر من توفير شرطة تقوم بأداء واجباتها قياماً حسناً ، إلا أن ما تعودته من حسن الضيافة نحو الأجانب يجعلها لا تتردد في أن تمنح براً منها وكرماً من وقع به أمثال هذه الاعتداءات السياسية ما تري أن الظروف تقضي به من التعويضات وأن الحكومة أظهرت استعدادها للجري علي هذه الخطة في أحوال سابقة وأنها ستظهر مثل هذا الاستعداد كلما رأت الظروف تدعو إلي ذلك ، ويضيف الرافعي فيقول :وفي الحق أن الرد صيغ في قالب مملوء حكمة وكرامة واتزاناً ، ولم تقف حوادث الاعتداء إثر هذا الاحتجاج والرد عليه ، ففي ٣ يوليه اكتشف مؤامرة لاغتيال المستر برت المفتش بالسكة الحديدية ، وفي ١٥ يوليه أطلق بعض المتآمرين الرصاص علي الكولونيل بيجوت الموظف بالمصلحة المالية التابعة للجيش البريطاني فاصيب بإصابات بليغة ، فأرسل اللورد أللنبي إلي ثروت باشا كتاباً في ٢٠ يوليه يبلغه فيه أن الحكومة البريطانية تنظر بقلق متزايد إلي الاعتداءات المتكررة التي لم يتوصل إلي معاقبة مرتكبيها وآخر مثل منها محاولة أغتيال الكولونيل بيجوت وان الحكومة المصرية يتعلق بها أن تتخذ إجراءات شديدة لاكتشاف الجناة ومعاقبتهم ، وأن تضع حداً قاطعاً لحملة الجرائم السياسية ، علي أنه كلف بأن يخبره بأنه إن لم يتم ذلك فإن الحكومة البريطانية ستعتبر أن المسألة ذات خطورة كبري ، فرد عليه ثروت باشا بأن المندوب السامي لا يجهل أن الحكومة المصرية لم تقصر في اتخاذ تدابير خاصة في هذا الشأن وأخصها زيادة عدد القوات الأوروبية في البوليس لكي يتيسر له زيادة عدد دورياته وإذا كانت هذه التدابير لم تؤد إلي منع وقوع تلك الجرائم وتعرف مرتكبيها فإن الحكومة المصرية أول من يأسف علي ذلك علي أنها ستثابر علي الخطة التي أبلغها في رده السابق وأنها عملاً بهذه الخطة لن تألو جهداً في أن تزيد علي قدر المستطاع أشد التدابير المتخذة لمنع وقوع هذه الجرائم والبحث عن فاعليها وأنها تنوي أن تنشئ في

وزارة الداخلية فرعاً خاصاً تحصر في يده التحقيقات الخاصة بالاعتداءات السياسية والإشراف علي الأبحاث المتعلقة بها[١٥٠] وجدير بالذكر أن عبد الخالق ثروت باشا(1928 - 1873) ، كان رئيس وزراء مصر في عهد الملك فؤاد الأول .وقد تولى رئاسة الوزراء لفترتين من 1 مارس 1922 إلى 30 نوفمبر 1922 ، ومن 26 أبريل 1927 إلى 16 مارس.1928

علاقة الملك فؤاد بعبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء

- إن أكثر يلفت النظر فيما ذكرت هو تولي الإنجليز وظائف دقيقة في مصر وأن الوزارة تشعر بأنها في وضع تحتاج فيه للدفاع عن نفسها وتعلن أسفها علي الضحايا الإنجليز بصدق ، فكيف كانت علاقة الملك فؤاد بعبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء ؟
- يقول الرافعي : الواقع أن المغفور له الملك فؤاد لم يكن يميل إلي بقاء ثروت باشا في الحكم بل لم يكن ميالاً في الأصل إلي إسناد الوزارة إليه ولكن ضغط الحوادث كان فوق إرادته فاحتمل ثروت باشا علي كره منه ، مضمراً انتهاز الفرص لإسقاطه ، هذا إلي أنه لم يكن يميل إيضاً إلي صدور الدستور ، أما عدم ميله إلي ثروت فلأنه كان ذا شخصية كبيرة لا تخضع في كل الأمور لما يطلب الملك ، وليس هذا هو الطراز الذي يرتضيه ، بل كان يؤثر الرؤساء والوزراء الذين لا شخصية ولا إراده لهم ، – – ولذلك كان يضمر إسقاط ثروت من اليوم الذي ألف فيه وزارته ، ولم يشفع له أنه كان له الفضل بحسن مسعاه في التعظيم من شأنه ، إذ صار صاحب الجلالة الملك بعد أن كان سلطاناً تحت الحماية البريطانية ، لم يكن لهذا الفضل أثر في نفسه بل كان له فيها أثر عكسي ، لأن من خصائص الملوك الحاكمين بأمرهم أن يحقدوا علي من له فضل عليهم ، ومن ناحية أخري فقد كان ثروت باشا جاداً في وضع الدستور واستصدار المرسوم الملكي به وكان يستحث لجنة الدستور علي إنجازه حتي يصدر وهو لا يزال في الوزارة – – ولكن الملك فؤاد لم يكن يميل إلي إصداره ، لأنه رأه كما يقول يغل سلطته ويجعل الحكم مرجعه إلي الشعب وهذا ما لا يبغيه الملك – –مع أنه قبل إعلان الاستقلال (بتصريح ٢٨فبراير ١٩٢٢) لم يكن يملك سلطة ما ، بل كان سلطاناً تحت الحماية لا يصدر عنه إلا ما يأمره به عمال الحماية ، ولكن هكذا شأن الملوك الحاكمين بأمرهم ، يتناسون الحقائق إذا كان في ذكرها ما يتعارض مع أهوائهم ، ولا يفكرون إلا في الاستزادة من سلطتهم علي حساب سلطة الشعب ، كان لابد إذن للملك من تنحية ثروت عن الحكم ، لكي تغير مجري الأمور من بعده فيتعطل صدور الدستور وقد يقبر قبل أن يولد[١٥١] وجدير بالذكر أن عبد الخالق ثروت باشا هو أول من تولي رئاسة الوزارة بعد تصريح ٢٨ فبراير الذي صدر من بريطانيا من جانب واحد لإلغاء الحماية علي مصر وإقامة حكومة

---

[١٥٠] نقلاً عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

[١٥١] نقلاً باختصار عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩)–الجزء الأول– عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

دستورية في البلاد مع وجود قاعدة عسكرية بريطانية بها ، وقد حاول ثروت باشا كما ذكرنا تفعيل هذا التصريح فيما يخص صدور الدستور ولكن من المعروف أن الدستور صدر سنة ١٩٢٣

دستور ١٩٢٣ وقيام أول حكومة منتخبة دستورية في البلاد برئاسة سعد زغلول

- وهل تم عمل دستور للبلاد ؟
- بالطبع إنه دستور ١٩٢٣ الذي يُعتبر منحة من الملك للشعب بناء علي تصريح فبراير الذي كان منحة من الإنجليز أيضاً وتم عمل انتخابات للنواب لتشكيل الحكومة وقد فاز الوفد بالطبع بالأغلبية
- وهل وافق الزعيم الشعبي سعد زغلول علي الاشتراك في عملية انتخابية في ظل الاحتلال وطبقاً لشروط تصريحهم ودستور الملك فؤاد ؟ لأن هناك فرق كبير بين الدستور الذي انتزعه الشعب بالثورة العرابية في عهد الخديوي توفيق وبين دستور جاء بتعليمات من الملك تحت إشراف الاحتلال
- نعم لقد اشترك سعد وحزبه في الانتخابات وأصبح أول رئيس للوزراء بعد دستور ١٩٢٣ وقام الملك فؤاد بإرسال خطاب يكلف فيه سعد زغلول باشا بتأليف الوزارة بناءاً علي حصول الوفد علي الأغلبية
- فهل لديك نص هذا الخطاب ؟
- نعم لقد أورده الرافعي كالآتي : -- عزيزي سعد باشا ،،،، لما كانت أمالنا ورغائبنا متجهة دائماً نحو سعادة شعبنا العزيز ورفاهته وبما أن بلادنا تستقبل الآن عهداً جديداً من أسمي أمانينا أن تبلغ فيه ما نرجو لها من رفعة الشأن وسمو المكانة ولما أنتم عليه من الصدق والولاء وما تحققناه فيكم من عظيم الخبرة والحكمة وسداد الرأي في تصريف الأمور وبما لنا فيكم من الثقة التامة قد اقتضت إرادتنا توجيه مسند رياسة مجلس وزرائنا مع رتبة الرياسة الجليلة لعهدتكم ، وأصدرنا أمرنا هذا لدولتكم للأخذ في تأليف هيئة الوزارة وعرض مشروع هذا التأليف علينا لصدور مرسومنا العالي به ، ونسأل الله جلت قدرته أن يجعل التوفيق رائدنا فيما يعود علي بلادنا بالخير والسعادة إنه سميع مجيب ،، صدر بسراي عابدين في ٢٢ جمادي الثانية سنة ١٣٤٢ (٢٨يناير سنة ١٩٢٤) ،
- إن هذا الخطاب لم ترد فيه أي إشارة لفوز سعد بالأغلبية
- نعم وقد قال الرافعي عن ذلك : - - ومما يلاحظ في كتاب الملك أنه لم يجعل من أسباب تكليفه سعداً بتأليف الوزارة أنه نال ثقة الأمة في الانتخابات ، بل لم يشر إليها إطلاقاً واقتصر الكتاب علي العبارات التقليدية التي تكتب لمن يختاره ولي الأمر لتأليف الوزارة ولعل الملك أراد بهذا الإغفال المتعمد أن لا يعترف بالأساس الدستوري لقيام الوزارات وسقوطها ولا يعترف بسلطة الأمة وبحقها في اختيار حكامها ، وقد أكمل سعد هذا النص في جوابه إلي الملك ، إذ جعل أول سبب لولايته الحكم احترامه إرادة الأمة وارتكاز الحكومة علي ثقة وكلائها
- فكيف كان رد سعد زغلول علي خطاب الملك ؟

- إليك بعض مما جاء في جواب سعد زغلول إلي الملك فؤاد رداً علي جواب تكليفه بتأليف الوزارة : ،،، مولاي صاحب الجلالة ،،، إن الرعاية السامية التي قابلت بها جلالتكم ثقة الأمة ونوابها بشخصي الضعيف توجب علي والبلاد داخلة في نظام نيابي يقضي باحترام إرادتها وارتكاز حكومتها علي ثقة وكلائها ألا أتنحي عن مسئولية الحكم التي طالما تهيبتها في ظروف أخري وأن أشكل الوزارة التي شاءت جلالتكم تكليفي بتشكيلها من غير أن يعتبر قبولي لتحمل أعبائها اعترافاً بأية حالة أو حق استنكره الوفد المصري الذي لا أزال متشرفاً برياسته ، إن الانتخابات لأعضاء مجلس النواب أظهرت بكل جلاء إجماع الأمة علي تمسكها بمبادئ الوفد التي ترمي إلي ضرورة تمتع البلاد بحقها الطبيعي في الاستقلال الحقيقي لمصر والسودان مع احترام المصالح الأجنبية التي لا تتعارض مع هذا الاستقلال كما أظهرت شدة ميلها للعفو عن المحكوم عليهم سياسياً ونفورها من كثير من التعهدات والقوانين التي صدرت بعد إيقاف الجمعية التشريعية ونقصت من حقوق البلاد وحدت من حرية أفرادها وشكواها من سوء التصرفات المالية والإدارية ومن عدم الاهتمام بتعميم التعليم وحفظ الأمن وتحسين الأحوال الصحية والاقتصادية وغير ذلك من وسائل التقدم والعمران ، فكان حقاً علي الوزارة التي هي وليدة تلك الانتخابات وعهداً مسئولاً منها أن توجه عنايتها إلي هذه المسائل الأهم فالمهم منها – – – – –ولقد لبثت الأمة زماناً طويلاً وهي تنظر إلي الحكومة نظر الطير للصائد لا الجيش للقائد ، وتري فيها خصماً قديراً يدبر الكيد لها لا وكيلاً أميناً أميناً يسعي لخيرها ، وتولد عن هذا الشعور سوء تفاهم أثر تأثيراً سيئاً في إدارة البلاد وعاق كثيراً من تقدمها ، فكان علي الوزارة الجديدة أن تعمل علي استبدال سوء هذا الظن بحسن الثقة في الحكومة ، وعلي إقناع الكافة بأنها ليست إلا قسماً من الأمة تخصص لقيادتها والدفاع عنها وتدبير شئونها بحسب ما يقتضيه صالحها العام ، – – –هذا هو بروجرام وزارتي وضعته طبقاً لما أراه وتريده الأمة – – –فأرجو إذا صادف استحسان جلالتكم أن يصدر المرسوم السامي بتشكيل الوزراة علي الوجه الآتي مع تقليدي وزارة الداخلية : محمد سعيد باشا لوزارة المعارف العمومية ، محمد توفيق نسيم باشا لوزارة المالية ، أحمد مظلوم باشا لوزارة الأوقاف ،،،، – – – – –وأدعو الله أن يطيل في أيامكم ويمد في ظلالكم حتي تنال البلاد في عهدكم كل ما تتمناه من التقدم والارتقاء وإني علي الدوام شاكر نعمتكم وخادم سدتكم ، ، سعد زغلول[١٥٢]
- إن أكثر ما يلفت النظر في كتاب سعد باشا هو مقولته الشهيرة (ولقد لبثت الأمة زماناً طويلاً وهي تنظر إلي الحكومة نظر الطير للصائد لا الجيش للقائد) ، ولعله بالفعل قد صحح للملك مفهومه عن تكليف زعيم الأغلبية بتشكيل الوزارة لأنه اختيار الشعب وليس اختيار الملك
- علي أي حال فإن بقبول سعد الاشتراك في الانتخابات ثم قبوله الوزارة قد أصبح مسئول عن تأمين البلاد في ظل الاحتلال البريطاني وعندما فشل في ذلك تمت الإطاحة به

[١٥٢] نقلاً عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

- وهل تمت الإطاحة به بانتخابات أخري ؟
- لا بل تم استغلال حادث مقتل السير لي ستاك
- كيف ؟

حادث مقتل السير لي ستاك وتأثيره علي الحياة السياسية في مصر

- لقد حدث حادث أثر علي الحياة السياسية في مصر وهذا الحادث هو مقتل السير لي ستاك باشا Lee Stack (1868-1924) سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام
- فماذا كتب الرافعي عن الحادث ؟
- يقول الرافعي : - - - - ففي نحو الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ بينما كان السردار عائداً في سيارته من مكتبه بوزارة الحربية إلي داره بالزمالك ، أطلق عليه الرصاص خمسة أشخاص كانوا متربصين في سيارة - - فأصيب السردار إصابات خطرة - - وقد توفي متأثراً من جراحه يوم ٢٠ نوفمبر حوالي منتصف الليل ، ، شيعت جنازة السردار باحتفال مهيب في صباح السبت ٢٢ نوفمبر ، وفي الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم ذهب اللورد أللنبي المندوب السامي البريطاني إلي رئاسة مجلس الوزراء في مظاهرة عسكرية يتقدمه مائتان وخمسون جندياً بريطانياً من حملة الرماح ، ويتبعه مثل هذا العدد ، وقابل سعداً في مكتبه مقابلة جافة ، وقدم إليه بلاغين (إنذارين) محررين باللغة الإنجليزية بعد أن تلا عليه نصهما ، - - -إلي حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا رئيس مجلس الوزراء ، يا صاحب الدولة ، أقدم لدولتكم من قبل حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية البلاغ التالي : أن الحاكم العام للسودان وسردار الجيش المصري الذي كان أيضاً ضابطاً ممتازاً في الجيش البريطاني قد قُتِل قتلاً فظيعاً في القاهرة - - - -فبناء علي ذلك تطلب حكومة صاحب الجلالة من الحكومة المصرية : ١ - أن تقدم اعتذاراً كافياً وافياً عن الجناية٢ - أن تتابع بأعظم نشاط وبدون مراعاة للأشخاص البحث عن الجناة وأن تنزل بالمجرمين أياً كانوا ومهما تكن سنهم أشد العقوبات ، ٣ - أن تمنع من الآن فصاعداً وتقمع بشدة كل مظاهرة شعبية سياسية ، ٤ - أن تدفع في الحال إلي حكومة حضرة صاحب الجلالة غرامة قدرها نصف مليون جنيه ، ٥ - أن تصدر خلال أربع وعشرين ساعة الأوامر بإرجاع جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصري البحتة من السودان - -٦ - - - -وإذا لم تلب هذه المطالب في الحال تتخذ حكومة حضرة صاحب الجلالة علي الفور التدابير المناسبة لصيانة مصالحها في مصر والسودان - - - - - - -وفي اليوم التالي ٢٣ نوفمبر ذهب واصف بطرس غالي باشا وزير الخارجية إلي دار المندوب السامي البريطاني وقدم رد الحكومة علي هذين الإنذارين ويتلخص في نفي المسئولية عن الحكومة المصرية وقبول المطالب الأربعة الأولي - - - - -لم يرض هذا الرد الحكومة البريطانية - - -أول تدبير اتخذه -المندوب السامي البريطاني - هو صدور التعليمات إلي الجنود البريطانية باحتلال جمارك

الإسكندرية – –وكان مفهوماً من المراسلات التي تبودلت بين اللورد أللنبي وسعد باشا أن الحكومة البريطانية لا تريد بقاء سعد في الوزارة بعد مقتل السردار وأنها اعتبرت وزارته مسئولة عن الحادث ، فعرض سعد علي الملك استقالة الوزارة– – وتم قبول الاستقالة يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤، ويضيف الرافعي : إن نظرة فاحصة إلي البلاغات البريطانية في حادث مقتل السردار يتبين منها مبلغ الظلم والعسف الذي بدا من الجانب البريطاني إثر هذا الحادث ، فإن الاعتداء علي السردار كان ولا شك حادثاً فردياً فمن الظلم أن تحمل الحكومة والبلاد مسئوليته ، ومن أفظع مظاهر الظلم أن ترتب عليه الحكومة البريطانية إقصاء الجيش المصري عن السودان وإطلاق يد الإدارة الإنجليزية فيه – – – البلاغات الجائرة والمطالب الظالمة التي توجهت بها إنجلترا إلي مصر في أعقاب حادثة السردار لم تكن إلا مظهراً لسياسة العدوان التي درجت عليها بإزاء مصر من قبل ومن بعد وهي منطق القوة الغشوم في الاعتداء علي الحق ، وما كانت حادثة السردار إلا فرصة سنحت فاتخذتها ذريعة لتحقيق أغراضها وبعبارة أخري كانت هذه المطالب برنامجاً سابقاً لإنجلترا حيال مصر ، تلك حقيقة دلت عليها الحوادث المترادفة وقد أيدها الكاتب الفرنسي موريس برنو في كتابه (قلق الشرق–أو علي طريق الهند) الذي ظهر في منتصف سنة ١٩٢٧ ، فقد ذكر صفحة ٢٥ ، أنه قابل اللورد أللنبي بعد مقتل السردار وسأله عن وجهة نظره ، فأجابه في صراحة : إن كل ما حدث كان متوقعاً وقد كان البلاغ النهائي في درج مكتبي قبل أن يقتل السردار بوقت طويل ، ولكني غيرت فقط صيغته التي جعلتها أكثر شدة ، اجتمع مجلس النواب والشيوخ في جو مضطرب مكفهر – – وقرر بالإجماع الاحتجاج علي تصرف الحكومة البريطانية – – –فلذلك يعلن مجلس النواب المصري علي ملأ العالم شديد احتجاجه علي هذه التصرفات الجائرة الباطلة ، ويشهد الأمم المتمدينة علي فداحة تلك المطامع الاستعمارية التي لا تتفق مع روح هذا العصر وحقوق الأمم المقدسة ، ويبلغ احتجاجه إلي برلمانات العالم ويرفع الأمر إلي مجلس عصبة الأمم طالباً إليه التدخل في الأمر لرفع الحيف عن أمة بريئة تتمسك بحقوقها المقدسة في الحياة والحرية ولا تبغي عن استقلالها بديلاً – – ،، ولم تبد أية دولة عطفاً ما علي مصر في محنتها بل إن معظمها أيد الحكومة البريطانية في مطالبها – – – فاستقلال الدول الشرقية جريمة في نظر أولئك الاستعماريين الذين لا يريدون للشرق إلا أن يكون حقلاً لاستعمارهم وبغيهم ، ويخشون من نزعاته الاستقلالية ويرونها خطراً علي مطامعهم فما أشد ما في هذه السياسة من ظلم وبغي وعدوان ، تألفت الوزارة الجديدة برئاسة أحمد زيور باشا في نفس اليوم الذي قبلت فيه استقالة سعد باشا وكأن الأمر مبيتاً من قبل – – ولقد سلمت وزارته ببقية المطالب البريطانية التي وردت في إنذار ٢٢ نوفمبر – – – فكان لهذا التسليم الشائن وقع أليم في أرجاء البلاد – –استصدرت وزارة زيور في ٢٥ نوفمبر

سنة ١٩٢٤ مرسوماً بتأجيل انعقاد البرلمان شهراً وكان هذا التأجيل نذيراً بما سيعقبه من حل مجلس النواب[١٥٣]

- إذن فقد استغل الاحتلال البريطاني هذا الحادث الفردي لتحقيق ما كان يهدف إليه
- ليس هذا فحسب بل إن هذا الحادث قد أدي إلي حل البرلمان وتغيير الوزارة وفقاً لهوي الملك وهي وزارة زيور باشا الذي أجل عقد البرلمان ثم حله ، وهذه الإجراءات تُعد انقلاب علي الحياة الدستورية ، وهو ما أدي إلي تكررها بعد ذلك فأصبحت الحياة الدستورية في مصر تحت رحمة الملك والاحتلال يعبثون بها كما يشاءون فتارة يقف الاحتلال مع الوفد ضد الملك وتارة أخري يقف مع الملك ضد الوفد وأصبحت مسألة حل البرلمانات المنتخبة لعبة في أيديهم
- إذن لم تتمكن مصر من تجربة حياة دستورية حقيقية في ظل الاحتلال البريطاني وملك من سلالة محمد علي وقيادة سياسيون انفصلوا عن قوميتهم الحقيقية وبحثوا عن هوية أخري

إلغاء الخلافة العثمانية في ٣ مارس ١٩٢٤م

- علي أي حال اسمح لي أن نترك وزارة زيور باشا ووزارته والملك فؤاد وعبثه بالدستور والبرلمانات والحكومات والمندوب السامي الذي يتلاعب بالجميع علي أن نعود إليهم بعد أن نقف معاً عند حادث جلل في تاريخ الأمة الإسلامية ألا وهو إلغاء الخلافة العثمانية وذلك بعد أن تمكن الاتجاه القومي العلماني في تركيا من السيطرة علي الأمور بمساعدة الغرب وتصعيد مصطفي كمال أتاتورك كزعيم قومي تركي كسعد زغلول في مصر وقد قام أتاتورك بتحويل تركيا إلي دولة علمانية وإلغاء الخلافة العثمانية وكان هذا من شروط بريطانيا للاعتراف بجمهورية تركيا برئاسة أتاتورك وقد وردت هذه الشروط في مؤتمر لوزان الشهير
- فما قصة هذا الموضوع الخطير ؟
- دعني أبحث عن معلومات عن هذا الموضوع في أحد الالكترونية علي شبكة المعلومات الدولية الانترنت لعلي أجد تلخيصاً بليغاً لما حدث ليغنيني عن اختيار كلمات مناسبة لهذه المأساة
- لا مانع ،، فلنبحث معاً عن أكثر المواقع مصداقية
- لقد وجدت الموضوع تحت عنوان إلغاء الخلافة.. وانفراط عقد المسلمين في ذكرى إلغاء الخلافة العثمانية: ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ[١٥٤]
- حسناً فلنقرأ مقتطفات من هذا الموقع
- يقول الموقع : - - - ولم يدخر الغرب في معركته ضد الخلافة سلاحًا إلا استخدمه، بدءًا من الإرساليات التبشيرية والغزو الفكري، وإشعال الثورات والفتن الطائفية والمذهبية، واصطناع الجواسيس

---

[١٥٣] نقلاً باختصار عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – #عبد_الرحمن_الرافعي – دار المعارف- الطبعة الرابعة ١٩٨٧

[١٥٤] نقلاً عن موقع islamonline.net

والأعوان وشراء الذمم بالمال، حتى تم تقويض الخلافة على يد مصطفى كمال. ويذكر المؤرخ الفرنسي "دين جروسيه" في كتابه "وجه آسيا" أن عملية تصفية الخلافة العثمانية استغرقت ٢٢٠ عامًا، بدأت بمعاهدة "كارلوفجة" سنة (١١١١ هـ = ١٦٩٩م)، تضافرت فيها جهود الدول الكبرى عبر السنين الطوال، إلا أن اختلاف أطماع هذه الدول وتضارب مصالحها في تركة الدولة العثمانية كان سببًا في إطالة عمرها. ،، دور "الاتحاد والترقي" :كانت الحرب العالمية الأولى سنة (١٣٣٣هـ = ١٩١٤م) انضمت حكومة الاتحاد والترقي إلى جانب ألمانيا، ودخلت تركيا حربًا لا دخل لها بها وأجهضت قوتها البشرية والاقتصادية والعسكرية، حيث تمزق الجيش التركي على جميع الحدود والجبهات نتيجة للقيادة الفاشلة والعميلة، وانتهت الحرب سنة (١٣٣٧هـ = ١٩١٨م) بهزيمة ألمانيا وتركيا، وتحطُّم دولة الخلافة وتمزق أوصالها، حيث استولى الإنجليز على قلاع الدرنديل، واحتلت الجيوش الفرنسية والإنجليزية مدينة إستانبول، واحتلت اليونان أزمير، ووقعت هدنة "مدروز" التي نصت على استسلام الدولة العثمانية دون قيد أو شرط، وبدأت القوات العثمانية تلقي سلاحها، واستعد الحلفاء لاحتلال الأستانة وغيرها من المدن التركية، وأدت روح التشفي التي صدرت عن الحلفاء والأقليات الدينية إلى نمو روح المقاومة لدى الأتراك. ، أما كبار رجال حزب الاتحاد والترقي الذين كانت في أيديهم مقدرات البلاد فقد فروا من البلاد، وكان السلطان العثماني الجديد "محمد وحيد الدين" يدرك أن وجود تركيا لازم لدول الغرب لإقامة التوازن بينها، كما أن بريطانيا وفرنسا لن تسمحا بالقضاء على تركيا قضاءً مبرمًا؛ لأن ذلك يفسح المجال أمام روسيا الشيوعية للاستيلاء على الأناضول، وبالتالي على مضيق البوسفور والدرنديل، بل كل ما تريدانه هو جعل الدولة العثمانية دولة صغيرة مثل الدول التي ستقوم على أنقاضها؛ لذا رأى السلطان أن ما أُخذ من الدولة العثمانية لا يسترد إلا بالقتال، وبالتالي فلا بد من القيام بثورة في البلاد؛ لذلك استعان بمصطفى كمال، وعهد إليه بأن يقوم بثورة في شرقي الأناضول حتى يتسنى لرجال السياسة أن يستخدموا هذه الثورة كورقة ضغط أثناء عقد الصلح مع الحلفاء حتى يحصلوا على أكثر ما يمكن من المكسب، وللتغطية على هذه الثورة خاصة من الإنجليز الذين كانوا يسيطرون على إستانبول، عين السلطان "وحيد" "مصطفى كمال" مفتشا لجيوش الأناضول بصلاحيات واسعة، وزوده بمبلغ كبير من المال، ووضع فيه ثقته، لكنه خان الأمانة وغدر بالسلطان وعمل لنفسه.

- من هو أتاتورك؟
- ولد مصطفى كمال سنة (١٢٩٩هـ = ١٨٨٠م) بمدينة "سالونيك" التي كانت خاضعة للدولة العثمانية، أما أبوه فهو "علي رضا أفندي" الذي كان يعمل حارسًا في الجمرك، وقد كثرت الشكوك حول نسب مصطفى، وقيل إنه ابن غير شرعي لأب صربي، أما لقب "كمال" الذي لحق باسمه فقد أطلقه عليه أستاذه للرياضيات في المدرسة الثانية، ويذكر الكاتب الإنجليزي "هـ.س. أرمسترونج" في كتابه:

"الذئب الأغبر" أن أجداد مصطفى كمال من اليهود الذين نزحوا من إسبانيا إلى سالونيك وكان يطلق عليهم يهود الدونمة، الذين ادعوا الدخول في الإسلام. وبعد تخرجه في الكلية العسكرية في إستانبول عين ضابطًا في الجيش الثالث في "سالونيك" وبدأت أفكاره تأخذ منحنى معاديًا للخلافة، وللإسلام، وما لبث أن انضم إلى جمعية "الاتحاد والترقي"، واشتهر بعد نشوب الحرب العالمية الأولى حين عين قائدًا للفرقة ١٩، وهُزم أمامه البريطانيون مرتين في شبه جزيرة "غاليبولي" بالبلقان رغم قدرتهم على هزيمته،

- هكذا يصنعون الأبطال علي أيديهم
- وبهذا النصر المزيف رُقّي إلى رتبة عقيد ثم عميد، وفي سنة (١٣٣٧هـ = ١٩١٨/) تولى قيادة أحد الجيوش في فلسطين، فقام بإنهاء القتال مع الإنجليز – أعداء الدولة العثمانية – وسمح لهم بالتقدم شمالاً دون مقاومة، وأصدر أوامره بالكف عن الاصطدام مع الإنجليز.
- فكيف كانت علاقة السلطان بأتاتورك ؟
- غادر مصطفى كمال إستانبول في (شعبان ١٣٣٧هـ = مايو ١٩١٩) بعدما عهد إليه السلطان العثماني بالقيام بالثورة في الأناضول، واختار معه عددًا من المدنيين والعسكريين لمساعدته، وبعدما استطاع جمع فلول الجيش حوله هناك بدأ في ثورته، فاحتج الحلفاء على هذا الأمر لدى الوزارة القائمة في إستانبول المحتلة، وهددوا بالحرب، فاضطرت الوزارة إلى إقالته، وعرضت الأمر على السلطان، الذي أوصى بالاكتفاء بدعوته إلى العاصمة، لكنه اضطر بعد ذلك إلى إقالته فلم يمتثل أتاتورك لذلك وقال في برقية أرسلها للخليفة: "سأبقى في الأناضول إلى أن يتحقق استقلال البلاد."
- انتصار مزيف وثورة كاذبة
- وبدأ يشعل ثورته التي يحميها الإنجليز، وانضم إليه بعض رجال الفكر وشباب القادة الذين اشترطوا عدم المساس بالخلافة، واستمر القتال عاما ونصف العام ضد اليونانيين، استعار خلالها أتاتورك الشعار الإسلامي ورفع المصحف، وأعلن الحلفاء أثناءها حيادهم، أما الإنجليز فكانوا يعملون جهدهم لإنجاح هذه الثورة، فبعد تجدد القتال بين أتاتورك واليونانيين في (١٣٤٠هـ = ١٩٢١م) انسحبت اليونان من أزمير ودخلها العثمانيون دون إطلاق رصاصة، وضخمت الدعاية الغربية الانتصارات المزعومة لأتاتورك، فانخدع به المسلمون وتعلقت به الآمال لإحياء الخلافة، ووصفه الشاعر أحمد شوقي بأنه "خالد الترك" تشبيهًا له بخالد بن الوليد.
- أنا أعرف مطلع هذه القصيدة : الله أكبر كم في الفتح من عجبِ يا خالد الترك جدد خالد العربِ
- وعاد مصطفى كمال إلى أنقرة حيث خلع عليه المجلس الوطني الكبير رتبة "غازي"، ومعناه الظافر في حرب مقدسة، وهو لقب كان ينفرد به سلاطين آل عثمان، فتعزز موقفه الدولي والشعبي، ووردت عليه برقيات التهاني من روسيا وأفغانستان والهند والبلدان الإسلامية المختلفة، وسار العالم الإسلامي فخورًا

بثورة مصطفى كمال سنوات عدة، استغلها في كسب عواطف المسلمين وأموالهم بعدما كسا ثورته لباسًا إسلاميًا سواءً في أحاديثه أو في معاملته للزعماء المسلمين مثل الزعيم الليبي أحمد السنوسي.

- فمتي قام بإلغاء الخلافة العثمانية ؟
- وبعد انتصارات مصطفى كمال انتخبته الجمعية الوطنية الكبرى رئيسًا شرعيًا للحكومة، فأرسل مبعوثه "عصمت باشا" إلى بريطانيا (١٣٤٠هـ = ١٩٢١م) لمفاوضة الإنجليز على استقلال تركيا، فوضع اللورد كيرزون – وزير خارجية بريطانيا – شروطه على هذا الاستقلال وهي: أن تقطع تركيا صلتها بالعالم الإسلامي، وأن تلغي الخلافة الإسلامية، وأن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة، وأن تختار تركيا لها دستورا مدنيًا بدلاً من الدستور العثماني المستمدة أحكامه من الشريعة الإسلامية. ، ،نفذ أتاتورك ما أملته عليه بريطانيا، واختارت تركيا دستور سويسرا المدني، وفي (ربيع أول ١٣٤١هـ = نوفمبر ١٩٢٢م) نجح في إلغاء السلطنة، وفصلها عن الخلافة، وبذلك لم يعد الخليفة يتمتع بسلطات دنيوية أو روحية، وفرض أتاتورك آرائه بالإرهاب رغم المعارضة العلنية له، فنشر أجواء من الرعب والاضطهاد لمعارضيه، واستغل أزمة وزارية أسندت خلالها الجمعية الوطنية له تشكيل حكومة، فاستغل ذلك وجعل نفسه أول رئيس للجمهورية التركية في (١٨ربيع أول ١٣٤٢هـ = ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣م) وأصبح سيد الموقف في البلاد. وفي (٢٧ رجب ١٣٤٢هـ = ٣ مارس ١٩٢٤م) ألغى مصطفى كمال الملقب بأتاتورك الخلافة العثمانية، وطرد الخليفة وأسرته من البلاد، وألغى وزارتي الأوقاف والمحاكم الشرعية، وحوّل المدارس الدينية إلى مدنية، وأعلن أن تركيا دولة علمانية، وأغلق كثيرًا من المساجد، وحوّل مسجد آيا صوفيا الشهير إلى كنيسة، وجعل الأذان باللغة التركية، واستخدم الأبجدية اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلاً من الأبجدية العربية.
- كل هذه الإجراءات دفعة واحدة ؟
- وكانت هذه الإجراءات المتتابعة منذ إسقاط الخلافة تهدف إلى قطع صلة تركيا بالعالم الإسلامي بل وصلتها بالإسلام، ولم يقبل المسلمون قرار أتاتورك بإلغاء الخلافة؛ حيث قامت المظاهرات العنيفة التي تنادي ببقاء هذا الرباط الروحي بين المسلمين، لكن دون جدوى.
- ألم يقم أحد من المسلمين بتنصيب نفسه خليفة عوضاً عن الخليفة العثماني ؟
- حاول "حسين بن علي" حاكم الحجاز تنصيب نفسه خليفة للمسلمين، لكن الإنجليز حبسوه في قبرص، كما عمل الإنجليز على فض مؤتمر الخلافة بالقاهرة، وإلغاء جمعية الخلافة بالهند.. وهكذا نجحت أحقاد الغرب في إلغاء الخلافة الإسلامية التي لم تنقطع منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم
- فهل ذكر هذا الموقع مصادر هذه المعلومات ؟
- نعم لقد كتب أن من مصادر الدراسة: محمد فريد وجدي: تاريخ الدولة العلية العثمانية – تحقيق إحسان حنفي – دار النفائس – بيروت – الطبعة السادسة ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨م. ، أحمد عبد الرحيم

مصطفى: في أصول التاريخ العثماني – دار الشروق – القاهرة – الطبعة الثالثة – ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م. ،، موفق بني المرجة: صحوة الرجل المريض – مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر – الكويت مايو ١٩٨٤.

- فماذا عن مؤتمر لوزان ؟
- لقد وردت معلومات عن هذا المؤتمر في موقع آخر علي الانترنت حيث كتب ما يلي عن سقوط الدولة العثمانية[١٥٥] : أدى إلغاء الخلافة الإسلامية إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية، حيث تولى السلطان محمد وحيد الدين الخلافة العثمانية عام ١٩١٨، وذلك بعد وفاة أخيه السلطان محمد رشاد، ولم يمضِ على حكمه إلّا أشهر معدودة حتّى تعرضت البلاد للغزو والنهب الغربي، وفي ظل هذه الأحداث السياسية قام السلطان محمد بالاستعانة بمصطفى كمال أتاتورك، وذلك لإنقاذ البلاد من الغزو الغربي لبلاد المسلمين، ولكنّ مصطفى كمال خان الأمانة، وبدأ يعمل على إخضاع الأمور لصالحه، وليس لمصلحة البلاد، وكسب الجماهير إليه من خلال خطبه الحماسية، وبالتالي قاد حرب الاستقلال، وآمن به الكثير من أهل تركيا ومن خارجها، ثمّ تأسس الحزب الوطني، ونودي بمصطفى كمال رئيساً له، وهكذا قويت شوكته، وأصبح يتمادى على السلطان محمد وحيد الدين، وبعد مرور فترةٍ من الوقت، عقد مؤتمر لوزان، ووضع رئيس الوفد الإنجليزي شروطاً لاستقلال تركيا، وبات نجاح المؤتمر معتمداً على تحقيق هذه الشروط، وهي كالآتي: إلغاء الخلافة الإسلامية بشكلٍ نهائي. إعلان تركيا دولة علمانية، وإنهاء علاقتها بالإسلام. طرد الخليفة العثماني، وجميع آل عثمان خارج حدود تركيا. إلغاء الدستور العثماني، وإعداد دستورٍ مدني. وقد قام مصطفى كمال وأتباعه بتنفيذ جميع هذه الشروط، بل وزادوا عليها، وبذلك انتهت الدولة العثمانية، وحلّت مكانها دولة تركيا.
- فهل ذكر هذا الموقع أسباب سقوط الدولة العثمانية من وجهة نظره ؟
- أما عن أسباب سقوط الإمبراطورية العثمانية فكتب ما يلي : هناك العديد من الأسباب التي أدّت إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية، ومنها ما يأتي: وراثة المنصب العلمي: أصبحت المناصب العلمية في أواخر الخلافة العثمانية تُورّث؛ فأصبح التدريس، والفتوى، والإمامة والقضاء يورّث للأولاد أو الأخوة أو أحد الأقارب حتّى لو كان هؤلاء الورثة ليسو أكفياء في وظائفهم.، رفض فتح باب الاجتهاد: أصبحت دعوى فتح باب الاجتهاد في أواخر الخلافة العثمانية من التهم الكبيرة التي تصل عند بعض المقلّدين إلى حدّ الكفر، وإقفال باب الاجتهاد يعني توقّف الحياة عن النمو؛ وذلك كونها محصورةً في قوالب لم تعد تناسبها، ويعني أيضاً خروج الحياة في وقتٍ لاحق على هذه القوالب لتخرج في الوقت ذاته عن الشريعة؛ لأنّ الشريعة تفتقد الاجتهاد وبالتالي تعجز عن مدّ الحياة به.،. انتشار الظلم في الإمبراطورية: إنّ وجود الظلم في أيّ نظام حكم يُهدّد بزوال الدولة عاجلاً أم آجلاً؛ وقد انتشر الظلم في

---

[١٥٥] نقلاً عن موقع : https://mawdoo3.com/

الإمبراطورية العثمانية؛ فقد اقترف بعض الباشاوات أفعالاً قبيحة، وسفكوا الدماء، ونهبوا الأموال، واعتدوا على الأعراض، كما ظلم بعضهم أهل مصر وأهل الشام والحجاز، وقد اشتدّ ظلمهم لهم بمجيء الاتحاد والترقي للحكم، فقامت تلك المجموعة بظلم الناس داخل تركيّا وخارجها.، الترف والغرق في الشهوات: كانت الإمبراطورية العثمانية في بداياتها وفي أوج قوّتها وعزّها بعيدةً عن هذا الانحراف؛ حتّى أوصى محمد الفاتح وليّ عهده بالحفاظ على أموال بيت المال من التبدّد، ونهاه عن صرف أموال الدولة في اللهو والترف، وأخبره أنّ الترف من أسباب الهلاك، إلّا أنّ الإمبراطورية انغمست في الشهوات في أواخر عهدها؛ الأمر الذي أضاع مقوّمات بقائها.، الاختلاف والفُرقة: وُجدت العديد من الفرق في أواخر الإمبراطورية العثمانية، وكلّ فرقةٍ كانت تعيب على الأخرى وتدّعي امتلاكها للحقّ وحدها، ثمّ يزول تأثير هذه الجماعة في المجتمع وتندثر؛ لتظهر جماعة جديدة تكرّر ذات الأفعال، وقد أصبحت الإمبراطورية العثمانية في أواخر عهدها تفرّق بين الزعماء والسلاطين، وقد أدّى الصراع بين الحكّام المحلّيين إلى إضعاف الدولة ومن ثمّ سقوطها.، وقد أضاف الموقع أيضا ما يلي تحت عنوان : أخطاء الإمبراطورية العثمانية : وقعت الإمبراطورية العثمانية في أخطاءٍ عديدة، ومنها ما يأتي: اعتمادها نظام حكمٍ مطلق؛ حيث كان يضع مصير وإمكانيات الإمبراطورية كاملةً في يدّ السلطان وحده، وكان يمتلك سلطاناً لا حدود له. فساد مالية الدولة، وانعدام وجود الميزانية والإصلاحات، وشيوع الرشوة، وضياع الحرّية، وانتشار الجواسيس في كلّ مكان. إضعاف العرب خشية بروزهم؛ فتمّ عزلهم عن الوظائف ذات المكانة العالية، وأهملوهم؛ ممّا أدّى إلى انتشار الجهل، والمرض، والتخلّف والفقر بينهم. إعطاء العسكريين أكثر ممّا يستحقّون؛ ممّا دفعهم للفساد والطغيان، والتسلّط والتدخّل في شؤون الحكم.

- فما تعليقك علي ما ورد في تلك المواقع ؟
- لا شك أن الدولة العثمانية قد وقعت في العديد من الأخطاء ولكن المؤكد أنها قد تعرضت أيضاً لمؤامرات ومكائد وتم اختراقها ، والعمل علي فصل القوميات داخلها كما ذكرنا
- فماذا قال الرافعي عن الاتجاه القومي داخل تركيا ؟
- لقد كان الرافعي بلا شك ككاتب قومي معجب بما صنعه القوميون الأتراك ، وإليك مقتطفات مما كتبه عن هذا الموضوع : نفضت تركيا عن نفسها أكفان الانحلال الذي أصابها في نهاية الحرب العالمية الأولي وبعثت الحياة من جديد علي يد زعيمها مصطفي كمال وصحبه وأنصاره بالرغم من الهزائم التي حاقت بها في تلك الحرب – – – انبعثت الحركة الوطنية في الأناضول عقب احتلال أزمير ، وأنشئت الجمعية الوطنية (المجلس الوطني الكبير) في أنقره وتولت تنظيم الجهاد الوطني وإدارة شئون البلاد وقطعت صلتها بحكومة الآستانة ، ونشبت الحرب بين القوات الوطنية التركية والجيش اليوناني فظفر الترك باليونان في معارك عدة واضطرت اليونان لعقد الهدنة مع الترك ، وعلي أثر هذه الانتصارات

الحاسمة تغير وجه المسألة الشرقية واتفق الحلفاء مع الحكومة الوطنية التركية علي عقد مؤتمر دولي في لوزان لإبرام الصلح مع تركيا الجديدة وكان لابد أن يتناول هذا المؤتمر المسألة المصرية[١٥٦]

- **بالطبع أكثر ما يهم الرافعي في مؤتمر لوزان المسألة المصرية**
- **بالتأكيد فقد قامت القوي السياسية في ذلك الوقت المتمثلة في حزب الوفد والحزب الوطني بإرسال وفد غير حكومي لتعذر إرسال وفد رسمي لعدم استقرار الوزارة في ذلك الوقت وكانت مهمة هذا الوفد أن تنازل تركيا عن سيادتها علي مصر يكون لمصر لا لبريطانيا ، ولم يصل الوفد إلي نتيجة مرضية**
- **فما تعليقك علي رأي الرافعي في الاتجاه القومي الجديد الذي سيطر علي تركيا ؟**
- **لا أريدك أن تقسو في الحكم علي الرافعي فأنت إذا نشأت في الأوساط السياسية التي نشأ فيها والبيئة الفكرية التي عاصرها قد يؤدي بك الحال إلي تبني نفس أفكاره وآراءه ولا تنسي أن التيار القومي في ذلك الوقت كان قوياً جداً والانبهار بالحضارة الغربية كان سائداً وخاصة مع التراجع الحضاري الإسلامي وحتي الآن هناك المفتونين بالغرب ويقلدونهم في كل شئ إلا من رحم ربي ، ولقد عاش الرافعي رحمه الله حياته كلها مدافعاً عن القضية الوطنية وكان شديد الإخلاص لها وأفني حياته كلها من أجل الاستقلال مستخدماً جميع الأساليب التي كان يعتقد صحتها ويؤمن بها وحسابه علي الله وحده**
- **لديك كل الحق لقد تعرض جيل الرافعي وما تلاه من أجيال لموجة تغريب قل من صمد أمامها ولكننا للأسف حالياً قد أصابنا داء الحكم المسبق علي أي شخص دون تروّي وتفكير إلا من رحم ربي ، فهل شعر أحد بمدي خطورة سقوط الخلاف الإسلامية ؟**

فقرة من كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)

- **بالتأكيد ، فقد كانت الرابطة الإسلامية هي أساس قيام الخلافة فهي لا تعتمد علي جنس أو قومية معينة فالعرب كما قلنا لم يؤسسوا دولة عربية ودعني أقرأ لك فقرة من كتاب ممتع قام بتأليفه عالم مسلم من الهند اسمه أبو الحسن الندوي وهذا الكتاب اسمه ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين ، يقول في أحد فقراته عن المسلمين ما يلي: (– – أنهم لم يكونوا خدمة جنس ورسل شعب أو وطن يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده ويؤمنون بفضله وشرفه علي جميع الشعوب والأوطان ، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاماً ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم ، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلي حكم العرب وإلي حكمهم أنفسهم ، إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلي عبادة الله وحده كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد : "الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلي عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلي سعتها ومن جور الأديان إلي عدل الإسلام " فالأمم عندهم سواء ، الناس كلهم من آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي علي عجمي ولا لعجمي**

---

[١٥٦] نقلاً باختصار عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – #عبد_الرحمن_الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

علي عربي إلا بالتقوي "" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ""١٣الحجرات ، وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص –وقد ضرب ابنه مصرياً وافتخر بآبائه – قائلاً : خذها من ابن الأكرمين فاقتص منه عمر– : متي استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ،، فلم يبخل هؤلاء علي ما عندهم من دين وعلم وتهذيب علي أحد ، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسباً ولوناً ووطناً بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد ، وغوادي مزنة أثني عليها السهل والوعر وانتفعت بها البلاد والعباد علي قدرقبولها وصلاحها ،،، في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب –حتي المضطهدة منها في القديم– أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة ، أن تساهم العرب في بناء العالم الجديد ، بل إن كثيراً من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين حتي قال ابن خلدون : "من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي " ونبغ من هذه الأمم في عصور الإسلام قادة وملوك ووزراء وفضلاء هم نجوم الأرض ونجباء الإنسانية وحسنات العالم فضيلة ومروءة وعبقرية وديناً وعملاً لا يحصيهم إلا الله –)[١٥٧]

- إنه كلام رائع بالفعل ، فماذا كان وقع سقوط الخلافة علي المصريين ؟
- هناك قصيدة رثاء لأمير الشعراء أحمد شوقي ينعي الخلافة وتتضمن هذه القصيدة الإجابة التي تنتظرها
- فهل ممكن أن تتلو مقتطفات منها ؟
- أنشد أمير الشعراء أحمد شوقي :

عادت أَغاني العرسِ رَجْعَ نُواح ... ونُعيتِ بين معالم الأَفراحِ
كُفِّنتِ في ليلِ الزفاف بثوبه ... ودُفِنتِ عند تبلُّج الإصباح
شُيِّعتِ من هَلَعٍ بعَبْرَةِ ضاحكٍ ... في كلّ ناحيةٍ، وسكرةِ صاح
ضجَّتْ عليكِ مآذنٌ، ومنابر ... وبكت عليك ممالكٌ، ونواح
الهندُ والهةٌ، ومصرُ حزينةٌ ... تبكي عليك بمدمعٍ سَحّاحِ
والشامُ تسأَلُ، والعراق، وفارسٌ ... أَمَحَا من الأَرض الخلافةَ ماح؟
وأَتت لك الجُمَعُ الجلائلُ مأْتماً ... فقعدن فيه مَقاعدَ الأَنواح
يا لَلرّجال لحُرة مَوءُودة ... قُتلت بغير جريرة وجُناح
إنَّ الَّذين أَسَتْ جراحَكِ حربُهم ... قتلتْكِ سلهمُ بغير جِراح
هتكوا بأَيديهم مُلاءَةَ فخرِهِم ... مَوْشِيَّةً بمواهب الفتاح

---

[١٥٧] نقلاً عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين تأليف العلامة أبو الحسن الندوي صفحة ١٠٦،١٠٧

نزعوا عن الأَعناق خيرَ قِلادة ... ونَضَوْا عن الأَعطاف خير وِشاح

حَسَبٌ أَتى طولُ الليالي دونَه ... قد طاح بين عشيةٍ وصباح

وعَلاقَةٌ فُصِمَت عُرَى أَسبابها ... كانت أَبرَّ علائقِ الأَرواح

جَمَعَت على البرِّ الحُضورَ، وربما ... جمَعتْ عليه سرائرَ النُّزَّاح

نظمت صفوفَ المسلمين وخَطْوَهم ... في كلِّ غُدوةِ جُمعة ورواح

بكت الصلاةُ، وتلك فتنةُ عابثٍ ... بالشرع، عِرْبيدِ القضاءِ، وَقاح

أَفتى خُزَعْبِلَةً، وقال ضلالةً ... وأَتى بكفر في البلاد بواح

إِنَّ الذين جرى عليهم فقهُهُ ... خُلقوا لِفقه كتيبة وسلاح

إن حدّثوا نطقوا بخُرْسِ كتائبٍ ... أَو خوطبوا سمِعوا بصُمِّ رِماح

استغفرُ الأَخلاقَ، لستُ بجاحدٍ ... من كنتُ أَدفعُ دونَه وأُلاحي

ما لي أُطوِّقُهُ الملامَ وطالما ... قلَّدتُه المأْثورَ من أَمداحي

هو ركنُ مملكة، وحائطُ دُولةٍ ... وقريعُ شهباءٍ، وكبشُ نِطاح

أَأَقولُ مَن أَحيا الجماعةَ مُلحِدٌ ... وأَقول مَن رد الحقوقَ إباحي

الحقُّ أَولى من وليِّك حرمةً ... وأَحقُّ منك بنصرةٍ وكِفاح

فامدح على الحقِّ الرجالَ ولُمْهُم ... أَو خَلِّ عنك مَواقفَ النصاح

ومِن الرجالِ إذا انبريتَ لهدمهم ... هرمٌ غليظُ مناكِبِ الصُّفّاحِ

فإذا قذفتَ الحق في أَجلاده ... ترك الصراعَ مُضعْضَعَ الألواح

أَدُّوا إلى الغازِي النصيحةَ يَنتصحْ ... إن الجوادَ يثوبُ بعد جِماح

إن الغرورَ سقى الرئيسَ براحِه ... كيف احتيالُك في صريع الراح

نقل الشرائعَ، والعقائدَ، والقرى ... والناسَ نقلَ كتائبٍ في الساح

تركتْه كالشبح المؤلَّهِ أُمَّةٌ ... لم تَسْلُ بعدُ عباد الأشباح

هُم أَطلقوا يده كقيصرَ فيهم ... حتى تناول كلَّ غيرِ مباح

غرَّته طاعاتُ الجُموعِ، ودولةٌ ... وجد السوادُ لها هَوَى المُرتاح

وإذا أَخذتَ المجدَ من أُمِّيةٍ ... لم تُعطَ غيرَ سَرابِه اللّماح

منْ قائلٌ للمسلمين مقالةً ... لم يوحها غيرَ النصيحة واحِ؟

عهدُ الخلافةِ فِيَّ أَوّلُ ذائدٍ ... عن حوضها ببراعةٍ نضَّاح

حبٌّ لذاتِ اللَّهِ كان، ولم يزل ... وهوىً لذاتِ الحقِّ والإصلاح

إني أَنا المِصباحُ، لست بضائع ... حتى أَكونَ فراشةَ المصباح

غزواتُ أَدهم كُلِّلَت بذوابِلٍ ... وفتوحُ أَنورَ فُصِّلت بِصفاح

ولَّتْ سيوفُهما، وبان قناهُما ... وشبا يَراعي غيرُ ذاتِ بَراح

لا تَبذلوا بُرَدَ النبي لِعاجزٍ ... عُزُلٍ، يدافَعُ دونَه بالراح

بالأَمس أَوهى المسلمين جراحةً ... واليوم مدّ لهم يَدَ الجرّاح

فلتَسمَعُنّ بكل أَرضٍ داعياً ... يدعو إلى الكذّابِ أَو لسَجاح

ولتشهدُنّ بكل أَرض فِتنةً ... فيها يباعُ الدِّين بيعَ سَمَاح

يُفتَى على ذهبِ المُعزِّ وسيفِه ... وهوى النفوس، وحِقْدِها الملحاح

- الهندُ والهةٌ، ومصرُ حزينةٌ ... تبكي عليك بمدمعٍ سَحّاحِ ،،، والشامُ تسأَلُ، والعراق، وفارسٌ ... أَمَحَا من الأَرض الخلافةَ ماح؟ يا لها من كلمات مؤثرة بالفعل
- لقد كانت مأساة بالفعل لم يشعر بها إلا كل مسلم غيور علي أمته
- وهكذا عبثت بريطانيا بالأتراك كما عبثت بالعرب وبالمصريين ، وها نحن سنعود للحديث عن مصر والمصريين في ظل الاحتلال البريطاني البغيض الماكر
- حسناً فلنكمل الحديث عن الحياة الدستورية المزعومة في مصر في ظل الاحتلال البريطاني وعبث الملك فؤاد بالبرلمان
- فهل لديك نماذج من الحياة الدستورية في مصر في ظل الاحتلال البريطاني ؟
- بالتأكيد سوف أذكر لك بعض المواقف التي أوردها الرافعي في كتابه والتي توضح كيف كان يتم العبث بالحياة النيابية في مصر
- كلي آذان صاغية

مجلس نواب لمدة تسع ساعات يوم ٢٣مارس سنة ١٩٢٥

- يقول الرافعي : – – استقالت وزارة سعد زغلول بعد حادث مقتل السير لي ستاك وتولي أحمد زيور رئاسة الوزارة وتم حل مجلس النواب ثم تم الدعوة لانتخاب مجلس جديد ثم تم حله في نفس يوم انعقاده ،
- تم حله في نفس يوم انعقاده يا للعجب
- وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي ما ملخصه : افتتح البرلمان بمجلسيه في هيئة مؤتمر صبيحة يوم الاثنين ٢٣ مارس سنة ١٩٢٥ برئاسة محمد توفيق نسيم باشا رئيس مجلس الشيوخ وحضر #الملك_فؤاد جلسة الافتتاح وتلا زيور باشا خطاب العرش ثم انفض المؤتمر ، واجتمع مجلس النواب في نحو الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وبدأ في انتخاب رئيسه ، فظهر من نتيجة الانتخاب أن أغلبية النواب من الوفديين إذ كان التنافس علي الرآسة بين سعد زغلول وعبد الخالق ثروت ، فنال سعد ١٢٣ صوتاً ونال ثروت ٨٥ صوتاً فقط فظهرت بذلك النتيجة التي لا شك فيها في الانتخابات العامة لمجلس النواب الجديد ، وأنها أسفرت عن أغلبية وفدية خلافاً لما زعمته الحكومة في

بلاغها يوم ١٣ مارس ، وظهر أن الوزارة لا تحوز ثقة المجلس الجديد ، فكانت هذه النتيجة صدمة شديدة للوزارة ، وتأجل اجتماع المجلس إلي الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم لمتابعة أعماله وأولها انتخاب وكيلي المجلس والسكرتيرين والمراقبين (أعضاء مكتب المجلس) ، ولو اتبعت أحكام الدستور وكان الغرض من حل مجلس النواب الأول هو الرجوع إلي الأمة لكان واجباً علي الوزارة أن تستقيل ، وقد أعدت استقالتها فعلاً عقب انتخاب سعد لرآسة المجلس ولكن كان الأمر مبيتاً علي أن تكون الاستقالة صورية وأن تكون اتهاماً للأغلبية وأن لا يقبل الملك هذه الاستقالة ، فرفع زيور باشا كتاب الاستقالة إلي الملك ، ومما جاء فيه قوله : "بمجرد انعقاد المجلس وقبل بحث برنامج الوزارة الذي تضمنه خطاب العرش ظهرت في المجلس روح عدائية علي الإصرار علي تلك السياسة التي كانت سبباً لتلك النكبات التي لم تنته البلاد من معالجتها وقد بدت تلك الروح جلية في أن المجلس اختار لرياسته زعيم تلك السياسة والمسئول الأول عنها" ، والسياسة التي أشار إليها زيور في هذا الكتاب هي سياسة البرلمان الأول[١٥٨] التي أغضبت الحكومة البريطانية إذ رفض مطالبها الجائرة ، لم يقبل الملك استقالة الوزارة وجدد ثقته فيها علي الرغم من خذلان مجلس النواب الجديد لها ، فرفع زيور إلي الملك كتاباً آخر عرض فيه حل هذا المجلس فأصدر الملك علي الفور مرسوماً بحله ، استأنف المجلس اجتماعه في الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم ورأس الجلسة سعد باشا ، وأخذ الأعضاء في انتخاب الوكيلين - - - وفيما كانت الأوراق تفرز دخل زيور باشا ومعه الوزراء وخاطب الأعضاء قائلاً : أتشرف بإخبار المجلس أن الوزارة رفعت استقالتها إلي جلالة الملك فأبي قبولها ، فأشارت الوزارة علي جلالته بحل المجلس فأصدر المرسوم الآتي نصه وتلاه وهو يقضي بحل المجلس وبدعوة المندوبين لإجراء انتخابات جديدة في ٢٣ مايو سنة ١٩٢٥ وأن مجلس النواب الجديد سيجتمع أول يونيه ، ، كانت تلاوة مرسوم الحل قبيل الساعة الثامنة مساءاً ، فلم يعش ذلك المجلس سوي تسع ساعات ، لأنه انعقد في الساعة الحادية عشرة صباحاً ، وحل في الثامنة مساءاً فكان أقصر المجالس النيابية عمراً

- فماذا كان رد فعل النواب علي هذا القرار ؟
- يضيف الرافعي قائلاً : قوبل حل مجلس النواب بالدهشة والألم لأنه كان مفهوماً أن يبقي وتستقيل الوزارة ، وكان هناك طرائق كثيرة لمعالجة هذه الأزمة بان تؤلف وزارة جديدة من حزب الأغلبية أو موالية لها وتنال ثقة المجلس وتسير الأمور طبقاً لأحكام الدستور ولكن العناد الذي يشبه عناد الأطفال جعل الوزارة باتفاقها مع السراي والإنجليز تستصدر المرسوم بحل مجلس النواب ، منتهكة بذلك حرمة الدستور وإرادة الأمة ، وكان الباعث علي هذا الذي وقع هو تعلق بضعة نفر من الوصوليين بكراسي الوزارة فحسب ورغبتهم الجامحة في ألا تفلت هذه الكراسي من أيديهم ، صار الحكم منذ تأليف وزارة

[١٥٨] جدير بالذكر أن المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي كان عضواً في هذا البرلمان عن الحزب الوطني

زيور باشا حكماً غير دستوري لأن الوزارة بدلاً من أن تواجه البرلمان لكي تنال ثقته وبدلاً من أن تنزل علي إرادته حلت مجلس النواب الأول ثم حلت مجلس النواب الثاني حين آنست أن الأغلبية ليست في جانبها وبذلك حل مجلس النواب لسبب واحد مرتين وهذا نقض لأحكام الدستور – – – واستفحل نفوذ السراي في ظل هذا النظام لأن الوزارة لم يكن لها سند غير السراي ، بعد أن أهدرت إرادة الأمة – – – وهكذا عطل الدستور ، ومن عجب أن من هؤلاء السادة من صبروا علي حكم الاحتلال السنين الطوال ولم يتبرموا به أو يقاوموه أو يعارضوه ثم هم أولاء لم يصطبروا علي حكم الشعب أشهر معدودات[١٥٩]

- يبدو أن أحمد زيور باشا كان محل ثقة الملك والإنجليز ويفعل ما يتفق مع سياساتهم ، فهل لديك معلومات عن هذا الرجل عدو الدستور ؟
- بالطبع إن خير ما يمكن أن يقال عنه ما كتبه الشيخ عبد العزيز البشري في كتابه
- فماذا كتب عنه بأسلوبه الساخر الطريف ؟

أحمد زيور باشا في مرآة عبد العزيز البشري

- أما شكله الخارجي وأوضاعه الهندسية ورسم قطاعاته ومساقطه الأفقية فذلك كله يحتاج في وصفه وضبط مساحاته إلي فن دقيق وهندسة بارعة ، والواقع أن زيور باشا رجل –إذا صح هذا التعبير– يمتاز عن سائر الناس في كل شئ ، ولست أعني بامتيازه في شكله المهول طوله ولا عرضه ولا بعد مداه ، فإن في الناس من هم أبدن منه وأبعد طولاً وأوفر لحماً ، إلا أن لكل منهم هيكلاً واحداً ، أما صاحبنا فإذا اطلعت عليه أدركت لأول وهلة أنه مؤلف من عدة مخلوقات لا تدري كيف اتصلت ولا كيف تعلق بعضها ببعض ، وإنك لتري بينها الثابت وبينها المختلج ، ومنها ما يدور حول نفسه ، ومنها ما يدور حول غيره وفيها المتيبس المتحجر وفيها المسترخي المترهل ، – – – وإنك لتجد ناساً يصفون زيور بالدهاء وسعة الحيلة بينما تري آخرين ينعتونه بالبساطة وقد يتدلون به إلي حد الغفلة ، كما تجد خلقاً يتحدثون بارتفاع خلقه وتنزهه عن النقائص ، إذ غيرهم ينحطون به إلي ما لا تجاوره مكرمة ، ولا يسكن إليه خلق محمود ، كذلك زيور عند الناس مجموعة متباينة متناقضة متشاكسة – – – وإذا كان هذا مما لا يمكن في الطبيعة أن يستقيم لرجل واحد فقد غلط الناس إذ حسبوا زيور رجلاً واحداً ، – – فإذا أدهشك التباين في أخلاقه – فذلك أن هذا الجرم العظيم مؤلف في الحقيقة من عدة مناطق لكل منها شكله وطبعه وتصوره وحظه من التربية والتهذيب ، – – والظاهر أن زيور باشا برغم حرصه علي كل هذه الممتلكات الواسعة عاجز تمام العجز عن إدارتها وتوليها بالمراقبة والإشراف ، وما دامت الإدارة المركزيه فيه قد فشلت كل هذا الفشل ، فأحري به أن يبادر فيعلن إعطاء كل منها الحكم الذاتي علي أن تعمل مستقلة بنفسها علي التدرج في سبيل الرقي والكمال ، – – – تلك بعض آثار هؤلاء الذين يدعونهم زيور باشا فإذا تمثلوا شخصاً وبدوا للعيون رجلاً واحداً فذلك مصداق قول أبي نواس :

[١٥٩] نقلاً عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية) الجزء الأول – لعبد الرحمن الرافعي

ليس علي الله بمستكثر أن يجمع العالم في واحد ، وإن أهل مصر ليأخذون زيور باشا كله بما لا يحصي من الجرائم علي القضية الوطنية ، وإنهم ليعدون عليه سفهه في أموال الدولة واستهتاره بمصالحها ، وإنهم ليحسبون عليه إيثاره الأهل والأقربين والأصحاب والمحبين وذوي أرحامهم بمناصب الدولة ومنافعها ، وقد يكون لمجلس النواب مع هؤلاء الرجل شأن إذا أقبل يوم الحساب ، وإن ظلماً أن يؤخذ البرئ بجريرة الآثم ، فقد يكون الذي اقترف كل هذه الآثام كوع زيور باشا الأيسر ، أو القسم الأسفل من لغده أو المنطقة الوسطي من فخذه اليمني ، أو غيرها من تلك الكائنات التي تجمعت في هيكله العظيم - - إن الحق والعدل ليقضيان أن يؤلف مجلس النواب إن شاء الله لجنة تقوم بعمل التحقيق في جسم صاحب الدولة فتسأل أعضاءه عضوا عضوا وتحقق مع أشلائه شلوا شلوا حتي يفرق منها بين المحسن والمسئ - - ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما اُرتكب من الآثام هو مخ زيور باشا ، فما أحسبه شارك ولا دخل في شئ من كل ما حصل - - - - وفي -زيور باشا- صفة جامعة هي شدة احترامه للبرنيطة وعمله علي إرضائها بكل الوسائل فما عُرِف أن زيور رد في حياته طلباً لبرنيطة مهما كان حاملها في الناس[١٦٠]

- وماذا كان رد فعل زيور باشا علي ما كتبه البشري ؟
- لقد كان يضحك من مثل هذه الأمور ويأخذها ببساطة شديدة
- حسناً ، فهل من الممكن أن نختصر الحديث عن الحكم الدستوري في مصر لأن الخوض في التفاصيل لن يكون مجدياً ، لأن الملك والإنجليز يتلاعبون بالوزارات ومجالس النواب فليس من الضروري أن نتحدث عن هذه الألاعيب ويكفي أن نتحدث بشكل عام عنها
- بالفعل لقد كان الملك يتلاعب بالدستور وبالحكومات المنتخبة ويقوم الإنجليز بدعم الموقف الذي يتماشي مع سياساتهم ويحقق أهدافهم ومع ذلك لا يعلنون ذلك صراحةً بل كان موقفهم الرسمي هو الحياد بين الملك والقوي السياسية ولكنه كان حياد كاذب كما وصفه شاعر النيل حافظ إبراهيم رحمه الله
- فماذا قال حافظ إبراهيم عن هذا الحياد الكاذب ومتي كان ذلك ؟

شاعر النيل حافظ إبراهيم يصف حياد بريطانيا سنة ١٩٣٠ بالحياد الكاذب

- كانت الأفكار تتناقل الإشاعات المختلفة عما تبيته الحكومة للحياة الدستورية وكان الظن أن تلجأ إلي تعديل قانون الانتخاب لتضمن تدخلها وضغطها علي حرية الناخبين أو توقف الحياة الدستورية كما فعلت وزارة محمد محمود ولكن وزارة اسماعيل صدقي كانت أمعن في العدوان مما ظنه الناس إذ استقر عزمها علي إلغاء الدستور ووضع دستور آخر يضيق من سلطة الأمة ، صدر الأمر الملكي في ٢٢

---

١٦٠ ملحوظة : نشرت هذه المرآة في جريدة السياسة الأسبوعية وزيور باشا في رياسة الوزراء نقلاً باختصار عن كتاب في المرآة تأليف الشيخ عبد العزيز البشري رحمه الله – الناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – تصميم غلاف الكتاب محمد الطوبجي

أكتوبر سنة ١٩٣٠ بإلغاء دستور ١٩٢٣ وبحل مجلسي النواب والشيوخ وإعلان الدستور الجديد ووقع الملك فؤاد علي هذا الأمر وعلي الدستور الجديد ووقع مع الوزراء اسماعيل صدقي ---وصدر في نفس اليوم قانون الانتخاب الجديد منسجماً مع الدستور الذي ابتدعته الوزارة ، وعرضت الوزارة خفية أمر هذا الدستور علي الحكومة البريطانية قبل إصداره وأطلعت وزارة الخارجية البريطانية علي نصوصه وكانت هذه علي علم باليوم المحدد لصدوره ، فكان جوابها أن هذه من المسائل الداخلية التي لا شأن لها بها ومدلول الجواب موافقتها علي هذا الاعتداء فمضت الوزارة مطمئنة إلي إنفاذه وكان موقف الحكومة البريطانية تحت ستار الحياد ينطوي علي الانتقام من الأمة لعدم قبول حكومتها البرلمانية مشروع المعاهدة ، فسياستها هي إما قبول السيطرة البريطانية وإما حرمان الأمة حقوقها الدستورية بواسطة الوزارات الرجعية ، - - أشارت جريدة الديلي ميل الإنجليزية بقولها قبيل صدور الدستور الجديد : (تدبر أزمة جديدة في سراي عابدين - - الملك فؤاد بمعاونة صدقي باشا قد سنا دستوراً جديداً تماماً - - إلي أن قالت ومعني هذا أن الحكومة تكون حكومة السراي وأن الحكومة هي الملك نفسه وستكون نتيجة هذا التغيير المنتظر نقل السيطرة البرلمانية من الوفديين المضادين للبريطانيين إلي الملك الذي يتسني له إذ ذاك أن يحكم البلاد حكماً مطلقاً ، أما الذين يعلمون طريقة سير الحوادث في مصر فيقولون إنه من المستحيل علمياً أن تتبع بريطانيا سياسة عدم التدخل في الشئون المصرية ، فما دامت بريطانيا واضعة جنودها في القاهرة وأسطولها علي مقربة من الإسكندرية فإن عدم تدخلها يعتبر علي الأقل معادلاً للتأييد السلبي)- - - -قال شاعر النيل حافظ إبراهيم مخاطباً الإنجليز منددا بسياسة الحياد ناعياً عليهم ظلمهم وإخلافهم وعودهم للأمة :

بنيتم علي الأخلاق أساس ملككم   فكان لكم بين الشعوب ذمام

أخاف عليكم عثرة بعد نهضة   فليس لملك الظالمين دوام

أضعتم وداداً لو رعيتم عهوده   لما قام بين الأمتين خصام

أبعد حياد لا رعي الله عهده   وبعد الجروح الناغرات وئام ؟

وقال في هذا المعني :

لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم   فمصابكم ومصابنا سيان

حاربتمو أخلاقكم لتحاربوا   أخلاقنا فتألم الشعبان

وقال عن الحياد الكاذب :

قصر الدوبارة قد نقضت العهد نقض الغاصب

أخفيت ما أضمرته وأبنت ود الصاحب

الحرب أروح للنفوس من الحياد الكاذب

وقال مخاطباً المندوب السامي البريطاني منددا بحياد الإنجليز المصطنع :

ألم تر في الطريق إلي كياد　　تصيد البط بؤس العالمينا

الم تلمح دموع الناس تجري　　من البلوي – ألم تسمع أنينا

الم تخبر بني التايمز عنا　　وقد بعثوك مندوباً أمينا

بأنا قد لمسنا الغدر لمساً　　وأصبح ظننا فيكم يقينا

كشفنا عن نواياكم فلستم　　وقد برح الخفاء محايدينا

سنجمع أمرنا فترون منا　　لدي الجلي كراماً صابرينا

فهل يجديكم الأسطول نفعاً إذا ما نازل الحق المبينا ؟

وقال أيضاً : أمحايد أم حائد عن منهج الحق المبين ؟

نازلت شعباً أعزلاً بمدرعين مدججين

وأمنت عقبي الظالمين وبئس عقبي الظالمين

مهما تصب منا فلسنا الجازعين اليائسين

إنا بجبار السماء وبالعقيدة نستعين

إن العقيدة لا تزلزلها حراب الغاصبين

فلئن ملكتم يومكم لغد لرب العالمين

أأمنتمو صرف الزمان وفتكه بالغاشمين

وقال مخاطباً اسماعيل باشا صدقي :

قد مر عام يا سعاد وعام　　وابن الكنانة في حماه يضام

صبوا البلاء علي العباد فنصفهم يجبي البلاد ونصفهم حكام

أشكو إلي قصر الدبارة ماجني صدقي الوزير وماجبي علام

ودعا عليك الله في محرابه الشيخ والقسيس والحاخام[١٦١]

- **كل ما سبق بالطبع كان مجرد أمثلة فقط علي العبث بالحياة الدستورية في مصر ، فهل هناك أمثلة أخري ؟**
- **بالتأكيد فقد كان تصريح فبراير ١٩٢٢ منحة من الإنجليز وكان الدستور ١٩٢٣ منحة من الملك وبالتالي فقد كانوا يعتقدون أن لهم الحق في تعطيل أو تفعيل ما منحوه للشعب في أي وقت ، بل إن من الأمثلة الواضحة جداً علي ذلك أن القوي السياسية في أحد هذه المراحل أرسلت خطاب إلي الملك تستجدي منه العودة للدستور وإجراء انتخابات**
- **وهل لديك نص هذا الخطاب ؟**

كتاب الجبهة الوطنية إلي الملك فؤاد – ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥

[١٦١] نقلاً باختصار عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة ١٩١٩ – لعبد الرحمن الرافعي الجزء الثاني –دار المعارف

- بالتأكيد فقد ورد به ما يلي : نقلاً عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة ١٩١٩ – لعبد الرحمن الرافعي – الجزء الثاني –دار المعارف : حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك ،،، نتشرف نحن الموقعين علي هذا بأن نرفع إلي سدتكم الرفيعة هذا الملتمس الذي تتمثل فيه إرادة الشعب المصري مجتمعة كلمته منيعة جبهته ، فلقد حلت بالبلاد أزمة سياسية خطيرة اجتمع فيها الخطر الخارجي الذي يهدد البلاد بحرب جائحة إلي الخطر الداخلي الذي يهدد حريتها وطمأنينتها ويمس حقها المعترف به في تصريف أمورها والاستمتاع بدستورها مما دعا إلي انتشار روح القلق في البلاد واضطراب المصالح العامة والخاصة معاً ،، وإننا لنري بكل احترام أنه ما من مخرج من هذه المحنة أو علاج حاسم لها إلا أن يعود إلي الأمة فوراً دستورها الصادر في سنة ١٩٢٣ ، وما كنا فيما نري صادرين إلا عن الرأي الذي ارتضته حكمة جلالتكم السامية في كتابكم الملكي الصادر إلي مجلس الوزراء بتاريخ ٢٠ إبريل سنة ١٩٣٥ ، والذي ورد فيه ما يأتي بحروفه : (إن أعز أمانينا كما تعلمون هو أن تحيا البلاد الحياة الدستورية التي ترضاها ، سواء بإعادة دستور سنة ١٩٢٣ معدلاً علي النحو يرتئيه حسب المقتضيات نواب الأمة طبقاً لأحكام المواد ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ من ذلك الدستور أو وضع دستور تصدق عليه جمعية تمثيلية وطنية وإنا مع ذلك نفضل الطريقة الأولي) ،، (يا صاحب الجلالة) ،، ،(إذا كان الشعب ممثلاً في هيئاته وأحزابه السياسية قد أجمع هذا الإجماع الرائع علي وجوب عودة دستور الأمة منذ الآن فإنه إنما يقصد إلي استقرار نظام الحكم علي أساس سلطة الأمة توصلاً لإيجاد حكومة دستورية تعمل لإصلاح ما فسد وتحقق استقلال البلاد) ،، ولما كان الدستور من حق جلالتكم والشعب المصري ،، ولما كنا نعلم أن أسمي رغبات جلالتكم أن تطمئن الأمة إلي صيانة حقوقها ومرافقها فتهيأ لنفسها المصير الذي ينتظرها والمكان اللائق بها بين الأمم ،،، لذلك ،، نلتمس من جلالتكم ،،، التعطف بإصدار أمركم الكريم بإعادة دستور سنة ١٩٢٣ فوراً ونرفع إلي سدتكم مع هذا الالتماس أسمي فروض الولاء لعرشكم والإخلاص لذاتكم ،،، ولازلنا يا صاحب الجلالة لمقامكم العالي المطيعين المخلصين ،،، ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ ويقول الرافعي : وقد وقع علي هذا الكتاب كل من : مصطفي النحاس رئيس الوفد المصري[١٦٢] ، محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، اسماعيل صدقي رئيس حزب الشعب ، يحيي إبراهيم رئيس حزب الاتحاد ، حافظ رمضان رئيس الحزب الوطني ، عبد الفتاح يحيي ، حمد الباسل وحافظ عفيفي عن المستقلين وتسلمه علي ماهر رئيس الديوان الملكي ورفعه إلي الملك
- يا لها من صيغة مهينة أكثر ما لفت نظري فيها قولهم نلتمس من جلالتكم التعطف بإصدار أمركم الكريم بإعادة دستور سنة ١٩٢٣ حقاً لقد كان منحة من الملك

[١٦٢] كان قد خلف مصطفي النحاس باشا سعد زغلول في رئاسة الوفد بعد وفاته

- أما عن ملخص علاقة الملك فؤاد بالحياة الدستورية في مصر فقد كتب عنها الرافعي في موضع آخر من كتابه في معرض حديثه عن مراحل حياة الملك فؤاد ما يلي : ومن هنا صارت المرحلة الثالثة من حياة الملك فؤاد –وهي معظم سني حكمه– نضالاً مستمراً بينه وبين الأمة وقعت فيها ثلاثة انقلابات حطمت الحياة الدستورية ، وهذا لعمري مما لا يشرف صفحة الملك ، وخاصة إذا لاحظنا أنه لم يبذل مثل هذا النضال ولا أقل منه في ميدان آخر كان هو الجدير به ، ونعني به ميدان النضال ضد الجانب البريطاني جانب الاحتلال والعدوان علي الاستقلال – – بل كان يعمل علي مسايرة السياسة البريطانية وتفادي الصدام بها اعتبر ذلك قبل ثورة ١٩١٩ وفي خلالها وفي أعقابها ، ومن المحقق أيضاً أن هاتيك الانقلابات الثلاثة التي وقعت في عهده كانت تتم باتفاق بينه وبين الجانب البريطاني مع اختلاف في المقاصد والأغراض ، فالجانب البريطاني كان يري فيها عقوبة لمصر علي عدم إذعانها لسياسته ، والملك والمستوزرون يرون فيها استرداداً للحكم المطلق علي حساب سلطة الأمة ، ولا ينهض عذراً للملك فؤاد في مناوأته للدستور ما يدعيه بعض الرجعيين من أن الأمة لم تنضج لهذا النظام ، فإن هذه الدعاية إنما ابتدعها الاحتلال منذ سنة ١٨٨٢ ليسوغ بها عدوانه علي استقلال البلاد إلغاء دستورها سنة ١٨٨٣ – –ويكفيك للتحقق من بطلانها أن تقارن بين الوزارات التي اختارها الشعب والوزارات التي اختارها الملك فؤاد وفرضها علي الشعب فرضاً ، سواء في عهد الحماية أو في عهد ثورة ١٩١٩ أو في أعقابها فإنك من غير تردد أو تحيز تقطع بأن اختيار الشعب في مجموعه كان خيراً من اختيار الملك فهذا دليل ناطق علي أن الشعب ناضج للحياة الدستورية كفء لأن يختار الحكومة التي يرضاها
- هل من الممكن أن تذكر لي أسماء جميع رؤساء الحكومات في عهد الملك فؤاد والملك فاروق بالترتيب كملخص عام للعصر الملكي ؟

بيان أسماء رؤساء وزراء مصر في العصر الملكي

- كان أول رئيس وزراء في عهد فؤاد هو حسين رشدي باشا وفي عهده قامت ثورة ١٩١٩ وكان قد تولي الوزارة من قبل تعيين فؤاد سلطان علي مصر ثم تولي رئاسة الوزراء بعده بفترة محمد سعيد باشا ثم يوسف وهبة باشا ، ثم محمد نسيم باشا ، ثم عدلي يكن باشا ، ثم عبد الخالق ثروت باشا بعد تصريح ٢٨فبراير ١٩٢٢ وفي عهده أصبح فؤاد ملك بدلا من سلطان ، ثم تولي محمد توفيق نسيم باشا الوزارة ، ثم يحيي إبراهيم باشا وفي عهده صدر دستور ١٩٢٣ ثم تم عمل انتخابات وأصبح سعد زغلول باشا رئيساً للوزراء وهي أول حكومة منتخبة بعد الدستور ، ثم حدث انقلاب علي الدستور بعد مقتل السير لي ستاك وتم تعيين أحمد زيور باشا رئيساً للوزارة ، ثم عدلي يكن باشا ، ثم عبد الخالق ثروت باشا ، وفي عهده توفي سعد باشا زغلول ، مصطفي النحاس باشا ، محمد محمود باشا ، عدلي يكن باشا ، مصطفي النحاس باشا ، اسماعيل صدقي باشا ، عبد الفتاح يحيي باشا ، محمد نسيم

باشا ، علي ماهر باشا وفي عهده توفي الملك فؤاد وتم ارتقاء الملك فاروق عرش مصر وفي عهده تولي رئاسة الوزراء علي الترتيب كل من : مصطفي النحاس باشا وفي عهده تم توقيع معاهدة ١٩٣٦ ، محمد محمود باشا ، علي ماهر باشا ، حسن صبري باشا ، حسين سري باشا ، مصطفي النحاس باشا بضغط من الإنجليز في حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وفي عهده كانت أحداث الحرب العالمية الثانية ومعركة العلمين، أحمد ماهر باشا ، النقراشي باشا وفي عهده انتهت الحرب العالمية الثانية وتم تأسيس هيئة الأمم المتحدة وتوقيع ميثاق جامعة الدول العربية ، اسماعيل صدقي باشا ، محمود فهمي النقراشي باشا وفي عهده وقعت حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، إبراهيم عبد الهادي باشا ، حسين سري باشا ، مصطفي النحاس باشا وقام بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وبدء المقاومة في القناة وحدوث مجزرة للشرطة المصرية في الاسماعيلية واستبسالها في قتال الإنجليز وهو اليوم الذي أصبح عيداً للشرطة في ٢٥يناير ١٩٥٢ وحدث حريق القاهرة وإقالة وزارة الوفد وتعيين علي ماهر باشا ، أحمد نجيب الهلالي باشا ، حسين سري باشا ، الهلالي باشا وفي عهده قامت ثورة يوليو ١٩٥٢

- من الواضح بالفعل أن كل هذه الحكومات كانت نتيجة لعدم استقرار الحياة الدستورية وتدخل الإنجليز والملك في إقالة وتعيين من يريدون وكان حادث ٤ فبراير بالطبع مثال صارخ علي نفوذ الاحتلال وسيطرته علي الأمور ، ولكن ما عرضته لا يشبع الظمأ بل يزيد الأمور غموضاً فهل من الممكن أن نلقي الضوء علي بعض ما ذكرته من نقاط مهمة كحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وحرب فلسطين وغيرها من أحداث مثيرة كعيد الشرطة وحريق القاهرة ولنبدأ مثلاً بحادث ٤ فبراي
- معك كل الحق وسوف نعود للحديث عن كل النقاط المهمة التي وردت أثناء عرض أسماء رؤساء الحكومات ، أما حادث ٤ فبراير فسببه يرجع إلي أن الإنجليز كانوا بالطبع يخوضون معارك الحرب العالمية الثانية وكان النحاس باشا أثناء توليه الوزارة قد وقع معهم معاهدة سنة ١٩٣٦ والتي تفرض علي مصر مساعدة بريطانيا في هذه الحرب مقابل حصولها علي الاستقلال، لذلك أصر الإنجليز علي تولي النحاس باشا السلطة أثناء الحرب لينفذ ما وقع عليه من التزامات ، وإليك ما كتبه الرافعي عن هذا الحادث
- كلي آذان صاغية

حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وإصرار النحاس باشا علي وزارة وفدية خالصة بضغط علي الملك فاروق من الإنجليز بالقوة

- نقلاً عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة ١٩١٩ – لعبد الرحمن الرافعي – الجزء الثالث –دار المعارف – حيث كتب ما ملخصه : اتجهت نية الإنجليز خلال الحرب العالمية الثانية إلي إسناد الوزارة إلي النحاس أو اشتراك حزبه (الوفد) في الوزارة ، وأبلغوا هذه الرغبة إلي جلالة الملك ، – – فلما تحرجت الأمور في أواخر عهد وزارة حسين سري جدد السفير البريطاني (لورد كيلرن) إبداء هذه الرغبة

إلي جلالة الملك فاستدعي النحاس وحدد له يوم ٣ فبراير سنة ١٩٤٢ للمقابلة الملكية وعرض عليه جلالة الملك أن يؤلف وزارة قومية برآ سته ، وكان من الممكن أن يتم الأمر في هدوء وبغير حاجة إلي التدخل البريطاني المسلح الذي حدث يوم ٤ فبراير ، لو أن النحاس قبل أن يؤلف وزارة قومية ، ولكنه أبي ذلك استجابة لأنانيته واتباعاً لعادته في رفض الائتلاف إلا مكرهاً ، واعتذر لجلالة الملك من عدم إجابته هذا الطلب مستنداً إلي عدم استطاعته الاشتراك في الحكم مع رجال الانقلاب –علي الدستور– – – – ولما علم السفير البريطاني علي أثر هذه المقابلة بأن النحاس رفض تأليف وزارة قومية برآسته قابل رئيس الديوان الملكي (أحمد محمد حسنين) وأخبره بأنه علم برفض النحاس تأليف وزارة قومية – من جميع الأحزاب–، وطلب إليه أن يرفع إلي جلالة الملك نصيحة السفير أن يكلف النحاس بتأليف وزارة وفدية ، فرد عليه رئيس الديوان بأن المسألة بين الملك ورؤساء الأحزاب ، وفي اليوم التالي (٤فبراير) دعي رؤساء الأحزاب وبعض الشخصيات البارزة – – فاجتمعوا بالقصر في نحو الساعة الرابعة مساء ورأس جلالة الملك الاجتماع وتلا أحمد محمد حسنين رئيس الديوان بياناً باسم جلالته أشاد فيه بفضل الاتحاد ونوه إلي أن جلالته بدأ منذ أمس يستدعي بعض المجتمعين ليدعوهم إلي تأليف وزارة قومية ولكن قبل أن تبدأ المشاورات طلب إلي السفير البريطاني استدعاء النحاس باشا وتكليفه بتشكيل الوزارة – – – وأن السفير طلب اليوم ٤ فبراير مقابلة رئيس الديوان وسلمه إنذاراً هذا نصه : (إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساءاً أن النحاس باشا قد دعي لتأليف وزارة فإن جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب علي ذلك من نتائج) ،

- إنه تهديد مهين يدل علي الحجم الحقيقي للملك وللحياة الدستورية في مصر في ظل الاحتلال فما صيغة النص باللغة الإنجليزية ؟
- Unless I hear by 6 p.m. that Nahas Pasha has been asked to form a cabinet His Majesty King Farouk must accept the consequences.
- فماذا كان رد فعل الملك ؟
- يضيف الرافعي : وختم البيان بدعوة المجتمعين إلي تبادل الرأي في هذا الموقف وانصرف جلالة الملك تاركاً لهم حرية التشاور في الأمر ، تشاور المجتمعون فيما ذا يكون الرد علي الإنذار وكانت الفكرة الغالبة أن تؤلف وزارة قومية برآسة النحاس ولكن النحاس رفض فكرة الوزارة القومية وكانت عاقبة هذا الرفض أن وقع هذا الحادث الذي يعد من الأحداث الخطيرة في تاريخ مصر الحديث ، وانتهي المجتمعون إلي الاحتجاج علي الإنذار وكتب الاحتجاج ووقعوا عليه جميعاً وهذا نصه :(أن في توجيه التبليغ البريطاني اعتداء علي استقلال البلاد ويخل بأحكام المعاهدة) ، وعاد جلالة الملك إلي الاجتماع وعلم بما تم عليه الاتفاق من الاحتجاج فأقره ، حمل رئيس الديوان إلي السفير البريطاني نص الاحتجاج ، فأجاب أن هذا ليس رداً وأنه سيحضر لمقابلة جلالة الملك في الساعة التاسعة مساء

، وقبيل هذا الموعد جاءت دبابات بريطانية مسلحة بالمدافع ورابطت أمام القصر ، ثم حضر السفير البريطاني بصحبة الجنرال استون قائد القوات البريطانية في مصر وقتئذ وبعض الضباط مسلحين بالمسدسات ودخل السفير والجنرال استون إلي غرفة جلالة الملك واجتمعا به بحضور رئيس الديوان وكان السفير يحمل ورقة بالتنازل عن العرش فاختلي رئيس الديوان بالملك وأسدي إليه النصيحة بقبول الإنذار فقبله

- وبالطبع قام النحاس بتنفيذ كل ما تعهد به للإنجليز أثناء الحرب
- بالطبع ولكنه قد فقد الكثير من شعبيته وهو وحزبه بعد هذا الحادث بلا شك ، وهكذا قامت مصر بتسخير كل إمكانياتها لدعم الجيش البريطاني خلال الحرب وخاصة عندما تقدم القائد الألماني الشهير روميل وحقق انتصارات ساحقة ووصل إلي العلمين ، والطريف أن بعض المصريين كانوا يتمنون وصوله للقاهرة وإنهاء الاحتلال البريطاني وانتشرت مقولة (إلي الأمام يا روميل) نكاية في الإنجليز ، ولكن أوضاع القتال تغيرت عندما وصل القائد البريطاني مونتجمري واستلم قيادة الجيش البريطاني
- عجباُ لمن يريد استبدال احتلال باحتلال آخر ، ألم يدرك المصريون حتي ذلك الوقت العبث الذي يتم من الاحتلال والسراي بحياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ألم يفهم حتي أحد المثقفين من النخبة كل هذا
- دعنا نترك سرد الأحداث السياسية قليلاً علي أن نعود إليها إن شاء الله ، ولنتحدث عن موقف بعض المثقفين من مخططات الغرب
- أرجو ذلك لأنني في حيرة شديدة من كل هذه الأحداث وأريد أن ألتقط أنفاسي وأتأمل آراء النخبة المثقفة في مصر إن كنت تحتفظ بشئ منها

جزء من مقال (يا هادي الطريق جرت) للأستاذ أحمد حسن الزيات

- بالتأكيد ولنبدأ ببعض من مقال (يا هادي الطريق جرت) للأستاذ أحمد حسن الزيات ويعتبر الأستاذ أحمد حسن الزيات باشا 1885 –1968 من كبار رجال النهضة الثقافية في مصر والعالم العربي، ومؤسس مجلة الرسالة. واختير عضوا في المجامع اللغوية في القاهرة، ودمشق، وبغداد، وحاز على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 1962 م في مصر ، وفيما يلي بعض مما كتب : (----
– لقد تعدد الهداة في القافلة واختلفت الشياطين بين هؤلاء الهداة ، فتنازعوا الزعامة ، وتجاذبوا الأزمة ، فأخرجنا هذا من مذهب إلي مذهب ، وصرفنا ذلك من مطلب إلي مطلب ، حتي إذا انكشفت عن عيوننا أغطية الغفلة ، وجدنا أنفسنا بعد الجهد الجاهد ندور حول الموقف الذي كنا فيه ، أو نرجع إلي الموضع الذي فصلنا عنه ، علي هذه القيادة المتضاربة الأفينة رجعنا القهقري زهاء ثمانين سنة ، رجعنا إلي العهد الذي كنا نهدهد الدستور فيه علي هوي السلطان المطلق ، وندرب القانون علي مصارعة العرف الغالب ، ونعلم الشعب الأجير معني الأمة المالكة ، ليتنا عدنا إلي ذلك العهد بأخلاقه

ورجولته ، فقد كنا علي قلتنا أعزة ، وعلي فاقتنا أعفة ، وعلي جهالتنا أعلم بالخير ، وأفهم لمعني المجتمع ، كنا نتواصي علي الصبر ، ونتعاون علي البر ، ونتهادي صنائع المعروف ، ونحفظ وحدة الأسرة بالحب ، وسلطان الدولة بالطاعة ، وحقوق الله بالورع فما كان منا من يخون الأمانة ، ويسرق الأمة ، ويتكئ علي النقيصة ، ويتحمل علي الخبث ، ويتَّجِر بالدين ، ويتخذ عدو وطنه ولياً ، ويعتقد خطة غاصبيه شريعة ، ، ولكنا وأأسفاه ،، بعد هبَّة مصطفي[١٦٣] ، ونهضة سعد[١٦٤] ، وجهاد خمسة عشر عاماً ، تمكن فيها السلطان ، واستبحر العمران ، وازدهر العلم ، وتولَّد النبوغ ، وتوحَّد الشعب ، وتكوَّن الرأي ، نُصاب بهذه النكسة الشديدة ، فنعود ناقضين ما أُبرِم ، خاسرين ما غُنِم ، اللهم إن النيل لا يزال يفيض ، وإن الوادي لا يزال يُنبت ، وإن الشمس التي أنضجت أذهان الفراعين لا تزال تُشِع ، وإن الأيدي التي غرست أُولي الحضارات علي العُدوتين لا تزال تعمل ، فما بالنا اليوم يتقدم الناس ونتأخر ، وتتحرر شعوب الناس الضعيفة ونحن لا نتحرر)

- إنه كلام يغني عن سرد العديد من الأحداث بالفعل وأكثر ما لفت نظري فيه قوله (ليتنا عدنا إلي ذلك العهد بأخلاقه ورجولته ، فقد كنا علي قلتنا أعزة ، وعلي فاقتنا أعفة ، وعلي جهالتنا أعلم بالخير)
- بالفعل إنها كلمات معبرة جداً ولقد كتب الأستاذ الزيات هذا المقال في فترة من أحلك الفترات في تاريخ الحكم المصري ، فقد كانت البلاد آنذاك تديرها حكومة (صدقي باشا) وحكم البلاد أسوأ حكم ، وكانت المصالح الحزبية فوق كل اعتبار ، وكان للإقطاع ورأس المال والمحسوبية سطوته في كل مناحي الدولة وكانت مصر تحت الاحتلال البريطاني بالطبع
- وهل هناك آراء أخري ؟

د محمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦م) يوضح ما صدره الغرب للشرق

- ننتقل إلي رأي آخر قد يعبر أيضاً عن الكثير فهؤلاء المثقفون يعبرون عما نريد أن نقوله بأسلوب بليغ وممتع ويسهل استيعابه ،، وتحت عنوان المخدوعون كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي في كتابه الممتع (في محراب الفكر) ما ملخصه : لقد تراءي للجيل الذي تربي في ظل الحكم الأوروبي وذهب للدراسة في الجامعات الأوروبية ، ثم عاد إلي بلاده يدعو للقيم الأوروبية في السياسة والحضارة والحياة كلها ، تراءي له كم كان مخدوعاً وأن للغرب وجهين متناقضين وأن مؤثراته التي يصدرها للمستعمرات أغلبها بهرج وقشور ، أما تبشيره بثقافته وقيمه فالهدف منها زعزعة تراث المنطقة العربية وهدم كيانها الحضاري الموحد أكثر منه نشراً مخلصاً للفكر الإنساني الحديث المتحرر
- كلام منطقي جداً

---

[١٦٣] يقصد الزعيم مصطفي كامل

[١٦٤] يقصد الزعيم سعد زغلول

- وهذا أحد غلاة المجددين الذي عرف منذ شبابه الباكر بحماسته للتغريب والدعوة إلي الاغتراف من منابع الغرب ، والبعد عن مؤثرات العروبة والإسلام ، هو الدكتور محمد حسين هيكل الذي استقي هذه الأفكار بحكم صلة القربي إلي أستاذه أحمد لطفي السيد ، لقد ذهب هيكل إلي باريس في العقد الأول من القرن العشرين وبهرته أوروبا ثم عاد إلي وطنه ليتسلم الراية من أستاذه ويصير أحد أقطاب حزب الأحرار الدستوريين الوريث الشرعي لحزب الأمة ، ثم لا يحل عام ١٩٣٢ إلا يقدم لنا هيكل شهادته واعترافه بالمحنة التي تعرض لها شباب مصر الذين سافروا إلي أوروبا واعتنقوا مذاهب الغرب في الفكر ثم فقدوا ثقتهم في هذا الفكر فيما بعد ، لقد كتب هيكل في ملحق السياسة الأسبوعية بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٣٢ مقالاً هو أقرب إلي الإدانة لحضارة وثق بها ذات يوم : عاد هؤلاء (المبعوثون من شباب العرب) إلي بلادهم يبشرون بالحضارة الغربية لكنهم ما لبثوا أن صدمتهم ظاهرتان عجيبتان أثارتا دهشتهم لتناقضهما مع أصول الحضارة الغربية تناقضاً بيناً : الأولي : هذه الحرب المنظمة التي يقوم بها الاستعمار الأوروبي لحرية العقل ، - - - - -الثانية : انتشار المبشرين الغربيين في كل مكان من المدن الكبيرة والصغيرة بل في القري يدعو إلي المسيحية ولا يتورعون عن التعريض بالإسلام
- وبالرغم من هاتين الظاهرتين ظل هؤلاء الشباب يدعون إلي الحضارة الغربية مستندة إلي أصلها الصحيح - -ولكن مع مرور الوقت فتح عيونهم علي حقيقة أخري لم تكن أقل إثارة لدهشتهم من الظاهرتين اللتين قدمنا ، فما يصدر الغرب للشرق من آثار حضارته قد وقف أو كاد عند أسوأ ثمرات هذه الحضارة وما كان يأتي بلاد الغرب من الربح المادي يمده بأسباب الرخاء والترف ، فتجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو وجوقات الهذر المسرحي كان أول ما يصدم الناظر لآثار الغرب في الشرق ، ولم يقدم الغرب إلي جانب هذا من صالح ثمرات حضارته ما يستر سوءاتها هذه ، بل هو كما قدمنا قد وقف حائلاً دون سرعة انتشار العلم الصحيح مما كان هؤلاء الشبان يجاهدون بكل ما يدخل في حدود طاقتهم لنشره والتمكين له ، ثم كشف تعاقب السنين من بعد الحرب الأولي عن الحقيقة المؤلمة المضنية فقضية أوروبا التي حاربت في سبيلها أربع سنوات تباعاً - - لم تكن إلا قضية الاستعمار ، ومن يكون له حق التوسع فيه ، ثم بدت حقيقة أشد من هذه الحقيقة مرارة وإيلاماً تلك أن الغرب الذي تزعم دوله أنه تحرر من قيود التعصب الديني مازال يذكر الحروب الصليبية - - وإن كلمة لورد اللنبي يوم استولي علي القدس وقوله (إن الحروب الصليبية قد انتهت) ، كانت تعبر عن معني يجول بخاطر الدول الاوروبية جميعاً ، في ظل هاتين الحقيقتين الأليمتين جعلت دول الغرب التي وضعت يدها علي العالم الإسلامي تمد في أسباب الجمود الديني عن طريق الجامدين المتعصبين لتزيد الشعوب الإسلامية جموداً وليزيدها الجمود ضعفاً - - - إن هذه الشهادة ضد أوروبا - - يجب ألا يفوتنا مغزاها فهي تصدر بعد مرور أقل من عشر سنوات ١٩٢٣-١٩٣٢ علي استقلال مصر وإقامة نظام دستوري برلماني حزبي علي الطريقة الغربية في جو مفعم بالأمل في توجه مصر نحو الحضارة

الغربية واستفادتها من قيمها وإنجازاتها، وهي شهادة لا تصدر عن شيخ أزهري ولا عن مفكر سلفي بل تصدر عن مثقف درس في أوروبا وأعجب بحضارتها والتزم بالدعوة لها ، ثم ها هو يقف وقفة مراجعة ، علي ضوء تجربته وتجربة جيله المتحمس للتغريب – ليكتشف أن دول الغرب في الشرق لا تقف مع المؤمنين المخلصين لحضارتها الصحيحة من أبناء المنطقة[١٦٥] – –

- يا لها من شهادة للتاريخ ولكن قل منا من يقرأ التاريخ ،، هذا ما حدث لبعض المثقفين فماذا فعل الاحتلال البريطاني بمصر والمصريين ؟

كيف تدهورت الحالة الاجتماعية في ظل الاحتلال البريطاني ؟

- لقد قام المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي بتوضيح كيف تدهورت الحالة الاجتماعية في ظل الاحتلال البريطاني حيث كتب ما يلي : ، ، ، والطبقة الفقيرة من الفلاحين والعمال وهم أغلبية الشعب قد ساءت حالتهم في عهد الاحتلال ، فهو المسئول الأول عن انتشار الجهل والأمية بينهم – – وهو بسياسته التعليمية قد حال دون تعليمهم وتهذيبهم وتثقيفهم ، فحرموا نور العلم والتربية الأخلاقية والدينية وساءت حالتهم المادية والمعنوية وأهمل الاحتلال حالتهم المادية والصحية والمعنوية وانتشرت فيهم الأمراض ، واجتمعت إلي ذلك رعاية الحكومة للآفات الاجتماعية التي جاءت من أوروبا ورعاها الاحتلال وحماها ، فعمت طبقات الشعب علي السواء ، كبيرها ومتوسطها وصغيرها ، وأولي هذه الآفات الربا ، فقد انتشر انتشاراً ذريعاً ، وساعد علي ذيوعه ما فطر عليه معظم الطبقات في بلادنا من قصر النظر وعدم تقدير العواقب وحب الظهور والإسراف ، ووجد المرابون من هذا الضعف ومن النظم والقوانين ورعاية المحاكم المختلطة ما جعلهم يتغلغون في مختلف الأوساط في العواصم والبنادر والقري القريبة والبعيدة فكبلوا الأهلين بالديون ، مما أفضي إلي ضياع ثروات الكثيرين منهم ، وانتشار الفقر والبؤس في الطبقات الكبيرة ، ثم المتوسطة والصغيرة ، وانتشرت الخمور الفتاكة بين سكان المدن ، ثم سكان الريف ، وصارت محلات المسكرات تفتح علناً في القري بين الفلاحين ، وفي الأحياء الآهلة بالعمال في المدن ، برعاية الحكومة وحمايتها ، وفي كنف الامتيازات الأجنبية ، ففتكت بهم فتكاً ذريعاً ، وأفسدت عليهم صحتهم ودينهم وأخلاقهم ، ونقصت مقدرتهم علي العمل والإنتاج ، وساعدت علي ازدياد حوادث الإجرام والإخلال بالأمن العام ، فبينما الحكومات الأوروبية والأمريكية التي لا تحرم الخمور تحاربها وتمنع انتشارها وبخاصة بين الفلاحين والعمال وتعقد المؤتمرات الدولية وتنشئ اللجان والنظم لمكافحتها والحد من أضرارها ، كانت هذه الآفة تلقي من الحكومة الرعاية والتنشيط ، وصار تجار الخمور في المدن والأرياف ذرائع للتسليف بالربا الفاحش واستلاب أموال الأهلين وإفساد أخلاقهم ، وانتشرت أيضاً آفة الميسر إلي جانب آفة الخمر فساءت حالة الشعب الاجتماعية تبعاً لذلك ، لم

---

[١٦٥] نقلاً باختصار عن كتاب في محراب الفكر – للأستاذ جمال بدوي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٨– مقتطفات من صفحة ١٧ وما بعدها

تتقدم إذن حالة الشعب الاجتماعية في عهد الاحتلال بل ساءت وصارت وبالاً وزادته هذه الآفات بؤساً وانحلالاً وفي ذلك يقول الأمير (السلطان) حسين كامل في حديث له نشرته جريدة ذي إجبشيان استاندرد – اللواء المصري – (عدد ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٨) يصف بؤس الفلاح : إن الفلاح يقضي حياته مثقلاً بالدين ، لا يزيد إيراده علي الضرائب المفروضة عليه وفوائد الديون المطلوبة منه وهو لكي يسد حاجات زراعته في مواعيدها مضطر دائماً إلي الاستدانة بالربا الفاحش ، فلهذا العسر من جهة ، ولخلوه من المال من جهة أخري ، ولكثرة من يعولهم من جهة ثالثة قد بقي الفلاح غريقاً في بحار الضنك لا يعرف لنفسه مخلصاً منها ، وصفوة القول أن سياسة الاحتلال كانت من أهم أسباب تأخر البلاد الاجتماعي وتشاركه في حمل هذه المسئولية الحكومات الأهلية والبيئات المصرية[١٦٦]

- يا لها من مأساة

بيرم التونسي يسخر من الملك والاحتلال البريطاني والقوي السياسية

- لقد كانت فترة الاحتلال البريطاني ووصول أحفاد محمد علي باشا للحكم فترة من أحلك الفترات في تاريخ مصر خاصة بعد استطاع الإنجليز استبدال الزعامة الشعبية الحقيقية بزعامات تتسم بالمهادنة والمرونة واستخدموهم في تهدئة الشعب عندما يثور أو يقاوم بل جعلوا منهم حكومات تساعدهم علي القمع والظلم ونشر الجهل والفجور بين طبقات الشعب المختلفة وكان بيرم التونسي الشاعر الشعبي المعروف في تلك الفترة دائماً ما كان يسخر من هؤلاء السياسيين ومفاوضاتهم العقيمة مع الاحتلال حتي أنه أنشد يقول :

الحماس ما تبط من أيام عرابي   وانتهينا
لنجليز شالوا المدافع والطوابي   واتلهينا
الخازوق ماسك متين والفرقة تبني بالمدافع
والحقوق تطلبها بالروب والجوانتي وابقي رافع
للبلد جايبين حكمدار من جلاسكو واستلمها
متحمص لو كان في مدريد ولا مسكو كان هدمها
في الفوتيل قاعد أمير والشغل داير حمري جمري
ون زغر لاعظم وزير بردون يا ماهر بطنه تجري
مشروعات اتنفذت وسيادنا تنهب   في الفوايد
من سكات ون كنت تزعل يللا هبهب في الجرايد
المعسكر ينبني يوم المفاوضة ونت مالك
دي الأوامر ، والمرافعات والمعارضة خلوها لك

[١٦٦] نقلاً عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة ١٩١٩ – لعبد الرحمن الرافعي – الجزء الثاني –دار المعارف

وقت ما يهف الغرام قول يااللابينا عالمراتب

ستميت كبتن يجولك ع المدينة م المراكب

نتفق أو نختلف برضه انت تطلع بالبشاشة

والنشان الحلو في صدرك بيلمع وانت باشا

ياللي قصر الزعفران[١٦٧] مقفول عليكم كلمونا

سلمتكم مصر روحها بين يديكم طمنونا

- إن هذه القصيدة تعبر تعبير ساخر وعميق عن الفرق بين زعامة عرابي وزعامة من جاء بعده ، فهل كتب بيرم التونسي أشعار أخري في هذا السياق ؟
- بالتأكيد وإليك قصيدة يسخر فيها من اهتمام الملك بأحياء الأجانب في الوقت الذي لا يبالي بالأحياء الشعبية حيث أنشد يقول تحت عنوان أهل الوطن والغرباء :

وحول منازل الغرباء عنا غرست الورد ثم الياسمينا

وأخضلت الغصون لهم سماء ومهدت الرخام الجذع حينا

وما قرموا للحم الطير حتي منحتهم الأوز العائمينا

تفجر تحت أرجلهم عيونا وتفقأ وسط أعيننا عيونا

وترضي عنهمو وتصد عنا وقد سخطوا ونحن الشاكرونا

فمر بها علينا كل عام بحي الأشقياء البائسينا

تري الوحلات جاثمةَ وفيها بنات قد تعلمن العجينا

إذا كنت الطبيب ونحن مرضي فأوص الناس خيراَ بالبنينا

- فهل شارك شعراء آخرين في وصف الأحوال في ظل الاحتلال ؟
- بالتأكيد فالشعر يعبر عن الأحوال خير تعبير ويغني عن العديد من المقالات بل والكتب أيضاً ، ومن خير الأمثلة علي ذلك ما كان يكتبه شاعر النيل حافظ إبراهيم وخاصة عندما وجد انتشار الانحلال في عدة مناطق بالقاهرة كالأزبكية وشارع عماد الدين وغيرها
- فماذا كتب ؟
- لقد أنشد يقول :

حَطَمْتُ اليَراعَ[١٦٨] فلا تَعْجَبِي وعِفتُ البَيانَ فلا تَعتُبي

فما أنتِ يا مصرُ دارَ الأديبِ ولا أنتِ بالبَلَدِ الطَّيِّبِ

---

[١٦٧] كان قصر الزعفران أحد الأماكن التي كان تتم فيها المفاوضات

[١٦٨] القلم

وكمْ فيكِ يَا مصرُ مِنْ كاتبٍ أقالَ اليَراعَ ولم يَكتُبِ
فلا تُعذُليني لهذا السكوت فقد ضاقَ بي منكِ ما ضاقَ بي
وكم غَضب الناسُ من قبلِنا لسَلبِ الحُقوقِ ولمْ نغضَبِ
أنابتَةَ العصرِ إنّ الغريبَ مُجِدٌّ بمصرَ فلا تلعبي
يقولون: في النَّشْءِ خيرٌ لنا ولَلنَّشْءُ شرٌّ من الأجنبي
أفي (الأزبكيّة) مثوى البنينِ وبين المساجد مثوى الأب؟
وكم ذا بمصرَ من المضحكاتِ كما قال فيها أبو الطيِّب
أمورٌ تمرُّ وعيشٌ يُمِرُّ ونحن من اللَّهو في ملعب
وشعب يفرُّ من الصالحاتِ فرارَ السَّليم من الأجرب
وقالوا: دخيلٌ عليه العفاء ونعم الدَّخيلُ على مذهبي!
رآنا نياماً ولما نُفِقْ فشمَّرَ للسَّعي والمكسب
وماذا عليه إذا فاتنا ونحن على العيش لم ندأب؟
ألفنا الخمولَ ويا ليتنا ألفنا الخمولَ! ولم نكذب!
فيا أمّةً ضاقَ عن وصفها جَنانُ المفوَّهِ والأَخْطَبِ
تضيعُ الحقيقةُ ما بيننا ويَصلى البريءُ مع المذنب
ويُهضَمُ فينا الإمام الحكيم ويُكْرَم فينا الجهولُ الغَبِي
على الشَّرق منِّي سلامُ الودود وإنْ طأطأ الشَّرقُ للمغرب
لقد كان خِصباً بجدب الزّمانِ فأجدبَ في الزَّمن المُخْصِب!

- وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكاء ، فهل لديك معلومات عن شارع عماد الدين أو شارع الفن كما يقولون ؟

استخدام الفن في التأثير علي ثقافة المجتمع

- بالتأكيد إن موضوع انتشار الفن في صورة ملاهي ليلية وأعمال مسرحية ثم بعد ذلك أعمال سينيمائية كان من أكثر ما استخدمه الاحتلال تأثيراً علي ثقافة ووعي هذا الشعب فقد قدم لهم صور من الحياة التي يريد أن يقلدوها في كل شئ حتي في أسلوب الكلام والملابس وتجد أكثر الفنانين والفنانات شهرة يرتدون ملابس لا تليق بمجتمع مسلم كما كانوا يشربون الخمور في هذه الأعمال الفنية ويسخرون من كل ما هو إسلامي وقد تعلق الكثير من المصريين بهؤلاء الممثلين وأحبوهم وأصبحوا مثلاً أعلي لهم ، وقد كان القائمون علي هذه الأعمال يعملون بخبث شديد علي تقديم نماذج من أبطال هذه الأعمال الفنية تكون في قمة الأخلاق والالتزام مع احتساءهم للخمر وملابسهم الغير لائقة حتي يستقر في وعي الناس أن هذه المحرمات ليس لها علاقة بالأخلاق الرفيعة ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه تقديم

البديل الحضاري الذي يصنع مجتمع جيد في كل شئ ولا يلتزم بتعاليم الإسلام وهو أكثر خطورة من مواجهة الإسلام بأسلوب تصادمي

- بالفعل لقد تأثر المجتمع بهذه الأعمال المسرحية والفنية ربما إلي الآن حتي أن البعض يسمي ذلك العصر بزمن الفن الجميل ، ربما لأن علي ما كان فيه من عري وشرب للخمر وغير ذلك من محرمات، كانت هناك بعض الثوابت الأخلاقية والمبادئ العامة ، التي تم نسفها هي أيضاً في العديد من الأعمال الفنية حالياً ، والمؤسف حقاً أنهم تركوا من ينوب عنهم في فعل كل هذا بعد انتهاء احتلالهم للبلاد
- فهمت ما يقصده الكاتب ولكن هناك سؤال خطر لي أثناء الكلام وهو : هل معرفة التاريخ مهمه في ذاتها أم مهمه لأننا نعرف من خلالها كيف وصلنا لما نحن فيه ؟
- أعتقد أن دراسة التاريخ يجب أن تكون لها علاقة بمحاولة فهم الحاضر

معرفة الماضي ليست هدف المؤرخ ولكن هدفه معرفة كيف صار الحاضر إلي ما هو عليه ؟

- بالفعل إذا لم نفهم من دراسة التاريخ كيف وصلنا لما نحن فيه فلا جدوي من دراسته
- يقول أحد علماء التاريخ (- - - إن معرفة الماضي ليست –ولا يمكن أن تكون- هدف المؤرخ إنما هدفه –وهو هدف كل مخلوق يفكر- هو معرفة الحاضر ، إلي هذه الغاية ينبغي أن ينتهي كل تفكير ، وحول هذه الغاية ينبغي أن يدور كل شئ ، ولكن المؤرخ لا يشغله إلا مظهر واحد من الحاضر ، وهو : كيف صار إلي ما هو عليه ؟ وعلي هذا الاعتبار يكون الماضي مظهراً للحاضر ووظيفة من وظائفه وعلي هذه الصورة ينبغي أن يظهر التاريخ في نظر المؤرخ الذي يفكر بذكاء في عمله أو يحاول أن يصل إلي فلسفة التاريخ ،، وقد كان الكثيرون ممن ينقدون التاريخ ومنهجه يقولون : إن عمل المؤرخ يعتمد علي "المقص وزجاجة الصمغ scissors and paste" أي أنه يقطع صفحات مما قاله الأولون ويلصقها بعضها إلي جانب بعض ويعمل منها تاريخاً وهذا يصدق –ربما- علي الكثيرين من مؤرخي العصور الوسطي وقد أنكر كولنجوود ذلك إنكاراً شديداً وقال : "إن المؤرخ الحق ليس عبداً لمراجعه " ، وقال : "إن المقص والصمغ لم يكونا قط أساس المنهج التاريخي " فإن المؤرخ الحق لا يتقيد بمراجعه إلي الحد الذي يجعلها قيداً له ، بل إن للمؤرخ الحق في أن يُقوّم مراجعه نفسها إذا تبين له فيها الخطأ أو الكذب -)[١٦٩]
- إذا سلمنا بهذا الكلام فإن ذلك يعطينا الحق في مراجعة ما نقرأه في المراجع ولكن كيف لنا أن نتبين ما فيها من خطأ أو كذب ؟

---

[١٦٩] نقلاً عن كتاب –التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ- ماهيته وموضوعاته ومذاهبه ومدارسه عند أهل الغرب وأعلام كل مدرسة وبحث في فلسفة التاريخ ومدخل إلي فقه التاريخ–د حسين مؤنس –دار الرشاد–الطبعة الثانية ٢٠٠١–صفحة ١٨٣-١٨٤

- أعتقد أنه لا سبيل إلي ذلك إلا بمقارنة ما جاء في هذه المراجع من تناقضات إن وجدت ، أما المتفق عليه في جميعها فهو أقرب للصحة
- حسناً لقد فهمت مما قلناه أن هناك منتج بشري جديد انتشر في مصر بعد ثورة ١٩١٩ وبعد إلغاء الخلافة العثمانية ، وهذا المنتج يتسم بالعلمانية الوطنية وقد أصبح أقوي من التيار الإسلامي الذي ضعف نسبياً ، بل إن الغرب كان حريص علي أن لا يغارد بلاد المسلمين إلا بعد أن يتحول المُنتَج إلي مُنتِج ينوب عنه في تغريب المجتمع
- بالفعل للأسف لقد ابتعد الكثير من المسلمين في مصر إلا من رحم ربي عن المنهج السليم والذي يتفق مع الفطرة السليمة وحاولوا تقليد الغرب في كل شئ إلا الإنتاج والتحديث
- أنا لا أستطيع أن أفهم كيف يقول البعض : أنني كي أعيش حياة كريمة لابد أن أتبع عادات الغرب بما فيها من تجاوزات تخالف الفطرة ، ولماذا لا أعيش حياة كريمة مع التزامي بثوابتي الدينية والأخلاقية
- السبب هو تقدم الحضارة المادية الغربية التي تعتبر من أشد الفتن التي يتعرض لها المسلم حالياً فطالما هم متقدمون ويعيشون في رفاهية ويتم تطبيق القانون علي الجميع فهم يعيشون حياة كريمة لن تتوفر لنا في رأي المفتونين بهم إلا إذا قمنا بتغريب المجتمع
- بل إنه من الممكن جداً أن نعيش حياة كريمة ويتم تطبيق القانون علي الجميع أيضاً وتسود الحرية والكرامة والنظام والنظافة وكل مظاهر الحضارة مع تمسكنا بديننا ولكنني أعتقد أن بعض الأنظمة الحاكمة التي تحكم وتسيطر علي دول العالم الإسلامي تساهم في فتنة المسلمين بنفس القدر الذي يفعله الغرب بل أكثر فهم لا يعملون علي توفير الحياة الكريمة بين مواطنيهم من المسلمين ولا يطبقون القانون علي الجميع ولا يهتمون بحقوق الإنسان ولا بالعلم ولا بالبحث العلمي ولا ببناء الإنسان وبالتالي يقدمون نموذجاً سيئاً للمجتمع المسلم علي خلاف ما أمر به الإسلام مما يجعل المسلم يقارن بين مجتمعه والمجتمعات الغربية فيفتتن بحضارتها
- هذا صحيح بل إن بعض المسلمين قد ينبهر بمراعاة حقوق الإنسان وكرامته في الغرب أكثر مما ينبهر بالحضارة المادية نفسها ، ولذلك يشعر أن مجتمع الغرب أفضل من المجتمع المسلم ، ولكنه لو فكر قليلاً في الأمر سيجد أن هذه المجتمعات التي تبدو رائعة هي التي ترعي الأنظمة الفاسدة التي تحكم مجتمعات المسلمين حتي ينعم الغرب ببؤس مجتمعاتنا فنصبح كما ذكرت لك سوق لمنتجاتهم وحقل تجارب لأسلحتهم وأدويتهم وتصبح بلادنا مناطق لتصنيع الصناعات الملوثة للبيئة لتظل بيئتهم نظيفة بل قد يصل الأمر إلي دفن نفاياتهم النووية في بلادنا والإتجار بالأعضاء البشرية ، فلا يمكن أن تعيش شعوب في رفاهية إلا إذا استنزفت ثروات شعوب أخري وقهرتها وتحكمت فيها ، فتصبح هناك شعوب غنية وشعوب فقيرة ، شعوب حرة وشعوب مستعبدة ، شعوب عزيزة وشعوب ذليلة يحكمها عملاء فاسدون

- ولكن أعتقد أن المواطن العادي في الغرب مواطن برئ يعمل وينتج ويلتزم بالقانون ويستمتع بحياته وقد يتعاطف مع أخبار القتل والدمار التي قد يراها في المجتمعات البائسة ، وبالتالي فقد تكون حكومته هي من تصنع ذلك ببلادنا وليس له ذنب علي المستوي الشخصي
- لا أحد في الغرب يهتم بمعرفة ما يحدث في العالم كما نهتم نحن إلا المتخصصين في ذلك ، فإذا سألت شخص عادي في أي دولة غربية عن رأيه فيما يحدث في فلسطين مثلاً سيقول لك أنه غير متخصص في ذلك فهناك من يفهمون ويعملون في مثل هذه الأمور أما هو فله عمله وتخصصه وحياته الخاصة التي ينعم بها ، فما الداعي ليشغل نفسه بأمور غيره ، يكفي أن يهتم كل شخص بعمله فقط ، وما يحدث في فلسطين هو من صميم عمل أشخاص آخرين في المجتمع
- فهمت ما تعنيه ولكن هذا الجهل ليس مبرر لقيامه بانتخاب نفس الأنظمة التي تنفذ نفس السياسات تجاه بلادنا لمجرد أن اختياره في الانتخابات لا يعتمد علي ما يحدث في العالم ولكن علي ما سيحققه المرشح من رفاهية لمجتمعه حتي لو تسببت هذه الرفاهية في استعباد وقهر مجتمعات أخري
- هذا صحيح ، أما المجتمع المسلم فعندما يسود العالم كما فعل من قبل فهو مسئول عن سعادة باقي المجتمعات وتحقيق العدل ونشر السلام والأمان للجميع ، ولكن دعني أسألك إذا أتيحت لك الفرصة هل ترغب في أن تعيش حياة كريمة في بلاد الغرب وتحصل علي جنسية أحد هذه البلاد وتترك بلاد المسلمين التي أصبحت متخلفة ويعمل الغرب علي استمرار تخلفها ورعاية حكامها الفاسدين ؟
- لا أعتقد أن الفطرة السليمة تتناسب مع الحياة في ظل قوانين الغرب فلا أتخيل أنه قد يعيش إنسان حياة كريمة هناك ولا يستطيع أن يمنع ابنته من الزنا بعد بلوغها سن الثامنة عشرة ، أو أن يكون في المنزل المقابل له رجل متزوج من رجل مثله وتمتلئ الشوارع والطرقات والحدائق بالعري الذي يجعل كل رجل لا يقنع ويرضي بجمال زوجته وكما يقول المثل هناك كلهن جميلات إلا زوجتي ، وغير ذلك الكثير من السلوكيات البعيدة عن منهج الله مثل الدعارة والخمر والميسر والرقص والغناء وغيرها الكثير من الفواحش والمحرمات التي يحاول بعض حكام المسلمين نشرها في بلادنا بالتدريج